

رَجُلٌ خَدَّ الْعَالَمَ

سَمِيرَ زَكِي

اسم الكتاب : رجل ضد العالم (رواية)

اسم الكاتب : سمير زكي

رقم الإيداع : ٥٨٥٩ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : 9789778518023

الطبعة الأولى : ٢٠١٥

مراجعة لغوية ، وإخراج : هيام فهميم

صادر عن : مؤسسة زحمة للثقافة والنشر

١٥ ش السباق - مول المريلا ند - مصر الجديدة



www.za7ma-kotab.com



www.facebook.com/za7ma

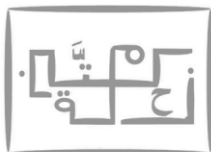


za7ma-kotab@hotmail.com

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمؤسسة زحمة للثقافة والنشر

المشهرة قانونًا بسجل تجاريّ رقم / ٨٤٤٨٦



مؤسسة زحمة كتاب للثقافة والنشر

(1)



- العالم يمضي وشهواته معه ، أما من يصنع مشيئة الله فهو يثبت إلى أبد الآبدين .

بهذا أيها الطلبة الأعزاء نكون قد أنهينا منهج علم اللاهوت الدفاعي ضد البدع والهرطقات لتلك المرحلة وللتذكرة العامة نسترجع سريعاً ما درسناه على مدار المدة السابقة بدءاً من بدعة الأسقف "سابيلوس" الذي ادعى أنَّ الآب في العهد القديم هو المسيطر ، وأنَّ الابن في العهد الجديد هو الإله ، أما الروح القدس فلم يظهر سوى بحلوله على التلاميذ في العلية باليوم الخمسين وأنه منقسم من الابن ، وبعدها شرحنا بدعة "نبيوس" أسقف "أريينو" التي نصت على أنَّ يحكم السيد المسيح لمدة الألف سنة على الأرض ويسود فيها السلام والعدل والرحمة مستنداً على وقائع وأحداث رؤيا يوحنا الرائي عن نهاية العالم ، وشرحنا أيضاً انحراف "بيرلس" أسقف "البصرة" الذي ادعى أنَّ المسيح لم يكن موجوداً قبل وجوده من العذراء ولم يكن له لاهوت ، وفي نهاية حياة هذا الأسقف رجع عن انحرافه وعاد للإيمان الصحيح .

ومن ثم انتقلنا إلى عصر الهراطقة الأقوياء الذين أَرهقوا الكنيسة مثل "بولس السيمساطي" الذي من بلدة صغيرة فيما بين النهرين بسوريا وقد جلس على الكرسي الأنطاكي ولثقة ملكة التدمر به الملكة "زينب" قامت بتعيينه جامع ضرائب أيضاً فاهتم بالأموال تاركاً سلطته الدينية متنعمًا في ملذات الحياة وخيراتها مبتعدًا عن معالم النسك والزهد والتقشف التي لا بد أن يتحلّى بها كرجل دين .

ونصت بدعته على أن ابن الله ليس أزلياً بل وجد بعد ولادته ؛ أي أنه ولد كإنسان عادي وفارقه الألوهية عند الألم ، وعليه ابتدع أن المسيح به أقنومان وابنان لله : أحدهما بالطبيعة والآخر بالتبني ، وللأسف الشديد اتبعه كثيرون منجرفون وراء آرائه وأفكاره الغريبة العجيبة التصديق للعقل حتى تم خله من على الكرسي الأنطاكي .

وما أن هداً الوضع نسبياً حتى ظهر "ماني" ذلك المجوسي الذي أعلن مسيحيته ؛ لأنه لم يجد فائدة في المجوسية بعد ، ولأنّ المسيحية قد أصبحت مسيطرة على الإمبراطورية الرومانية بأكملها ، وملخص بدعته أن المسيح لم يكمل عمله وأنه هو من سيكمله متخذاً لنفسه اثني عشر تلميذاً واثنين وسبعين أسقفاً مرسلًا إياهم إلى الهند والصين وكل بلاد المشرق ، حتى قُتل على يد ملك الفرس لينتشر أتباعه في كل

أنحاء الشرق بين مصر وسوريا وفارس وأفريقيا ،
 ووضع "ماني" قبيل موته إنجيلاً يدعى "آرتن" ليؤكد
 بذلك قول الرسول "بولس" في رسالته الأولى إلى
 "تيموثاوس" قائلاً :

"ولكن الروح يقول صريحاً : إنه في الأزمنة الأخيرة
 يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مضلة وتعاليم
 شياطين ، مانعين عن الزواج وأمريين أن يتمتع عن
 أطعمة قد خلقها الله لتتناول بالشكر " .

وللأسف الشديد إنَّ ماني قد اتبعه جمع كثير من
 الرعية المسيحية وانقاد إلى كلامه وأفكاره رجال دين
 أيضاً آمنوا به وأشاعوا تعاليمه التي ما زالت بيننا
 حتى الآن . ويعتبر كل من "بولس السيمساطي" و
 "ماني" من أقوى الهراطقة وأشدّهم صلابة وتعنتاً
 ظاهرين في القرن الثالث لميلاد ربنا يسوع المسيح ،
 وبسببهم هُلكت أنفس الكثيرين .

وأتى "هيراكس" في النهاية واضعاً نظريته القبيحة
 معتبراً أنَّ المسيح ليس سوى واضع شريعة موسى
 وأنه منع الشعب عن الزواج واللحم والخمر معتقداً أنَّ
 "ملكي صادق" هو الروح القدس وأنَّ كل رئيس
 روحي ديني حر في سياسته الكنسية لأنَّه سيقدم حساباً
 عن أعمال وكالته إلى الرب ، وليس من اختصاص
 أحد التدخل في شؤونه .

وبذلك ينتهي عهد البدع والهرطقات الهينة لما سيحدث بعد ذلك في أواسط القرن الثالث ، وهذا مجمل دراستنا بمشيئة الله بالمنهج الدراسي المكمل بعد إنهاء منهج النحو في اللغة اليونانية مع معلمكم ، سوف ندرس عن "أريوس" وبدعته المستمرة حتى الآن .
والآن أترككم في رعاية الله يا أبنائي الطلبة الأعزاء ،
سلام الرب يكون معكم .

رد الطلبة في نفس واحد قائلين :

- ومع روحك أيضًا يا معلم .

بدأ الطلبة بضرب يدهم اليمنى على فخذهم الأيمن وهم جالسين ، معلنين امتنانهم وعرفانهم بالجميل للمعلم الصالح .
خرج المعلم من رواق الطلبة منفردًا بنفسه في مكتبه الخاص بمساعد رئيس المدرسة اللاهوتية بالشجر السكندري - وهذا لقبه ، ناظرًا إلى شاطئ البحر من شرفته الكبيرة ، ذلك البحر الهائج بأمواجه العاتية التي تضرب صخور الشاطئ ضربًا مبرحًا تاركة آثارها حُفرًا على ذاكرة الشيخ المسن البالغ من العمر الثالثة والسبعين ، هادئ الطباع ، طيب الملامح ، ذي الذقن البيضاء الخالصة التي تزيده هيبَةً ووقارًا ، والشعر الأبيض الخفيف الذي ما أن تتخلله نسيمات هواء الشجر السكندري الرائعة حتى تطير تلك الخصيلات البيضاء من مكانها .. هذا هو (المعلم الصالح) ، ولُقِّب بذلك تكريمًا له من طلابه الذين رأوا فيه القدوة الحسنة والعلم الغزير الذي يتمتع

به حتى إنهم نسوا اسمه الأساسي وظلوا ينادونه بذلك اللقب المحبب إلى قلبه ، المعلم الصالح الذي يشع رحمةً و محبةً على جميع الطلبة بلا تفرقة منذ أن ارتقى سدة كرسي مساعد رئيس المدرسة اللاهوتية التي أقامها "مرقس الرسولي والإنجيلي" بنفسه على غرار مدرسة الإسكندرية العظمى . تذكر المعلم أنه حيث يقف الآن وقف مكانه عُمداء تلك المدرسة اللاهوتية المجيدة أمثال "أثينا غوراس" و"بنتينوس" و"إكليمندس" و"أوريغانوس" إلى أن وصلت إلى "ديديموس الضرير" .

توقف المعلم متمعناً في البحر الذي أمامه متخيلاً الفرق بين أعمى البصيرة وأعمى القلب والعقل ، ليجد بعد عناء التفكير أن أعمى البصر يمكن أن يكون أخف وطأة من أعمى القلب والعقل ، فهذا هو "ديديموس الضرير" يصبح عميداً للمدرسة جاعلاً منها منارة علمية وبحثية ولاهوتية في عهده ؛ حيث طور المناهج بعد "إكليمندس" سابقه ليضع ثلاثة مناهج يتبعها الدارس بالمدرسة اللاهوتية العظمى ألا وهي .. أولاً : منهج خاص لغير المسيحيين يقدم للطلبة أساسيات المسيحية ، ثانياً : منهج خاص بالأخلاقيات المسيحية ، ثالثاً : منهج متقدم عن الحكمة الإلهية والمعرفة الكافية للإنسان المسيحي الروحاني .

ومع كل ذلك تمارس العبادة بجانب الدراسة ، ويمارس الأساتذة مع تلاميذهم الصلاة والصوم وأمور النسك .

تاريخٍ عظيمٍ لمدرسة أمينة على التعليم المسيحي في العالم أجمعه ؛ حيث تعتبر من المدارس الأولى التي يفد إليها الطلاب من جميع أجناس الأرض لتعلم العلوم المسيحية الفاضلة ليعودوا إلى بلادهم نواة لبذرة طيبة تم غرسها فيهم بالثغر السكندري ، مرتوين من ماء الحياة داخل المدرسة اللاهوتية .

عاد المعلم الصالح بذاكرته إلى زمنه الحاضر تاركاً شرفته المحببة إلى قلبه ، مقررًا أن يقوم بجولته التفقدية اليومية داخل المدرسة ، مرًّا على رواق تعليم الألحان الكنسية واجدًا معلمي الألحان جالسين مع الطلبة ينشدون ويرتلون اللحن الخاص بدخول البطريرك أو الأسقف إلى الكنيسة ، ألا وهو لحن "إبؤرو" باللغة القبطية الذي معناه (يا ملك السلام) وهو لحن جميل ونصه كالآتي :

- يا ملك السلام ، أعطنا سلامك ، قرر لنا سلامك واغفر لنا خطايانا .
- فرق أعداء البيعة ، وحصنها فلا تززع إلى الأبد .
- عمانوئيل إلهنا في وسطنا الآن بمجد أبيه والروح القدس .
- ليباركنا كلنا ويطهر قلوبنا ويشفي أمراض نفوسنا وأجسادنا .
- نسجد لك أيها المسيح مع أبيك الصالح والروح القدس لأنك أتيت وخلصتنا .

شعر المعلم بسلام داخلي وارتياح نفسى عظيم عند وقوع اللحن على مسامعه ، وبالأخص من طلبة السنة الأولى الدراسية الذين أجادوا في إلقائه ، والفضل يرجع إلى معلمهم البارعين في الثغر كله بل في مصر كلها .. ولحن (يا ملك السلام) له وقع خاص على نفس المعلم ؛ حيث يثبت ألوهية السيد شارحاً معنى الثالوث القدوس مشرّكاً إياهم كلهم في الألوهية ، وأنّه لا يوجد أقنوم أقل من نظيره بل الثلاثة واحد. تمنع المعلم كثيراً في فكرة (الثلاثة واحد) مغمضاً عينه فترة من الوقت مستعيداً تاريخاً أسود على ذاكرته ، فاتحاً عينه مرة أخرى متذكراً أنّ هذا اللحن العظيم قد تم اقتباس جملة الموسيقية من لحن فرعوني قديم جداً كان يرتل إلى الفرعون الأعظم عند دخوله إلى معبد الآلهة الوثنية ، وذلك كان زمناً والآن زمناً آخر بجميع المقاييس .

تطرق المعلم إلى رواق تعليم علوم الطقس الكنسي وهذا لطلبة السنة الثالثة ، حيث هناك من يود أن يسلك مسلك الكهنوت المقدس ، لذا وجب عليه أن يتعلم كل شيء عن طقوس الكنيسة السكندرية من كيفية تنظيم الشرائع الروحية وترتيبها اللائق وكيفية الصلاة وقيادة الشعب المسيحي حتى لا يصبح هؤلاء الطلبة الآن الذين سيكونون فيما بعد رجال الدين بالمستقبل سبب عثرة للشعب المسيحي بل يقودون إياهم بالطقوس الكنسية التي تميز كنيستنا السكندرية أو المصرية عامة بالروحانية الشديدة العميقة ، ليستمع المعلم إلى شرح أحد الطلبة عن عبارة (لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة

ولا طرفة عين) التي تقال في صلوات القدا^س الإلهي الباسيلي.

دلف المعلم إلى رواق تعليم علوم الكتاب المقدس حيث اصطف التلاميذ في شبه شكل دائري حول أستاذهم الجليل شارحاً لهم بالدليل القاطع من داخل الإنجيل المقدس نسب السيد المسيح ؛ حيث لم يذكر نسب السيد سوى في كل من بشارة "متى" وبشارة "لوقا" ، والفروق الواقعة بينهما والتي لا تعتبر فروق بل اختلاف في طريقة السرد فقط ولا تؤدي إلى إخلال بالمعنى بالمرّة بل تزيده قوة وثقة ، حيث أنّ القديس "متى" يسرد سلسلة الأنساب نازلاً من الآباء إلى الأبناء بينما القديس "لوقا" يصعد بها من الرب يسوع إلى آدم فإله ، وعليه "فمتى" سرد النسب الطبيعي البشري بينما "لوقا" سرد النسب الشرعي ، وبهذه الطريقة أصبح القديس "يوسف النجار" ينتسب في الواقع إلى أبوين اثنين ؛ لأنه حيث إنّ "هالي" اتخذ له امرأة ومات دون أن ينجب فتزوجها "يعقوب" الذي كان أقرب الأنساب إليه ، فصار "يوسف" الذي هو ابناً شرعياً "لهالي" المتوفي وفي نفس الوقت ابناً طبيعياً "ليعقوب" ، لذا قال "متى" من جانبه إنّ "يوسف" هو ابن "يعقوب" و"لوقا" قال إنّ ابن "هالي" .. أحدهما أورد النسب الطبيعي والآخر النسب الشرعي .

ويتلاقى كل من "متى" و "لوقا" عند "داود" ومن ثم "إبراهيم" الذي هو ابن "آدم" ، و "متى" شرح الأنساب بداية بكتاب ميلاد "المسيح" ذاكرًا أولئك الذين ولدوا وماتوا ، وهكذا بعد أن شرح الفساد والموت الذي مرت به كل الأجيال وصل إلى ولادة "المسيح" الطاهرة ، أما "لوقا" فروی البشارة وميلاد "المعمدان" ثم ميلاد "المسيح" حتى وصل إلى سن الثلاثين فعماده ، ثم ذكر تلك الأنساب الشرعية التي تذكرنا بمن مات دون نسل ثم أقيم اسمه بعد موته بابين ينتسب إليه بطريقة فيها مثال للتبني والقيامة ، وذكر كل ذلك بعد قصة العماد لأن المعمودية تعطي التبني الحقيقي ولهذا السبب صعد بالأنساب من أسفل إلى فوق ، وأوصلها إلى الله ليظهر أن النعمة تأتي بالمعمودية وترفعنا حيث تجعلنا أولادًا لله .. أما "متى" فنزل بالأنساب مشيرًا إلى أن "المسيح" نزل ليحمل خطايانا لأنه من نسل "إبراهيم" لتتبارك جميع الشعوب وهكذا لم يبدأ من "آدم" .

ابتسم المعلم الصالح عند سماعه ذلك الشرح المستفيض عن سلسلة أنساب "المسيح" المقدم إلى الطلبة بأسلوب سلس وبسيط وسهل لينتقل إلى رواق الخدمة المسيحية العامة حيث يُعَلِّمُ الأساتذة الطلاب كيف يتعاملون بمسيحية حقيقية وسط ذلك العالم الشرير ليكونوا ملُحًا للأرض وسراجًا منيرًا لمن حولهم ، متخذين من قول العلامة "أوريغانوس" نبراسًا لهم في الحياة حيث قال:

- إنَّ الكنيسة تكتظ بالخدام والمعلمين القادرين على تقديم تعاليم كثيرة عن السيد ، لكن قلة قليلة جدًا قادرة على أن تدخل بشخص السيد إلى قلوب السامعين .

لذا فإن من واجب معلمي مدرسة اللاهوت العظيمة أن يُعَدُّوا خدامًا يخدمون الرب بكل تقوى وإيمان ناقلين إلى المؤمنين روح المسيحية الحقيقي وليس شكلها البراق الجميل فقط ، فالمحتاج يجب أن يُسد احتياجه ، والأرملة يجب أن تجد من يرعاها ، واليتيم يجب أن يجد اهتمامًا وتربية لائقة صالحة مسيحية ، والفقير يجب أن يأخذ أعوازه التي تعينه على المعيشة والنهوض به إنَّ أمكن ، والمريض يجب أن يجد من يسأل عنه ويساعده إنَّ لم يكن له أحدٌ في هذا العالم الحاضر ..

وكل هذا دون أن يطلب من كل الفئات شيئًا ، بل يجب أن نركض تجاههم متذكرين دائمًا أنَّ كل هؤلاء إخوة الله الأصاغر الذين وصى عليهم .

وبذلك تكتمل منظومة الرحمة المسيحية التي يجب أن يراها كل من حولنا من أديان وطوائف أخرى حتى يعرفوا أنَّ إلها القوي رحيم وحنون ورؤوف ، وليس قاسيًا منتقمًا جبارًا فقط .



انتهى المعلم من تفقده لباقي الأروقة التي يكتسب فيها التلاميذ بقية التعاليم المسيحية الأخرى والدينيوية واللغات الحية مثل اليونانية واللاتينية والديموطيقية والقبطية لوضعها البطريرك "ديمترىوس الكرام" ذلك البطريرك العظيم الذي يعد رقم اثني عشر في تعداد البطاركة السكندريين ، وقد جلس على الكرسي وهو متزوج ليكون بذلك البابا الأول من نوعه الذي يأتي متزوجاً - لكنه كان بتولاً لم يعرف امرأته قط ، ومن الغريب أن هذا الرجل جاهل لم يتلق أي تعليم ، ولكن تشاء العناية الإلهية أن تضعه في مصاف علماء الكنيسة الأجلاء ، حيث تعلم على يد معلم خاص كان يجلس تحت أقدامه وهو بطريرك وذهب هذا القديس تاركاً لنا ذخيرة عظيمة من الثقافة الكنسية الروحية ، فنظم الكثير من الأمور الروحية داخل الكنيسة ، ومن ضمن ما أتمه لنا اللغة القبطية التي هي مزيج من اللغة اليونانية والديموطيقية ، واستمرت تلك اللغة من القرن الثاني الميلادي حتى الآن .

اقترب أحد العاملين بالمدرسة من المعلم معطياً إياه مكتوباً قد وصل من الدار البطريكية بالثغر السكندري مختوماً بخاتم البطريرك السكندري ، ومُرسلاً مع رسول من الحرم البطريركي .. أخذ المعلم المكتوب منزوياً بنفسه في أحد جوانب المدرسة قارئاً بتمعن فحواه ، فوجد أنه دعوة إلى علماء وأساتذة المدرسة اللاهوتية لمرافقة البطريرك إلى مجمع القسطنطينية للوقوف أمام تعاليم الكفر التي أذاعها

"مكدونيوس" بطريرك القسطنطينية عن الروح القدس ..
(وعليه فإن من يجد في نفسه الشروط المطلوبة ، ألا وهي :
الدفاع عن الإيمان المستقيم بكل بسالة وشجاعة ، فلا يتهاون
في الجلوس والمشاهدة بل ليتقدم إلى اللجنة البطريركية
للاتحاق بالركب المتجه إلى المجمع وعلى ابن الطاعة تحل
البركة ، توقيع البابا "تيموثاؤس" الأول بطريرك الإسكندرية
الثاني والعشرين) .

تمعن المعلم الصالح ملياً في المكتوب أكثر من مرة وهو
لا يصدق أن الأيام قد عادت مرة أخرى إلى الوراء مستعيداً
بذاكرته كل شيء دفعة واحدة مما أزعجه جداً ، فقرر في
دخيلة نفسه أنه لن يذهب لأنَّ سِنَّه لم يعد يتحمل كل تلك
المعاناة والمهاترات التي يرى أنَّها في النهاية ليس منها فائدة
تُذكر ، فمن يريد أن يفعل شيئاً يفعلُه في الكنيسة ويصبح له
أتباع ومريدون ومدافعون عنه ، ولا ينتهي الوضع بالإيجاب
بل دائماً يجب أن تكون هناك مناوشات وافتراءات واتهامات
باطلة وأكاذيب مضللة لا حصر لها ، وكل شيء محلل - وإن
أدى الأمر إلى القتل وإزهاق الروح .

حاول المعلم إخراج كل تلك الأفكار التي تزعجت على
عقله لأنَّه يريد أن ينسى ما مر به ، لذا قام بالذهاب إلى
جرس المدرسة المعلق في أعلى مكان بها ليدق إياه ثلاث
دقات فيعلم بهذا جميع الأساتذة الأجلاء والمعلمون الأفاضل
أنَّ عليهم الحضور إلى رواق المعلمين بعد انتهاء اليوم

الدراسي لمناقشة أمر هام ، وبالفعل حدث حيث اجتمع كل المعنيين بالأمر جالسين في شكل دائري بالرواق الفسيح الذي توجد في منتصفه نافورة صغيرة تطلق ماء راقياً أزرق اللون مريحاً للناظرين ، وعلى جوانب العواميد الرخامية الرومانية الطراز توجد طيور في أقفاصها ما بين حمام مغرد قائلاً "قدوس ، قدوس" ، وهذا الحمام تم اكتشافه بحصن "بابلون" ونُقل إلى المدرسة بالإسكندرية ، وهناك طائر الببغاء أيضاً الذي لا يردد سوى عبارة واحدة قائلاً "أنا مسيحي" ، إنَّ كل ما حولهم من طيور أيضاً تعلن انتماءها إلى المدرسة اللاهوتية .

قرأ المعلم المكتوب على المعلمين والأساتذة فعم السكون فترة من الوقت لاستيضاح الموقف بعناية وتروٍ لتسري مهمات بين الحاضرين ، وجميع الجالسين تراوحت أعمارهم ما بين الخمسين إلى ما فوق ، لذا كان عدم التسرع من أهم مبادئهم واختيار الأصلح منهم من أكفأ مميزاتهم ، فهي ليست بالنزهة البحرية بل هي واجب ديني ووطني للدفاع عن إيمان الكنيسة السكندري ضد الهرطقات والبدع والتعاليم المضللة الخبيثة .

لم يتفوه المعلم بكلمة واحدة بعد أن قرأ عليهم المكتوب تاركاً لهم حرية التصرف ، فتلك المرة الأولى - منذ انعقاد المجمع المسكوني الأول - التي يقوم فيها البطريرك الحالي بتوجيه دعوة إلى أساتذة المدرسة اللاهوتية لمرافقته في رحلته ؛ لأنَّ فيما سبق كان هناك بطل واحد تصدَّر المشهد الكنسي السكندري بل وحاز على ثقة أغلب الكراسي الرسولية حتى

جعلوه يتحدث بالنيابة عنهم مدافعاً عن الإيمان القويم ، لذا فضل المعلم أن يدع لكل شخص حرية الرأي والتعبير عن الرغبة في الذهاب من عدمه ، فهو يعلم جيداً أن جميع الجالسين أمامه قد حضر بعضٌ منهم أو سمع عن المجمع الأول وما تلاه بعد ذلك من مناقشات واضطهادات ما زالت آثارها باقية حتى الآن بعد أن انتهى المجمع بما يقارب الخمسة والخمسين عامًا .

وبالنسبة للمعلم فهو قد اكتفي فالعمر لم يعد يتحمل ، بينما أسرع الأساتذة الأصغر سنًا ممن سمعوا عن أمجاد المجمع الأول ولكن لم يروه إلى الالتحاق بالركب المقدس الذهاب للدفاع عن الإيمان المسيحي القويم ، بينما اقترب أحد العلماء المخضرمين المحنكين والمقارب للمعلم الصالح في العمر مائلاً عليه هامساً :

- ألن تذهب أيها الصالح ؟

نظر إليه المعلم بهدوء شديد قائلاً :

- يكفينا هذا ، والباقي للأجيال الجديدة .

ابتسم المعلم الآخر قائلاً :

- ونعم الرأي السديد أيها المعلم الصالح ، مع إنني أشكُّ

أن يتجلى شاب في العشرينيات من عمره مثل البطل

السابق للدفاع عن الكنيسة .

ظهرت ابتسامة هادئة على وجه المعلم الصالح قائلاً :

- الله له شهود في كل زمان ومكان يا أخي ، وأنا على

أتم اليقين بأنه لن يترك كنيسته بلا شاهد .

- تمعن المعلم في وجه الصالح قائلاً بصوت خافت :
- أو تظن أن المرة السابقة أتت بثمارها ؟ ألا ترى تفحش الآريوسيين في الإسكندرية بل في مصر وكل العالم المسيحي ؟
 - ربت المعلم الصالح على كتف أخيه قائلاً :
 - الله يدافع عنا ونحن صامتون ، هو يريد هذا ولا نعلم حكمته في ذلك .
 - ظهر اليأس وخيبة الأمل على وجه المعلم الآخر قائلاً :
 - ما أصعب أحكامك عن الفهم ! .. ولكني قد تعبت ومللت حتى إنني أفكر في اعتزال التدريس نهائياً ، لقد أصابني اليأس .
 - أجابه الصالح قائلاً :
 - لست أنت وحدك يا أخي ، لكن حصننا ورجاؤنا هو الرب .
 - أتعشم ذلك من كل قلبي قبل أن أغرق في بحر الظلمات .

ترك المعلم الآخر أخيه ذاهباً في طريقه ، والصالح ينظر إليه بحزن رهيب وألم ، فهو يعلم أن المعلم الفاضل قد خسر الكثير أثناء الاضطهاد الأخير الذي شنه الإمبراطور "يوليانوس الجاحد" وللأسف الشديد خسر كل ما يملك وسُجن وعُذِّب حتى إن آثار الجلد ما زالت واضحة على ظهره ، ولم يمد له أحد يدًا من الكنيسة أبداً ، ولولا أنه يعرفه شخصياً

ويعلم غيرته ومحبه الأولى للمسيحية لظن أن ما يقوله الآن من قلبه.

داعب المعلم الصالح لحيته البيضاء متمعناً في العلماء الأفاضل والأساتذة الأجلاء القابعين أمامه يتناقشون فيما بينهم فيمن يصلح أن يذهب مع الوفد البطريركي إلى المجمع ، وإذا ذهب هل يمكن أن يحل محله أحد للتدريس أم ستتعتل الدراسة إلى حين عودته ؟ فتخوف البعض ، فماذا سيكون الوضع إذا طالّت المدة ؟



أنهى المعلم يومه متجهاً إلى منزله الواقع في قلب مدينة "الإسكندرية" بالقرب من بيوت المسيحيين حيث تتجمع كل طائفة بذاتها حول بعضها ، فوجد طائفة اليهود في زاوية وطائفة اللوثنيين في ركن آخر ، والمسيحيين متناثرين في بقية المناطق أما الآريوسيين فيلتفون حول بعضهم في ضاحية ليست ببعيدة عن المشهد السكاني بالإسكندرية الكبيرة .

توقف المعلم أمام السوق الكبير الواقع بمنطقة "بوكاليا" لكي يشتري بعض الفاكهة التي يحبها ، فما أن رآه بائع الفاكهة حتى قام من مجلسه احتراماً وتبجيلاً للصالح الذي لا يوجد من لا يعرفه وسط عوام المسيحيين وقلة من اليهود أيضاً ، أما بالنسبة للوثنيين والآريوسيين ليس سوى شخص عابر سيذهب إلى الجحيم يوماً ما ، لذا لا يعطونه أهمية .

اتجه بائع الفاكهة إلى مصافحة المعلم بود وترحاب حتى استوقف الأخير مشهّد غريب ، لقد رأى بعضًا من الشباب السكندري يتشاجرون مع بعضهم البعض ، ولمح فيما بين الشباب الذي يتناحر لتعلو أصواتهم بالسباب والقذف تجاه بعضهم البعض ، أن هناك مجموعة من طلبة المدرسة اللاهوتية فانزعجت نفسه جدًا واستاء من ذلك المنظر الذي لا يسر ولا يرضي أحدًا ، فكيف بعد كل ما تعلمه الطلبة داخل المدرسة يقفون في منتصف الطرقات بالإسكندرية يرمون بعضهم البعض بكلام بذيء خارج لا يليق بأبناء الله تمامًا .. إنهم أبناء المدرسة يتشاجرون مع مجموعة من الشباب الذين ليس لهم علاقة بالمدرسة لكن لم يقدر أن يستدل المعلم على كينونة هؤلاء الشباب الآخرين ، أما أبنائه فقد عرفهم حتى عاد إلى المدرسة بالغد سيكون له حديث مع معلمهم للوقوف والتصدي أمام تلك الهمجية التي يجب أن لا تصدر من طلاب المدرسة اللاهوتية أمام الشعب السكندري .

أخذ المعلم الفاكهة شاكرًا التاجر الصديق متجهًا إلى منزله المكون من دورين وحديقة صغيرة مبنيا على الطراز الروماني حيث توجد تماثيل لملائكة تحمل أقواس النصر ، وهناك في منتصف الحديقة تمثال لوجه رجل يدل من ملامحه على القوة والشدة والصلابة ، وعينه مثل أعين الصقور ، وله لحية متوسطة الطول محددة بعناية .

أقبل الخادم الكبير في السن آخذًا الفاكهة من يد سيده المعلم قائلاً :

- يا سيدي ، وما فائدتي أنا إذا كنت تشتري بنفسك احتياجات المنزل .

ابتسم المعلم الصالح رامقًا خادمه الذي تجاوز الستين من العمر ، ممتلئ الجسم نوعًا ما ، بشوش الوجه لا يكن ضغينة لأحد ، ممتلئ بالأفراح التي تنعكس على روحه الطاهرة ، وخادمه هذا له من العمر عشرات السنوات ولا يقدر على أن يستغني عنه بالمرة .

جلس المعلم على أحد الكراسي الخشبية التي بحديقة منزله المتواضع ، بينما أقبل الخادم وقد جهز طبقا فضيا كبيرا امتلأ بالفاكهة الطازجة التي أحضرها سيده من خيرات الله ، تمنع المعلم في شكل الطبق الكبير قائلاً :

- لمن كل هذا يا صديقي ؟

نظر إليه الخادم باستغراب شديد قائلاً :

- لك أيها المعلم الصالح .

ابتسم المعلم الذي دائماً وأبداً ينادي على خادمه بلقب صديقي فالعصر الآن لم يستدع وجود خدم وحشم وجوار لأن المسيحية حررت الجميع لكن ما زال هناك مسيحيون يعشقون الخدم ولا يقدرّون على أن يستغنوا عنهم وهم معشر أعلّيا القوم ، والمعلم لولا سنه الكبير لكان تخلى عن صديقه الخادم المساعد ، وبالفعل أعطاه منذ زمن صك العتق من العبودية والخدمة بينما الخادم رفض ترك سيده ومعلمه مفضلاً أن

يكون له نعم المساعد الخادم الأمين والصديق المخلص - إن أراد المعلم ، والذي قال بدوره :
- أنا سأكتفي بهذه فقط .

اقترب المعلم آخذًا عنقودًا من العنب الأحمر اللذيذ متذوقًا ومستطعمًا إياه ثم نظر إلى الخادم قائلاً في حبور :
- والآن يا صديقي ، افتح باب المنزل الخارجي وادعُ الفقراء للدخول وتناول الفاكهة معي .

خبط الخادم كفاً على كف وهو لا يدري ماذا يقول لمعلمه الذي من عادته كل يوم أن يفعل مثل هذا الفعل حتى إن الفقراء ينتظرون يومياً أمام باب المنزل الخارجي حتى إذا ما انفتح الباب يذفون أفواجا طامعين في تناول ما يوجد من خيرات الله ، وعليه نفذ الخادم فدخل الفقراء في هدوء ، فهم يعلمون أنهم إذا تكالبوا على الطعام أو أحدثوا ضجة سيطردهم الخادم لأن المعلم يعشق الهدوء والسكينة .

اصطف الفقراء أمام المعلم الجالس على كرسيه الخشبي الكبير ليجلسوا هم عند أقدامه في شكل شبه دائري ، فأشار هو إلى خادمه الذي أخذ طبق الفاكهة ماراً به على الفقراء الذين مدوا أيديهم في نظام ليتناول كل منهم على قدر استطاعته حتى انتهى الطبق ، فنظر المعلم إلى الخادم نظرة ذات معنى ومغزى بدون أن ينطق بكلمة واحدة ، ففهم على الفور الخادم راكضاً مسرعاً آتياً بالمزيد من الفاكهة مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى انتهت الفاكهة وشبع الجميع الذين ظلوا

جالسين لا يريدون التحرك طالبين كلمة منفعة من المعلم الصالح الذي نظر إلى التمثال القائم لوجه الرجل الدقيق هذا مطيلاً النظر ، ثم قال :

- سوف أقص عليكم اليوم سيرة صاحب هذا التمثال .
تهللت أسارير الجالسين من الفقراء ومع أنّ منهم الكثيرون الذين سمعوا تلك القصة منه لكن لا يملون أو يكلون إذا سمعوا عن سيرة البطل السكندري حامي الإيمان القويم ، البابا "أثناسيوس" البطريك العشرين لكرسي الكرازة المرقسية .



(٢)



- المرقسية كلها تعلم مدى أهمية وأدب طلاب مدرسة الإسكندرية اللاهوتية أيها السادة الأفاضل ، إن ما رأيته أمس من بعض طلاب المدرسة بالقرب من السوق لهو أمرٌ مخزٍ ومشين أمام أعين جميع المسيحيين الذين بالثغر السكندري ويجب على هؤلاء أن يقدموا حساب وكالتهم .

أنهى المعلم الصالح الحديث وقد ظهر الضيق على وجهه الذي أشع بالاحمرار فجأة من حزنه وغضبه لما حدث ، وجميع الأساتذة والمعلمين جالسين حوله وقد ظهر عليهم نفس الضيق وغم النفس مما سمعوه من الصالح ، وما أثار دهشتهم الشديدة هو ذكر المعلم أسماء هؤلاء الطلبة الذين شاهدتهم يتشاجرون بالأمس ، فمن المفترض أن هؤلاء الأبناء في قمة الأداب والأخلاق المسيحية العالية ونتائجهم الدراسية دائماً في تفوق مستمر ، فكيف يخرج منهم مثل هذا العمل المشين .

انتقض الجميع بما فيهم المعلم الصالح من مجالسهم ذاهبين إلى شرفة المدرسة المطلّة على الساحة الداخلية للطلاب وما لفت انتباههم هذه المرة هو انطلاق أصوات عالية بالسباب

والقذف والشتائم داخل ساحة المدرسة اللاهوتية ، وهذا لم يحدث من قبل منذ تأسيسها ، فمن شعار المدرسة الهدوء والفضيلة والسكينة لخلق فرصة من التأمل لجميع الطلاب وخلوة صالحة للمعلمين ، ولكن ما يحدث الآن هو انتهاك صارخ للقوانين والقوانين فاق الوصف والاحتمال حتى إنَّ المعلم الصالح أصابه الانزعاج الشديد لما يراه ، وخاصة عندما تطور الشجار من مرحلة السباب إلى مرحلة الاحتكاك البدني بين نفس مجموعة الطلبة وأقرانهم القادمين من خارج المدرسة ولفيف من الطلبة والعاملين بالمدرسة يحاولون تهدئة الوضع والتدخل بين الشباب الثائر العنيف وهم لا يعرفون ما سبب الشجار ، حتى خرج الصالح عن شعوره وسكونه ذاهباً إلى حيث يقع جرس المدرسة قارعاً إياه بعنف حتى توقف الجميع عن الحركة ليطل هو من شرفته وعينه قد امتلأت بالغضب المقدس قائلاً في صوت جهوري واضح :

- إنَّ ما يحدث الآن هو مهزلة بكل المقاييس ، إنَّ هذا لم يحدث منذ أيام "مارمرقس الإنجيلي" مؤسس المدرسة ، إذا لم يُفَضَّ هذا العراك السخيف الآن فأنا سأستعين بالحرس الروماني لتأمين المدرسة والحفاظ على هيبتها .

أنهى المعلم الصالح حديثه حتى نظر الجميع حولهم فلم يجدوا الفئة المندسة من الشباب السكندري الذي اخترق ساحة المدرسة الداخلية للشجار مع طلابها الذين لم يختلفوا في

الشخصيات عن واقعة الأمس التي شاهدها المعلم بالقرب من السوق ، ليصيح من شرفته منادياً قائلاً :

- الطالب أثناسيوس روفوس .
- الطالب أنطونيوس غالوس .
- الطالب أثناسيوس كوزموس .

عليكم الحضور إلى مكتبي فوراً !

نظر الشباب إلى بعضهم البعض وهم لا يعرفون بماذا ينطقون واضعين رؤوسهم بالأرض من الخجل الشديد متجهين إلى مصيرهم .

تمعن المعلم الصالح في الطلبة الواقفين أمامه بدون حراك ، بينما هو ممسك بلحيته البيضاء جالساً على كرسيه النحاسي ومن خلفه العديد من المعلمين الواقفين منتظرين ردّاً مقنعاً من هؤلاء الطلبة الذين لا يريدون التفوه بكلمة واحدة قط واضعين أعينهم بالأرض ، وظل الوضع هكذا لبرهة من الوقت حتى قطع الصالح حبل الصمت هذا قائلاً :

- إذن ، لنا الكثير من الوقت الآن ولم تتفوهوا بأي شيء بعد عن سبب كل تلك المعاناة التي تسببت بها للجميع معلمين وطلبة .. لِمَ كل هذا ؟

لم يقدر أحد من الطلبة على التفوه بحرف واحد ، مما جعل المعلم الصالح يقدم على خطوة غير مرغوبة لقلبه لكن لا مفر منها لكي يعرف الجميع أنَّ المدرسة لها إدارة قوية تظهر

شدتها عند الضرورة ، فقام بالتطلع إلى الطلبة ناهضاً من مجلسه ، متجهاً إليهم ، دائراً حولهم ، قائلاً في هدوء :

- لا تريدون التكلم بأي شيء ، إذن لا يوجد أمامي سوى خيار الفصل من المدرسة .

برقت أعين الثلاثة طلاب ناظرين دفعة واحدة إلى الصالح ، وأعينهم تكاد تنطق بدلاً من ألسنتهم ، ليكمل الصالح حديثه قائلاً :

- لم تجعلوا لي حلاً آخر ، فأنتم بصمتكم هذا تزيدون الموقف تعقيداً .

ركع "أثناسيوس كوزموس" أمام المعلم قائلاً في لهفة خائفة :

- أرجوك يا سيدي ومعلمي ، إذا أردت أن تفصل أحداً فافصلني أنا وأعفُ عن زملائي ، فهم ليس لهم ذنب .

تطلع المعلم بعينيه الثاقبتين الحادثتين إلى الشاب الراكع أمامه طالباً منه النهوض فوراً ، لينهض الأخير بينما المعلم متمعناً فيه قائلاً :

- إذن ، احكِ لي ماذا حدث حتى أفصلك أنت فقط وأعفو عنهم .

تطلع الشاب بعينين محمرتين غارقتين بالدموع الصامته ، غير قادر على النطق ، مما جعل قلب الصالح ينبض فهو يعز عليه أن يرى تلميذاً من تلاميذه يبكي أيّاً كانت الأسباب ، لذا اضطربت روحه محاولاً أن يتفادى هذا الموقف السخيف ، فدموع الشاب "أثناسيوس كوزموس" تنبئ بأن هناك موضوع

كبير أقحم نفسه داخله وهؤلاء الشباب ، ويبدو أنه هو السبب فقرر المعلم أن ينهي الجلسة التأديبية تلك باستدعاء أولياء أمور الثلاثة طلبة لمناقشة حال هؤلاء الأبناء الذين تبدل حالهم للأسوأ ، على أن يُمنَعوا من دخول المدرسة حتى تبت الإدارة المعنية بالنظر في شئونهم ، فإما أن تعاقبهم أو تعفو عنهم ، ولكن لن يمر ما حدث مرور الكرام أبداً .

انصرف الثلاثة طلبة إلى ديارهم بعد أن تم إعطاؤهم خطابات موجهة إلى أولياء أمورهم للحضور إلى المدرسة في أقرب فرصة ممكنة لمقابلة الإدارة التأديبية للوقوف على تطورات الأحداث الأخيرة التي شهدتها المدرسة اللاهوتية على أيدي أبنائهم .

عاد كل معلم وأستاذ إلى رواقه الخاص ليكمل إلقاءه العلم إلى طلابه وتلاميذه ، بينما بقي المعلم الصالح بمكتبه يراجع بعض المخطوطات القبطية التي تتحدث عن القديس "أنطونيوس" أبو الرهبان لواضعها البابا "أثناسيوس" حتى طرق باب مكتبه الشاب "أثناسيوس كوزموس" لينظر إليه المعلم تاركاً قراءة المخطوطة التي أمامه مركزاً بنظراته الحادة في ذلك الشاب السكندري بارز الوجه ، ذي الحواجب الكثيفة ، والذقن حادة التقاسيم البارز بها تجويف بسيط بنهايتها ينم عن رجولة قاسية تشع من وجه هذا الشاب قوي البنيان ، واسع الصدر ، عريض المنكبين في طول أغلب الرجال .

لم يسمح المعلم له في البداية بالدخول إليه متمعناً فيه وفي ملابس المدرسة التي يرتديها من عباءة بيضاء ومنطقة حمراء بمنتصفها صليب ذهبي مزركش . أمسك المعلم بلحيته البيضاء متأملاً الشاب الذي ظهر على ملامحه الخجل والخوف مما سيواجهه الآن بمفرده ، والمعلم يرى ذلك على وجهه المتصبب عرفاً ليسمح له بالدخول مشيراً له ، فدخل الشاب واقفاً أمام مكتب المعلم الصالح الذي لم يسمح له بأن يظل صامتاً مرة أخرى ، فهاجمه قائلاً :

- إذا كنت ستظل صامتاً كما فعلت سابقاً فمن الأفضل أن لا تهدر وقتي الثمين .

أخذ الشاب نفساً عميقاً مُطلقاً إياه على دفعة واحدة محاولاً استجماع قوته وشجاعته الأدبية متكلماً قائلاً :

- يا سيدي ومعلمي ، إنَّ أبي قد استشهد في الاضطهاد العظيم بمصر العليا بمدينة "هرموبوليس" وأمي سيدة عجوز لا تقوى على مشقة السفر والإجهاد ولربما فقدت حياتها إذا جاءت إلى الإسكندرية ، فألتمس رحمتك بأن تغفر لي عدم حضور ولي أمري وأن تقوم بفصلي الآن من المدرسة اللاهوتية فأنا غير جدير بذلك الشرف العظيم أن أكون من طلبة تلك المدرسة عريقة الأصل .

اهتزت مشاعر المعلم الصالح من هذا الحديث ، فوالد الشاب شهيد قد مات على اسم المسيح ، لذا فإنها نقطة صالحة للهجوم على ذلك الشاب قائلاً :

- وترضى أن يكون أبوك شهيد في السماء وابنه يسلك مسلك الجهلاء في الأرض؟!!

لم يتفوه الشاب بكلمة واحدة بل قطرت عيناه بدمع ساخن صامت فقط .. أخذ المعلم نفساً عميقاً ليخرجه على ثلاث دفعات قائلاً :

- لا أعرف هل البكاء للشعور بالندم أم للعجز الكلي عن عدم البوح بما حدث .. أين أصدقاؤك الاثنان ؟

رفع الشاب يده ناحية أنفه ماسحاً إياها متجهشاً قائلاً :

- رجعوا إلى ديارهم ليبلغوا آباءهم .

فوضع المعلم يده على سطح مكتبه طارقاً بأصابعه على وتيرة واحدة قائلاً :

- وأنت لا تستطيع أن تغادر حرم المدرسة لأن من يطلبون الشجار معك قابعون أمام مدخل المدرسة وحولها ، أنت محاصر أليس كذلك ؟

انغلق حاجبا الشاب ناظراً إلى معلمه الفطن الذي لا يخفي عنه شيء ، مكتفياً بإيماءة رأسه بعلامة الإيجاب ، فوجد المعلم يقول له :

- ماذا فعلت يا "أثناسيوس" لكل هذا ؟ إنك شاب متفوق ، تاريخك على مدار الثلاث سنوات الدراسية السابقة

ممتاز وكل معلميك يشهدون لك بذلك .. إذن ما الذي حدث لكي ينقلب الأمر رأساً على عقب هكذا واضحاً إياك مصدر شك ؟ قل لي حتى أستطيع أن أساعدك يا بني .

لمح المعلم على قسّمات الشاب أنه يريد التحدث والفضفضة بما يجول في صدره لكن هناك من يمنعه ، فأكمل حوارهُ متخوفاً من شيء طرق على ذهنه فجأة قائلاً :

- هل بخرت للأوثان يا "أثناسيوس" ، ولو على سبيل المزاح وهؤلاء الشباب وثنيون يطلبونك في معبدهم ؟
أوماً الشاب برأسه نافياً بشدة قائلاً :

- حد الله بيني وبين تلك العبادة الخبيثة التي لا تؤدي سوى إلى الجحيم .

- إذن أي جحيم الذي فتحته على نفسك يا "أثناسيوس" ومن هؤلاء الذين ينتظرونك؟ أليسوا هم الذين تشاجرت معهم أمس على مشارف السوق ؟

بلع الشاب ريقه بالغضب وهو يومئ برأسه بعلامة الإيجاب ، فلم يتبقَ أمام المعلم الصالح سوى خيار أوحده لم يكن يحبذ أن يفكر فيه أبداً أو يخطر على باله لكن يبدو هكذا أنه ليس هناك غيره ، قائلاً في هدوء شديد محاولاً أن يمتص رعب الشاب :

- أريوسيون ؟!

أشاح الشاب رأسه إلى الناحية الأخرى غير قادرٍ على رؤية معلمه ، فرجع الأخير بظهره فاردًا إياه على كرسيه النحاسي مطلقًا نفسًا عميقًا في الهواء على دفعة واحدة مقتنعًا الآن أنَّ "أثناسيوس كوزموس" قد وضع نفسه في مأزق كبير مع الأريوسيين ، والله أعلم ماذا يمكن أن يحل به ، فإذا كان الوثنيون يمكن التفاهم معهم فالأريوسيون لا يوجد بيننا وبينهم سوى الدم والمعارك الطاحنة .. ابتلع المعلم ريقه بصعوبة ناهضًا من مجلسه ، ذاهبًا حيث وقف الشاب ، قائلاً في هدوء حذر:

- ماذا فعلت مع الأريوسيين يا "أثناسيوس كوزموس" ، أرجو أن لا تكون قد اتبعت مذهبهم المنحرف ؟
- رد الشاب بانفعال شديد :
- أقسم برحمة أبي الشهيد إنني لم أتبع مذهبهم أبدًا .
- إذن ماذا حدث يا بني ؟

لم يجب الشاب عائدًا إلى صمته ، فلمعت أعين المعلم الصالح وكأنه قد تذكر شيئًا هامًا لتعود به الذاكرة إلى الوراء ، إلى ما يقارب الخمسين عامًا عندما كان في سن هذا الشاب الواقف أمامه ، ناطقًا بكلماته قائلاً :

- يبدو أن قضيتنا هنا تخصها فتاة .
- تطلع الشاب فجأة إلى معلمه وعينه تكد تفقر من محاربتها متعجبًا مندهشًا ، فكيف هذا الرجل المسن المحنك قد أصاب في معرفة القضية .

لم يمضِ وقت حتى خرج المعلم الصالح ممسكاً بيد الشاب الصغير الذي تخبّطت أقدامه حينما وقع بصره على الشباب الواقف أمام باب المدرسة وحولها الذين ما أن وقعت أعينهم عليه حتى اغتاضوا لرؤية المعلم معه ، فهم يريدونه بمفرده بدون أي أحد بالمرّة وخاصة إذا كان المعلم ، ذلك الرجل الذي له ثقله ووزنه في الثغر السكندري ، وليس من المستحب الاحتكاك به من قريب أو من بعيد فأتباعه كثيرون ومريدوه أكثر ومحبوّه ليس لهم عدد ، لذا فالابتعاد عنه هو خير حل ، وأكد أن الشاب لن يمكث معه طيلة العمر ولا بد من أن يتركه ، ووقتها لن يتركوه هم في حاله تماماً .

وصل الجميع إلى دار المعلم بعد أن مر على السوق كعادته مشترياً الفاكهة ، وقد لاحظ المعلم والشاب أنهما مراقبان حتى دخلا مغلقين باب الدار ، أخذ الخادم الفاكهة ناظراً إلى الشاب بتمعن ، فمن عادة السيد أن يأتي بمفرده وليس معه أحد وبالأخص طلاب .

جلس الطالب أمام التمثال الموجود بالحديقة متأملاً إياه ، حيث كتب على قاعدة التمثال هكذا :

- البابا "أثناسيوس" البطريرك العشرون .

خرج الخادم بطبق الفاكهة الكبير واضعاً إياه على المنضدة التي بالحديقة ، ومن ثم خرج المعلم جالساً مشيراً إلى الطالب أن يتناول قدرًا يسيرًا من الفاكهة الطازجة ، ومن بعدها أشار كالعادة إلى خادمه ليفتح الباب منادياً على الفقراء ، فلمح

ببصره نفس الشباب الذين تتبعوهما منذ أن رحلا من المدرسة وحتى وصلا إلى الدار ، لكن هؤلاء الشباب لم يجروا أحد منهم على الدخول مع الفقراء بل ظلوا يتابعون الموقف من قريب ، فتنفس الشاب "أثناسيوس" الصعداء مجففاً عرقه بينما اهتم المعلم بالفقراء مكماً لهم قصة البابا "أثناسيوس" ، واندمج الشاب أيضاً معهم محاولاً تناسي ما ينتظره بالخارج حتى انتهت جلسة الفقراء اليومية ذاهبين إلى حال سبيلهم ، وتبقى المعلم والشاب من جديد بمفردهما حتى قطع الشاب حبل الصمت قائلاً :

- أتعلم يا سيدي أن أبي الشهيد قد دعاني "أثناسيوس"

حباً وإكراماً لسيرة البطريك المبجلة ؟

لم يجب عليه المعلم بل ظل محدقاً به فقط ، ومن ثم ألقى بنظره إلى التمثال ليعود تارة أخرى إلى الشاب الذي ارتكن إلى الصمت مرة أخرى ، فقطع المعلم هذا السكون قائلاً :

- يبدو أن أباك كان رجلاً غيوراً على الإيمان المسيحي القويم .

- ليس هو وحده ، أيضاً صديقي "أثناسيوس روفوس" على الحال نفسه .

- هناك آباء كثيرون أثروا أن يطلقوا اسم البابا الراحل "أثناسيوس" على أبنائهم حفاظاً وعرفاناً بالجميل وتخليداً لطيب الذكر صاحب السيرة العطرة ، وللأسف نحن ندنسها كل يوم بأعمالنا جالين على صاحب الاسم الخزي والعار .

وضع الشاب نظره بالأرض غير قادرٍ على مواصلة الحديث شاعرًا بالخجل من حديث الشيخ الأخير ليحاول أن يستجمع قواه قائلاً :

- هل الله ضد الحب يا معلم ؟

تمعن المعلم جليًا في "أثناسيوس" قبل أن يتكلم مفكرًا نوعًا ما فيبدو أن الشاب سوف يأتي بما عنده ، لذا تمهل قليلاً ناظرًا إلى السماء الزرقاء الجميلة قائلاً :

- إن الله خلق الإنسان من الحب وللحب .

ظهرت بوادر عدم الفهم على الشاب المسكين ليتساءل عن ما قاله المعلم الذي أكمل بدوره شارحًا مقصده بأن الله قد خلق الإنسان من كثرة حبه له ، وحتى بعد أن كسر الإنسان صورة الكمال الذي كان يعيش بها لم يرد الله أن يكره آدم وأبناءه بل أعطاهم حبًا مضاعفًا مشفقًا على بشريته كلها ، مرسلًا ابنه الوحيد لخلص هذا العالم ، ممارسًا أسمى أنواع الحب الأبوي .

أخذ الشاب نفسًا عميقًا مطلقًا إياه على دفعة واحدة قائلاً :

- ولكن يا معلم إنَّ البشر اليوم لا يحبون بعضهم البعض ولا يريدون المحبة من أجلهم بل يبغضونها .

ابتسم المعلم بهدوء شديد قائلاً :

- هذا حال العالم منذ قديم الأزل ، ولكننا نحاول أن نغرس المحبة لمن هم حولنا معتمدين على أن الله محبة ، وإذا طلبت منه الحب لن يبخل عليك .

- أنا طلبته يا أبي ، لكنه لم يستجب بالمرّة .
- طلبته كيف ؟

صمت الشاب مرة أخرى ، ففهم المعلم أنّ الليلة سوف تطول في الحديث عن الحب ليسأل "أثناسيوس" عن نوعية الحب الذي طلبه من الله ، هل هو حب الفقراء مثلاً ؟ أم حب أمه ؟ أم حب الكتب المقدسة ؟ فلم يكن من الشاب إلا أن قاطع سيده قائلاً :

- لقد طلبت من الرب أن يبارك حبي مع الفتاة التي اختارها قلبي .

تطلع المعلم إلى الشاب بتمعن شديد جداً مطيلاً النظر إلى السماء بعد ذلك ، ومن ثم انتقل بصره إلى التمثال قائلاً :

- ويبدو هكذا مما يحدث أنّ تلك الفتاة آريوسية المبدأ وعائلتها أيضاً ، وأنهم مختلفون معك في كل شيء .
- قاطعه الشاب قائلاً :

- إنني أحاول أن أقنعها بمبدئي ، وهي تسمع ولم تحاول أن تحولني إلى الآريوسية .

- وأنت ماذا تريد يا فتى ؟

- لا أعرف ، إنّ الآريوسيين مسيحيون أيضاً وكنائسهم والصليب شعارهم والمسيح إلههم وقد اعترفوا بقوانين مجمع نيقية فيما قبل ، ويرددون قانون الإيمان.

لم يكد ينهي الشاب جملة حتى سمعوا صوت طرقات على الباب الخارجي للدار ، فارتعب الشاب وغاص قلبه بين ضلوعه ظناً منه أن يكون هؤلاء من يتبعوه .

نظر الخادم إلى المعلم الذي أشار له بدوره بأن يفتح الباب وبرؤية من القادم إليهم ، ولم يكن سوى أصدقاء الشاب الصغير الذين تتبعوا خط سيرهم عن طريق السؤال عليهم بالمدرسة .

جلس الشابان "أثناسيوس روفوس" و "أنطونيوس غالوس" بجانب الشاب صديقهم ليسمع منهم المعلم الصالح أن الشاب الذين ضدهم ما زالوا قابعين في محيط دار المعلم بالخارج منتظرين خروج ابن "كوزموس" ضالتهم المنشودة ليستفسر منهم المعلم عن علاقتهم بتلك القضية الشائكة ، فلم يجد منهم إجابة شافية واضحة بل ظلوا ينظرون إلى صديقهم لا يعلمون بماذا يجيبون المعلم ، والنظرات تنتقل منهم إلى صديقهم والعكس صحيح وقطرات العرق بدأت تتصبب على وجوههم وهم لا يعلمون أي شيء عما دار بينهما قبل مجيئهم ، لذا لزم الصمت حتى إن المعلم لاحظ توترهم الشديد متشهماً منهم رائحة الخوف ، فسارع بالإمساك بزمام الأمور قائلاً :

- إن صديقكم "أثناسيوس كوزموس" قبل مجيئكم كان يتحدث عن الحب ، وأنه لم يعد في العالم من يحب وأن الآريوسيين مسيحيون ، الصليب شعارهم والمسيح إلههم .. هل هناك أحد من الوافدين الجدد يريد أن يضيف شيئاً جديداً ؟

لم يتفوه أحد بشيء فسارع المعلم بإكمال حديثه ناظرًا إلى تمثال البابا "أثناسيوس" متذكرًا كل شيء دفعة واحدة وصوت موج البحر المتكسر على صخور شاطئ النهر السكندري يرن داخل أذانه العجوز ليحيا شبابها من جديد ، فيتحرك التمثال أمام عينيه ويسرد ما يريده عن التاريخ الماضي شارحًا للشباب صغير السن من هو "أريوس" ومن هو "أثناسيوس" الحقيقي الذي تسموا على اسمه ، وبدأ المعلم .



"أريوس" مواطن ليبي ولد بمدينة "القيروان" واتبع مدرسة "بلوقيان الأنطاكي" حيث تعلم علوم اللاهوت هناك حتى تخرج منها وانضم إلى حزب "ميلتيس" ذلك الرجل الذي بدأ البدعة بأفكاره المضللة عن وحدانية الله حيث اعتبر الابن مخلوق ، وقد تصدى العالم المسيحي وقتها لذلك الرجل ولكن للأسف الشديد أصبح له أتباع كثيرون يؤمنون بأفكاره وينشرون تعاليمه الخبيثة بين الجميع ، ومنهم "أريوس" الذي تشبع بتلك التعاليم جدًا وصار محاربًا عنها ، وما أن أصبح شابًا يافعًا حتى أتى إلى الإسكندرية محراب الدين المسيحي وقتها حيث أن جميع الآباء الأوائل العظماء الذين أناروا العالم بتعاليمهم المسيحية قد تخرجوا من المدرسة اللاهوتية بالثغر السكندري ، ومعاشرتهم فقط قد تولد عنها ظهور علماء ونسك وقديسين ورجال دين أقوياء ، وشعب مسيحي واع مثقف جعل الجميع ينظر إلى الإسكندرية يومها على أنها

القلعة المسيحية الحصينة ضمن الثلاث قلاع الأخرى حيث كان هناك في العالم المسيحي كله أربعة كراسي رسولية : كرسي رومية ، كرسي أفسس ، كرسي أنطاكية ، وأخيراً كرسي الإسكندرية ، أربعة كراسي توازي أربعة حصون منيعة للدفاع عن المسيحية الرسولية بأساقفتها المشهورين وشعبها الغيور على الدين المسيحي ، لذا فإن وجودك في أي منطقة من الأربع مناطق تلك يجعلك وقتها في منتصف العالم المسيحي مخالطاً معلميه المشهورين ورجاله الأبرار الأتقياء ، ووقع اختيار "أريوس" على مدينة الإسكندرية حيث وصلها في عهد حبرية البابا "بطرس" البطريرك السابع عشر على الكرسي المرقسي الذي رسمه شماساً في البداية وأصبح "أريوس" شماساً بكنيسة الله بالشجر السكندري وظل يعلم الشعب ، وكان يمتلك فصاحة غير طبيعية وعلماً غزيراً وهو في ذلك السن الصغير حتى تفوق على أقرانه الذين من حوله بالكنيسة ، مما جعل نجمه يلمع ويداع صيته بين عامة الشعب فرأى البابا "بطرس" وقتها أنه لا مانع من سيامته كاهناً على كنيسة "بوكاليا" أكبر وأشهر كنيسة بالشجر السكندري ، وهنا بعد أن تمكن "أريوس" من مراده وأصبح عضواً حقيقياً داخل جسد الكنيسة السكندرية بدأ يظهر على وجهه الآخر ويدعو الناس البسطاء المؤمنين إلى أفكاره الخبيثة الجديدة ، مقتعاً إياهم بأن "السيد المسيح" الابن ليس له وجود قبل أن يأتي من "السيدة العذراء" ، وأنه مفصول عن الآب الذي هو أعظم من الابن مستنداً على الآية الإنجيلية في إنجيل "يوحنا" الإصحاح

الثامن والعشرين ، الآية الرابعة عشرة حيث قال "السيد المسيح" :

"أبي أعظم مني" ومن هنا وجد "آريوس" لنفسه مدخلا كتابيا تعلمه من معلمه "ميلتيس" وصار يعلم أفكاره تلك إلى جميع الشعب حتى تحزب له حزبا كبيرا دُعي بالحزب الآريوسي ، ليصير الناس يسيرون من مدينة إلى أخرى حتى انتشر وباء "آريوس" في مصر جميعها وليس في الإسكندرية فقط ، وأخذ أتباعه في التجول بالشوارع حيث يصرخ الواحد منهم في وجه الآخر قائلاً :

- يا هرطوقي ، من الأكبر ؟ الوالد أم المولود ؟!

وأخر يقول :

- هل من المعقول أن يوجد ابن قبل ولادته ؟

حتى إنَّ "آريوس" قد غير اللحن الذي يقال بعد المزمور بكنيسة "بوكاليا" قائلاً فيه :

- المجد للآب بالابن في الروح القدس .

وصحتها :

- المجد للآب والابن والروح القدس .

وظل أتباعه يُعلِّمون النساء قائلين :

- أيمن أن يوجد ولد قبل أن يولد ؟

وقد ساعد "آريوس" في نشر تعاليمه أناسٌ كثيرون منهم أتباع "أوسابيوس النيكوميدي" الذي كان أسقفًا وقتها على "نيكوميديا" وبذلك استطاع "آريوس" أن يصنع لنفسه أتباعاً من رجال الدين أيضاً مؤثراً عليهم بأسلوب فصاحته البليغة

وقوة أدائه الحوارية الفائقة ، مقنعا إياهم بشتى الطرق أن يصبحوا مثله خاضعين وتابعين لتعاليمه ، وما أن شعر البابا "بطرس" وقتها حتى انتفض من سكونه مطالبا بحرمان "أريوس" من درجته الكهنوتية وعزله من الكنيسة السكندرية عندما فشل في إقناعه بالعدول عن أفكاره بينما كان يستمع له في إحدى عظاته بالكنيسة وأدرك مدى الشر والخبث اللذين يستخدمهما "أريوس" في إقناع الشعب المسيحي بهرطقته من فوق منبر الكنيسة الرسولية المرقسية ، لذا حرمه حرمانا عظيما أثر في "أريوس" ومن حوله ، وعليه حاول بكل الطرق أن يتحایل على البطريك وقتها لكي يعيد إليه مكانته الكهنوتية الرفيعة داخل الكنيسة فرفض البطريك بشدة مقنعا كل من حوله بأن هذا "الأريوس" ما هو إلا ثعبان كبير دخل بهدوء وحذر إلى قلب الكنيسة السكندرية بل إلى قلب الكنيسة في شتى أنحاء العالم حيث امتدت رسالته المشوهة إلى بقاع كثيرة .

حاول "أريوس" التأثير على تلاميذ البابا "بطرس" وهم وقتها "القس أرشلاوس" و "القس ألكسندروس" حتى إنهم توسطوا له لدى البطريك الذي كان في أيامه الأخيرة بالسجن بعد أن وضعه الإمبراطور "مكسيميان دارا" بالسجن إلى حين الأمر بقتله ، وما أن علم "أريوس" أن البابا "بطرس" ذاهب في طريق اللارجوء حاول بكل استماته الحصول على حل البركة بالعودة مرة أخرى إلى حضن الكنيسة السكندرية الأم

لكن بآت كل محاولاته بالفشل حتى إنّ البطريرك "بطرس" أفصح هكذا وقال على لسانه إلى تلميذه :

- ولا تقولوا إني عديم الرحمة من أجل "أريوس" فإنّ فيه مكرًا خفيًا ، ولست أنا الذي حرّمته بل السيد المسيح لأنني في هذه الليلة لمّا أكملت صلاتي ونمت رأيت شابًا قد دخل علي ووجهه يضيء كضوء الشمس وعليه ثوب متشح به إلى رجليه وهو مشقوق وقد أمسك بيده القطعة الممزقة فصرخت وقلت : يا سيدي من الذي شق ثوبك ، فأجابني : "أريوس" هو الذي مزق ثوبي فلا تقبله ، واليوم يأتيك قوم طالبين منك إرجاعه فلا تطعمهم وأوص "أرشلوس" و"ألكسندروس" بأن يمنعا من شركتهما .

وبالفعل لم يعد "أريوس" إلى حضن الكنيسة حتى استشهد البابا "بطرس" وتولى من بعده تلميذه "أرشلوس" البطريرك الثامن عشر ، وللأسف هذا الرجل من طبيته الشديدة وتصديقه إلى كذب "أريوس" بأنّه قد رجع عن تعاليمه المضللة رده إلى رتبته الكهنوتية بعد أن توسط له وجهاء الإسكندرية وأعيانها لتبدأ اللعنة مرة أخرى في الانتشار بكسر البابا "أرشلوس" تنفيذه وصية من قبله ، ألا وهو أستاذة وبطريركه "بطرس" وأرجع "أريوس" إلى الشركة الكنسية .



توقف المعلم الصالح عن الحديث نظير مقاطعة "أنطونيوس غالوس" له ذاكراً أنَّ الوقت قد أمسى ويجب عليهم أن يعودوا إلى ديارهم حتى لا يقلق عليهم أهلهم وذويهم ، فنظر المعلم إلى "ابن كوزموس" مستفسراً عن المكان الذي سيقضي به ليلته ، فأعلمه أنه يقضي ليله الآن في الفترة الأخيرة مع "أثناسيوس روفوس" الذي يستضيفه في منزله مع أهله بمنطقة الإسكندر ، فأوماً المعلم رأسه بعلامة قبول المعلومة مودعاً إياهم على أمل اللقاء غداً .

خرج الثلاثة أصدقاء فلم يجدوا مجموعة الشباب التي تتبعهم من قبل ليصرح "ابن روفوس" أنَّ الحديث مع المعلم شيق جداً .

تطلع "أنطونيوس" إلى "ابن كوزموس" وهكذا اعتادوا أن يلقبوا بعضهم بدلاً من ذكر الاسم الأول لتشابهه ، تطلع إليه مستفسراً عن إذا ما كان قد حكى للمعلم عن أي شيء بخصوص قضيته فأفصح له بأنه لم يحك شيئاً بل إنَّ المعلم هو من استنتج كل شيء ، معتبراً أنَّ فطنة المعلم وفصاحته غير طبيعية .

بلغ الثلاثة شباب شاطئ الإسكندرية العظيم ليختلوا بأنفسهم ناحية صخرة مميزة على شكل قلب كبير ، ولا أحد يعلم كيف وصلت تلك الصخرة الكبيرة إلى مكانها هذا على الشاطئ وهي معروفة وسط الشباب السكندري بأنها صخرة الحب الطاهر ، وعليه فهي مكان تلاقي العشاق والأحباب دائماً

حيث بادر "ابن روفئوس" بإطلاق صفارة خاصة من فمه لتجيبه صفارة أخرى بنفس النغمة لتخرج على أثرها فتاتان سكندريتان جميلتان إحداهما خاصة بـ "ابن كوزموس" والأخرى تخص "ابن روفئوس" أما "أنطونيوس" فمضى في طريقه وحيداً على أمل لقائهم غداً مجدداً ، فهو ليس له صديقة يحبها .

اختلى "ابن كوزموس" بحبيبته قائلاً لها :
- لقد اشتقت لك كثيراً اليوم .

تمنعت الفتاة الجميلة ذات القوام الجذاب ، والعيون السوداء الواسعة الأسرة للقلوب الخاطفة العقول ، ووجهها الدقيق الملامح الذي يجعل الناظر إليها يذوب عشقاً وولعاً عند رؤيتها ، مدت يدها ممسكة بيده فشعر بطاقة غريبة تكاد تطيح به من مكانه ملقية به في اليم العظيم الذي أمامهم ، لتقول له بهيام وعشق جارف :

- إنني كلما نظرت إلى عينيك شعرت أنني أنظر إلى النجوم .

ربت هو على شعرها الناعم مثل الحرير قائلاً :
- وما بال النجوم تستمد ضوءها من القمر الواقعة في غرامه ، فلا حياة للنجوم بدون القمر الذي يضيء حياتي .

مال "ابن روفئوس" على فتاته قائلاً :

- أنت لك عطرٌ رائع الجمال ، خلاب ، يا ليتك تكونين لي العمر كله .
- وكيف هذا ؟ وأنت ...

وضع يده على فمها حتى لا تكمل حديثها مقاطعاً قائلاً:

- إنَّ ما بيننا ليس سوى الحب فقط ، لا يوجد أنا أو أنت .
- لكن كيف سيتقبلنا الناس ؟
- انتظري حتى أنهي دراستي تلك السنة بالمدرسة اللاهوتية وسنترك الإسكندرية ، ونغادر إلى أي منطقة لا يعرفنا أحدٌ بها حتى وإن أدى الأمر لأن نغادر مصر كلها .

ابتسمت الفتاة قائلة :

- إلى هذه الدرجة تحبني يا "أثناسيوس" .
- إن طلبت روعي سأهبها لك بدون أن أفكر .
- إنَّ غداً لدينا عيد "البوريم" .

أمسكت "مارثا" بيد "ابن كوزموس" بقوة قائلة :

- وهكذا استطعت أن آتي الليلة لرؤياك متحججة إنني سوف أذهب مع "راعوث" إلى خالتها بحي اليهود لتوصيل بعض الطعام والملابس بمناسبة عيدها غداً المدعو "البوريم" .

ابتسم "ابن كوزموس" قائلاً :

- إنَّ حبيبتي مارثا ذكية جداً حتى إنَّها تستطيع أن تجد الوقت الكافي لرؤيتي .

- إنني إذا لم أرك على الأقل مرة كل أسبوع ، أشعر بأنني غير متواجدة بتلك الحياة .
- لا تقولي هكذا ، أنتِ موجودة بقلبي وحتى نهاية العمر.
- إنني أشعر بك وبحبك لي ، ولا أريد أن أتركك يا "أثناسيوس" ولا يهمني أي شيء في هذا العالم وأنا بجانبك .

احتضنها "أثناسيوس" بشدة شاعرًا بنبضات قلبها المتلاحقة حتى تركته هي قائلة :

- لقد تأخر الوقت يا حبيبي العزيز "أثناسيوس" يجب أن أعود إلى الدار ، سلام الله معك .

قَبْلَ "أثناسيوس" يدها وهي تبتعد آخذة صديقتها "راعوث" مبتعدين ليعود الصديقان بمفردهما مرة أخرى وهما يشعران بانتعاش جميل ، وفجأة انقلب الهواء وأظلمت السماء وحُجِبَ القمر والنجوم وهاج البحر وهطلت الأمطار بغزارة شديدة مما استدعى الصديقين إلى الهرولة والركض مسرعين حتى اصطدموا بشيء لم يعرفوا كينونته في البداية بسبب هطول الأمطار التي صنعت حاجزاً بينهم وبين ما أصابهم ، فحاولوا التدقيق بشدة في الحائط السد الذي لم يكن سوى مجموعة الشباب الذين تتبعوهما من قبل ، وانجلى من وسط هؤلاء الشباب شخص تعرف عليه "ابن روفويس" و"ابن كوزموس" جيداً ، إنَّه الشاب الآريوسي "سيزار فابيان" ، الأخ الأصغر

"لمارثا فابيان" ومعه نفرٌ من أصدقائه الأريوسيين الذين اعترضوا طريق الصديقين حتى اقترب "سيزار" منهما قائلاً:
- أهلاً بالعاشقين تحت أمطار الإسكندرية الغارقة .

اقترب "ابن روفوس" منه قائلاً في حدة :
- اذهب أنت وأتباعك يا "سيزار" فنحن لا نريد المتاعب.

رد عليه "سيزار" قائلاً بتهكم :
- المتاعب لم تبدأ بعد يا "ابن روفوس" العزيز ،
وصديقك "ابن كوزموس" لم يستمع إلى النصيحة ولم
يبتعد عن أختي ، لذا التأديب واجب لحالتكما .

انقض الشباب أتباع "سيزار" على الصديقين موسعين إياهما ضرباً مبرحاً ، تاركين إياهما ملقيين على شاطئ الثغر السكندري والمطر قد غسل وجوههما من الدماء المنسالة بغزارة ، وكل منهما يحاول الصمود والوقوف .



(٣)



وقف أساتذة ومعلمو المدرسة أمام المعلم الصالح بغرفة مكتبه مُقَدِّمين إليه مكتوبًا به أسماء الراغبين من هيئة التدريس في مرافقة البطريك في السفر إلى المجمع ، فظهرت على وجه المعلم ابتسامة هادئة مبتهجا بالاستعداد النفسي والذهني لأساتذة المدرسة وتكالبتهم على مرافقة الركب المقدس للذهاب إلى "القسطنطينية" والدفاع عن الإيمان المسيحي القويم ، ولم يتوان بأن أرسل مكتوبًا إلى الدار البطيركية بالثغر السكندري يُعَلِّم فيها البابا بالأسماء التي على أتم الاستعداد للسفر ، فوصله مكتوب في نفس اليوم من مساعد البابا طالبًا فيه نسخة باليونانية وأخرى باللغة اللاتينية من مضبطة الجلسات للمجمع النيقاوي الذي عقد في عهد "البابا ألكسندروس" بخصوص بدعة "أريوس" ، ونسخة مكتوبة أيضًا من قانون الإيمان الذي وضعه البابا "الراحل أناسيوس" ووافق عليه مجمع نيقية بإجماع ما عدا الجانب الأريوسي وعلى رأسهم "أريوس" ، وعليها أخذ المعلم الصالح في إخراج تلك المخطوطات التي مر عليها الآن أكثر من خمسين عامًا منذ تاريخ انعقاد "مجمع نيقية" برئاسة الملك وأخذ مطلعًا أولاً على مخطوطة قانون الإيمان الشهير الذي

وافقت عليه جميع الكنائس يومها ووقَّعوا أسفله مذيّلين المخطوطة بتوقيعاتهم وعلى رأسهم الإمبراطور "قسطنطين الكبير" لتحفظ تلك المخطوطات الهامة بالمدرسة اللاهوتية بالإسكندرية ، وتم توزيع نسخ إضافية على جميع الكنائس والكراسي الرسولية الأخرى التي تنص على قانون الإيمان النيقاوي ، ليقراً المعلم الصالح ما خط في المخطوط ، ونصه هكذا :

" قانون الإيمان .. نؤمن بإله واحد ، الله الآب ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، ما يرى وما لا يرى . نؤمن برب واحد يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للآب في الجوهر الذي به كان كل شيء ، هذا الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، تأنس وُصَلب عنا على عهد "بيلاطس البنطي" ، تألم وقُبرَ وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب ، وصعد إلى السموات وجلس عن يمين أبيه ، وأيضاً يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات ، الذي ليس لملكه انقضاء .. آمين ."

انتهى المعلم من قراءة قانون الإيمان متحسناً بيده المرتعشة آثار الحبر على المخطوطة ، فهو يعرف هذا الخط جيداً ، خط الذي كتب المخطوطة ، إنَّه الشماس "أثناسيوس" وقتئذٍ ، حفر تلك الكلمات على قلوب الجميع لتخترق حواجز البحار والمحيطات ، وتتسلق الجبال والهضاب والقلاع

الحصينة ، وتتسرب بين الوديان مخترقة آذان جميع العالم المسيحي وقتها لتنتفتح أعين العميان ، وتسمع آذان الصم ، وتنطق أفواه البكم مسبحة بتلك الكلمات التي تؤكد وحدانية الله وأنه لا يوجد أقنوم أعظم من الآخر أو أهم من الآخر بل الثلاثة واحد ، ليضع "أثناسيوس" الشماس اللبنة الأولى في أساسات الإيمان المسيحي القويم ، وهو في ذلك الوقت كان شاباً لم يتعد عمره الخامسة والعشرين عاماً ولكنه قاد المجمع الذي به الشيوخ والأساقفة بجدارة حتى أطلق عليه الملك "قسطنطين" وقتها لقب "بطل كنيسة الله" ، وإذا كان الملك بطلاً للمعارك الحربية فهكذا الشاب السكندري البسيط المظهر القوي الإيمان هو بطل كنيسة الله ، في عصر كانت البطولات فيه لا تُعطى سوى للأبطال الصناديد وليس للمحتالين الأفاقين باسم الدين ، عصر كانت فيه الروح المسيحية ذات جسد واحد ، فقليل إنه إذا تألم مسيحي في القسطنطينية شعر به أخوه السكندري ، ليساعدهم في هذا أخوهم الأنطاكي ، ليسأل عن حالهم أخوه الفينيقي ، ليهرع إلى نجدتهم أخوهم الرومي ليكتب لهم أخوهم الأرمني بطولاتهم الكنسية ، زمن كانت فيه المسيحية على قلب رجل واحد خرج من نيران الاضطهاد الدموي الوثني قوياً عزيزاً جباراً بإلهه ليقف أمام حائل الانقسامات الذي أنهكه وفصل الجسد الواحد إلى أجسادٍ عديدةٍ فتفرقت أعضاء الرجل الواحد يميناً ويساراً ، وابتعد الجميع رويداً رويداً ، نسوا أمجادهم الاستشهادية التي كللت تاريخهم المسيحي سوياً ، فالشهيد المصري لم يختلف عن الفينيقي أو

الرومي أو الأنطاكي أو اللاتيني أو الأفريقي أو النيقى أو القسطنطيني أو المقدوني ، كلهم الآن قابعون تحت المذبح يصرخون طالبين من الله القصاص من الذين فتكوا بهم ، كلهم أخوة في الإيمان ، ألقوا للوحوش ، سقطوا تحت سيف السيف القاطع الباتر ، احترقوا بالنيران والزيت المغلي ، عُلِّقُوا على الهمبازين والصلبان منكسين الرأس ، فتكت بهم العذابات والاضطهادات الحية ، سُلِّخُوا أحياء ، سُحِّلُوا لثروى دماؤهم أراضى الإسكندرية بل وكل المسكونة المسيحية ، لم يكن هناك سوى الحزن والعيول فى كل بيت مسيحي بسبب وجود شهيد واثنين وثلاثة ، ومن المستطاع أن تباد العائلة كلها ، اختفت قرى بأكملها بأهلها تحت اسم المسيح ، وانهمرت الأكاليل السماوية من السماء كالمطر على رؤوس الشهداء وأرواحهم الصاعدة للفردوس ، حتى إنَّ الله كان يفتح أعين مَنْ حولهم لنسمع أنَّ الأمير "جرجس" عند استشهاده رأى المسيحيون ومن حولهم الأكاليل المعطاة له من الأعالي فتوافدوا على الاعتراف بمسيحيتهم ووضع أنفسهم رجالاً ونساء ، شيوخاً وشباباً وأطفالاً طواعية تحت حد السيف لينالوا إكليل الشهادة دفعة واحدة ، لاحقين بأخيهم السمائي "مارجرجس الروماني" ، وقد بلغ يومها عددهم الآلاف.

تاريخ كتبت أحرفه بدماء الشهداء والقديسين والقديسات ، ليس من الإسكندرية ومصر فقط بل من كل أنحاء العالم المسيحي المسكونى بأجمعه بدون استثناء ، لقد أصبح وقتها جميع المسيحيين بعد الاضطهاد العظيم الذى شنه الإمبراطور

"دقلديانوس" أخوة في الدم المراق على اسم "السيد المسيح" ، ومن وقتها تم وضع تقويم الشهداء السكندري الذي يبدأ منذ أن اعتلى "دقلديانوس" العرش الإمبراطوري الروماني ممسكاً مقاليد الحكم ، وبدأ الاضطهاد العام ليتذكر المصريون السكندريون بشاعة تلك الأيام التي لولا الله وحفظه لاخفتت المسيحية تماماً عن وجه الأرض ، وجاء عهد انقسام الكنيسة على ذاتها واضطهاد أبنائها لأنفسهم .

أدمنت أعين المعلم الصالح ، ونفسه تشعر بالحزن والأسى الدفين مما يحدث حوله حتى طرق الباب أحد العاملين طالباً الدخول ، فأذن له المعلم معطياً إياه مضابط الجلسات ومخطوطة المجمع النيقاوي الخاصة بقانون الإيمان ، طالباً منه التوجه إلى قسم النسخ بالمدرسة حيث يقوم النساخ بنسخ وكتابة العديد من النسخ مستمدين إياها من المصدر الرئيسي والأساسي لإعطاء تلك النسخ إلى أعضاء المجمع الراحلين إلى "القسطنطينية" ، فأخذ العامل جميع المخطوطات منفذاً الأمر ، ذاكرًا للمعلم أنَّ في بهو الانتظار رجلين سكندريين يطلبان مقابلته ، ومعهم ثلاثة من طلاب المدرسة فأعطاه المعلم الإذن بالدخول ، وبالفعل وقف الجميع أمامه محيين إياه ليسمح للرجلين الكبيرين في السن بالجلوس أمامه ، أما الثلاثة شباب فظلوا واقفين وقد ظهرت على وجه اثنين منهم ملامح الضرب المبرح الذي تلقوه ليلة أمس تحت الأمطار ، فانغلق حاجبا المعلم الصالح ظاهراً على وجهه ملامح الضيق لما أصاب الشابين ، وبدأ السيد "روفيوس" يتحدث ويبدو عليه

الحنق والغیظ لما أصاب ولده وصديق ولده ، فقال بصوت ضخم :

- لقد أتينا إليك يا سيدي بناء على استدعاء ولي الأمر المرسل لنا أمس بسبب سوء سلوك أبنائنا ، وأنا هنا نيابة عن ابني "أثناسيوس" وأيضًا صديقه "أثناسيوس كوزموس" .

صمت "روفيوس" ليتحدث "غاليوس" والد "أنطونيوس" قائلاً :

- أما أنا ، فقد أتيت لنفس الأمر عن ولدي "أنطونيوس" فما الأمر العاجل الذي أتى بنا إلى رحاب المدرسة ؟ تطرق المعلم بنظره إلى الجميع محدقًا في وجه الثلاثة طلاب قائلاً :

- حدث سوء فهم واختلاط للأمر بين أبنائكم وبين أبناء السوء ، وعليه رأيت إدارة المدرسة أن تبلغكم بما حدث حتى تتابعوا الأمر وتحاولوا بقدر المستطاع أن تبعدوا أبناء الشر عن أبنائكم الطلبة المجتهدين.

نظر "روفيوس" إلى "غاليوس" باستغراب ثم قال :

- لا يوجد شيء غير ذلك ، فقط نتابع أحوال أبنائنا ؟!

أمسك المعلم بلحيته البيضاء تاركًا إياها ناظرًا إلى "روفيوس" قائلاً :

- يا سيد "روفيوس" إن من عادات وتقاليد مدرستنا اللاهوتية العريقة أن تجعل جسرًا من الثقة بينها وبين عائلات طلابها ، وإذا ما لاحظت أي شيء يسيء إلى

أبنائها عليها تلافي ذلك الأمر سريعاً ، وإشراك ولي الأمر في الإشراف على ابنه ، هذا هو النهج التربوي المسيحي السليم .

ظهرت على وجه "غاليلوس" ابتسامة هادئة قائلاً :
- إني يا سيد أتبع مقولة الإنجيل في تأديب ابني بعضاً من حديد .

لم يعجب هذا المنطق المعلم قائلاً :
- وفي نفس الآية طالب سليمان الحكيم الآباء بعدم غيظ أبنائهم ، وأنا أريد أن أسأل ماذا أصاب الشابين "أثناسيوس" جاعلاً وجوههما هكذا .
تكلم "ابن كوزموس" مقاطعاً قائلاً :

- كنا نسير الهوينى ليلة أمس ، وعندما أمطرت السماء وبرقت ورعدت لم نرَ أماننا الطريق من غزارة المطر فانزلقنا على وجوهنا .

نظر المعلم باندهاش واثقاً من كذب الشاب الصغير لكنه لا يريد أن يفضحه أو يناقشه ، فيبدو هكذا أن وراء تلك الكذبة قصة كبيرة .

فضل المعلم إنهاء اللقاء سريعاً طالباً من الآباء الاهتمام برعاية النشء الصغير ومتابعة سلوكهم وتقويمهم ، مشاركين بذلك المدرسة في التربية الصحيحة حتى شكر الآباء اهتمام المدرسة وعلى رأسها المعلم الصالح ، داعين له بطيلة العمر مغادرين تاركين الثلاثة شباب ما زالوا واقفين حتى نهض المعلم من مكانه ذاهباً إليهم ناظرًا في وجه "ابن كوزموس"

واضعاً يده على الانتفاخ ذي اللون الأزرق القابع حول أعين الشاب قائلاً :

- لا أعلم أي أرض التي انزلتكم عليها حتى تضع بصمات أيديها الغليظة على عينك .

التفت إلى "ابن روفئوس" قائلاً وهو يضع يده على الجانب المصطبغ باللون الأحمر على خده :

- وعلامات أصابع يد ضاربك ما زالت على وجهك ، يبدو أنك انزلت بشدة ولكن ليس على الأرض بل في المشكلة المعقدة .

اقترب المعلم من "أنطونيوس" الذي سارع قائلاً :

- لم أكن معهم ، ولم أنزلق ، فأنا أجد السير تحت الأمطار ولا يصيبني الزلزل .

ابتسم المعلم قائلاً :

- نشكر الله على تلك النعمة التي وهبها لك يا "أنطونيوس" .

انزلت دمعة صامتة من أعين "ابن كوزموس" قائلاً :

- هل يمكن يا معلم أن نذهب معك إلى الدار لتكمل لنا قصة أمس .

تمعن المعلم به قائلاً :

- ليس قبل أن أعرف ما الذي حدث لكل منكما ، وبدون كذب واختلاق قصص وهمية لا أساس لها من الصحة.

أجاب "ابن روفوريوس" بثقة :
 - سنحكي لك يا سيد عندما نصل إلى الدار .



انتهى اليوم الدراسي ليعود الجميع إلى دار المعلم بينما استأذن "أنطونيوس" الذي يعتبر نفسه ليس له ناقة ولا جمل في تلك القصة بالمرّة منطلقاً إلى ملاذه الوحيد الذي يحب أن يقضي وقته فيه ، ألا وهو المبنى الملحق الخاص بمعبد الإلهة "سيرابيس" حيث توجد هناك الراهبات القائمات على رعاية المؤمنين الوثنيين ولا مانع من استضافة أصحاب الأديان الأخرى لعلهم يتبعون مذهبهم الوثني ويبخروا للآلهة عائدتين إلى أصولهم السكندرية قبل مجيء المسيحية البغيضة إليها من وجهة نظر الوثنيين .

انفرد "أنطونيوس غالوريوس" بصديقه الراهبة الوثنية بإحدى الغرف المخصصة لممارسة اللهو والعبث والمجون وتلك النوعية من الراهبات المكرسات للترفيه عن الشباب والرجال وهذا جزء من طقوس عبادتهم الوثنية ، ومثلما يوجد راهبات يوجد أيضًا غلمان تحت الطلب ، وهناك بين كل تلك العادات والطقوس الوثنية البائدة يجد "أنطونيوس" لذته وراحته ومتعته مع راهبته المفضلة المكرسة للزنا فقط .

تدللت الراهبة عليه حيث خلع عباءته ليظهر على وجهها علامات الألم كالعادة ، فتمسك بالمنشفة المبتلة بالماء المعطر والخمر وتبدأ في ملامسة ظهره المشقوق المقطع ، وهو يغمض عينيه ألماً ويأساً ، وعينه قد ظهر بهما بريق خفيف سرعان ما تحول إلى دمة صامته انسالت على خده الأملس القمحي اللون ، والراهبة تداوي ما قويت عليه وهي تشعر بقلّة الحيلة تجاه ما أصاب صديقها وحبيبها الصغير ، فهي تكبر عنه بعشر سنوات لكنها يوماً بعد يوم منذ أن وفد على المعبد طالباً المتعة منذ سنتين حتى اصطدم بها وما أن عرفت أنه مسيحي وطالب بالمدرسة اللاهوتية حتى أعطته عناية فائقة وحباً نادراً لا يجده في بيت أبيه الذي هو المتسبب في كل العلامات الدامية التي على ظهر حبيبها الصغير ، فيد "غاليلوس" الأب قاسية وحديدية بالعصا على جسد ابنه إذا أخطأ أو فعل تصرفاً لم يرض أباه ، ولا يمر أسبوع إلا وكانت العصا الخشبية من نصيبه آكلة من جسده بعض رقائق من اللحم ، تاركة إياه يئن لتحاول والدته أكثر من مرة أن تقنع أباه بأن ما يفعله يعتبر خطأ وغير آدمي إلا أن "غاليلوس" يعتبر تأديب الابن من عبادة الرب ، والإنجيل قد أعطى له ترخيصاً بذلك ، وإنه لرحيم إذ استبدل بالحديد الخشب الغليظ ، وتلك معاناة الشاب الصغير "أنطونيوس" المغلوب على أمره الذي لا يجد سوى الراهبة صديقه المتعبدة في محراب الإله "سيرابيس" ضارباً بمسيحيته عرض الحائط ، ملفياً بسُمة أبيه بل العائلة المسيحية كلها

إلى أعماق بحار الإسكندرية عساها تنقذه مُخْلِصَةً إياه من بطش أبيه الزائد عن جميع الحدود والأعراف البشرية الآدمية.

أنهت الراهبة مداواة حبيبها الصغير ثم اتجهت بجسدها الخلاب الغض الجميل الأسر للقلوب ، المؤجج الشهوة النارية التي بجسد الشاب الصغير حيث ظهر جسدها كله من تحت ثوبها الحريري القرمزي الشفاف حتى حُسِبَ الرداء وجسدها شيئاً واحداً أخذاً عقل وقلب وأعين "أنطونيوس" إلى السموات العليا كما يظن هو ، بينما هي قد مارست جميع فنون الإغواء النسائية التي تجيدها منذ نعومة أظافرها حين وهبها والديها إلى الخدمة في معبد الإله "سيرابيس" لتصبح راهبة وكاهنة في قدس أقداس المعبد ، واهبة نفسها للعجل الذهبي قربان تضحية في سبيل إسعاد المؤمنين به ، مقدمة جسدها الفتان ، محرقة إلى إلهها الرحيم "سيرابيس" وليست هي وحدها بل ومعها كثير وكثير من الراهبات الفاتنات الخاشعات لإلههن بأجسادهن العارية ، ملبيات رغبات أبناء المعبد التابعين لإله المعبد ، ولا مانع من أن ترعى شاباً مسيحياً لعله يتخلى عن دينه وينضم إلى طائفتهم ، وتكون بذلك قد كسبت نفساً إلى إلهها ولا يهمها ما ستستغرقه من وقت لجذب انتباه الشاب "أنطونيوس" إلى مبتغاها واعتناقه الوثنية حباً فيها ، وعشفاً وولهاً بجسدها رائع الجمال لأنها تعلم علم اليقين أنه الآن لا يستطيع أن يستغني عنها أبداً ، وهي تعرف كل أسرارهِ وخبايا قلبه وأدق تفاصيل حياته داخل داره وخارجهِ حتى ينال

في أحضانها ناهلاً من الحب الشهواني المحض الذي تحول إلى عادة لا يستطيع أن يستغني عنها ، فزيارته الأسبوعية للمعبد وخاصة للراهبة صديقته شبه مستديمة ، وهي تبادل نفس شعور الحب حيث جرفت ظروفه إلى شاطئها لتصبح حبيبته وصديقته وأخته وأمه وكل شيء في حياته ، لتقول له في دلال بعد أن أنهوا فترة الحب والعشق :

- إلى متى يا "أنطونيوس" ستتحمل كل تلك المعاناة ؟

تمعن الشاب بجمالها ووجهها المنحوت مثل التماثيل الإغريقية ، فهي ليست مصرية سكندرية كاملة بل بها عرق فينيقي يحمل جمال بنات فينقيا العظيم المنحدر من سلالة والدتها ، أما أبوها فهو السكندري ويظهر ذلك في عينيها الزرقاوتين الواسعتين المسحوبتين بطريقة ربانية ، والتي تبرع في تكحيلهما بالكحل الأسود بطريقة سحرية تزيدها جمالاً فوق جمال ليدمع الشاب قائلاً :

- لا أعلم .

عز على الراهبة أن ترى دموع حبيبها فاقتربت من وجهه مخرجة لسانها وردي اللون ، لاعة دموع الصغير قائلة :

- لا تبك يا حبيبي "أنطونيوس" ، فأنا أشعر بك وبمعاناتك ، وعلى أتم استعداد أن أفدك بروحي وجسدي .

انتفض جسد الصغير من تلك الكلمات الساحرة الخلافة مرتمةً في أحضانها ، ممسكاً فيها بقوة ، متحسناً كل منطقة في جسدها قائلاً :

- لا تقولي هذا ، فأنا بدونك لا أساوي شيئاً ، أنت النسمة الرقيقة في حياتي ، أنا من يضحي من أجلك يا قرة العين وبهجة الفؤاد .

ربتت الراهبة على رأسه مختركة بأناملها النارية شعره الأكرت قائلة :

- تعال نهرب سوياً ونترك الإسكندرية كلها .
انغلق حاجبا الشاب ناظرًا في عينها الشبيهة بعيني الملكة "نفرتاري" الموجودة صورها منحوتة أو مرسومة بالمعابد الفرعونية القائمة على أطراف المدينة قائلاً :

- كيف سنهرب ؟ وإلى أين ؟ أنا ليس لدي نقود تكفي للهرب .

وضعت يدها على فمه ليلعقها هو صامتاً ، وهي تهمس في أذنه قائلة :

- أنا معي ما يكفيني ، إنَّ عطايا الإله "سيرابيس" ليس لها حد ، إنَّ إلها رحيم يساعد أبناءه ، وليس إلهاً قاسياً ، يتمنى الألم والمعاناة والذل والاضطهاد لشعبه ، "سيرابيس" مجد الإغريق وحكمة المصريين .

- ومسيحيتي التي تربيت عليها ؟!
- قل لي ماذا استفدت من مسيحيتك ؟ التي لم تأت عليك سوى بالاضطهاد والألم والعذاب وأب ذي يد قاسية

عليك ، متذرعًا بتعاليم بالية قديمة في تربيتك .. ألا تنظر إلى ما يصيبك منه ، ألا تشعر بظهرك مهترئ اللحم .

- أشعر به .
- إذن ماذا تنتظر ، إننا لنا الآن مع بعضنا البعض زمانًا يسيرًا ، قد حفظتك وحفظتني ، أحببتك وأحببتني .
- لكنني لا أعرف أن أكون غير مسيحي ، فأنا نشأت وتربيت على المسيحية .
- أنت حر يا "أنطونيوس" ، إنني أنتظرك الأسبوع القادم .

ارتدت الراهبة ثيابها و"أنطونيوس" ينظر إليها مفكرًا في كل ما قالته ، فتلك الكاهنة خبيثة الفكر داهية العقل تعرف متى ترمي الشباك لتصطاد فريستها ، ومتى تسحب شباكها مؤجلة إياها إلى رحلة صيد أخرى ، يكفي اليوم أنَّا ألقت بالطعم فقط وسط الشباك ، تاركة إياه يفكر على أن يكون لقاءهم الأسبوع القادم كالعادة ، ثم اعتذرت فجأة لأنها ستكون مشغولة بعيد الإله "سيرابيس" والمعبود سيكون كله على أهبة الاستعداد لاستقبال المؤمنين الإغريق والمصريين محبي الإله الذين يحضرون من كل حذب وصوب ، لذا فهي ستكون مشغولة جدًا ، فأصاب الشاب اليأس قائلاً :

- وهل ستقابلين شابًا آخرين ؟

ابتسمت الراهبة بخبت أنثوي قائلة :

- بالطبع ، فأنا راهبة .

أمسكها الشاب من يدها بطريقة فجائية بعصبية شديدة ،
مظهرًا غيرًا رجولية ، مُقبلاً إياها في فمها ، فما كان منها إلا
أن أبعدته عنها قائلة بغضب مصطنع :

- لقد أخذت كفايتك اليوم مني ، يكفي هذا .

خرجت الراهبة وهي عالمة علم اليقين بأنّه سيوافق على
الهرب معها لتجد كبيرة الكاهنات ، تلك السيدة البالغة من
العمر الاثنين والستين عامًا ، رشيقة القوام التي ما زالت تقدم
خدماتها إلى المؤمنين من لذات وشهوات ، قائلة بصوت
مبحوح :

- ما أخبار الشاب المسيحي ؟ هل اقترب موعده؟

وأمت الراهبة برأسها بعلامة الإيجاب قائلة :

- إنني قد أحكمت قبضتي عليه ، إنها مسألة وقت فقط ،
وبعدها سيصبح الشاب "أنطونيوس" المسيحي متعبداً
للإله "سيرابيس" الرحيم تاركاً ابن النجار المعلق على
خشبة .

خرج "أنطونيوس" في جناح الليل متلفحاً حتى لا يلاحظه
أحد ، بينما في الجهة الأخرى وقف شاب راصداً إياه في
الظلام .

سار "أنطونيوس" مسرعاً مبتعداً عن المعبد القائم في غرب
الثغر السكندري ، متجهاً إلى شاطئ البحر ، جالساً مناجياً الله

لعله يجد له حلاً في أزمته تلك مع حبيبة قلبه ، ولكن شيئاً ما نخس قلبه لا يعلم ما هو شاعراً بتأنيب عظيم ، مفكراً كيف يمكن أن يهرب مع عابدة صنم وهو مسيحي ، ليجيبه روح غي من داخله مقتعاً إياه بأنّ هذا لن يقل شيئاً عن ممارسته الحب معها ، إنّه قد وقع معها في الزنا بالفعل أكثر من مرة ، فهو يعلم كطالب بالمدرسة اللاهوتية عقاب خطيئة الزنا مع وثنية إذا اعترف بهذا للكاهن .



(٤)



- وثنية آريوسية ، تلك أطراف الصراع الذي حدث اليوم في الحي الغربي للإسكندرية .

نظر المعلم الصالح وهو يطالع بعض المخطوطات محاولاً التركيز فيما يقوله الخادم الذي قال هذا وهو منكباً على وجه الشاب "أثناسيوس" داهناً إياه بالمراهم المرطبة لمعالجته ، ليسأله المعلم عن سبب ذلك الشجار ، فأوضح الخادم أنه بسبب قطعة أرض باعها رجلٌ ثري وثني إلى رجلٍ آريوسي وعندما علم الوثنيون أنَّ الآريوسي مزعَّم على أنَّ يبنيتها كنيسة وسط الحي الخاص بهم وبمعابدهم قامت الإسكندرية الوثنية منتفضة هائجة معتصمة أمام الأرض ليهرع الآريوسيون بأعداد فائقة ثابتين على إسكندريتهم الآريوسية التي يريدون بناء كنائسهم بها ، ووقع قتلى وجرحى من الجانبين نتيجة الاشتباكات الدامية ، وهاج وماج الجميع ، وتكاثر المصابون من كلا الجانبين حتى تحرك جند الوالي في النهاية لفض النزاع والتحفظ على الأرض وحراستها إلى حين إشعار آخر .

ظهر الحزن واليأس على وجه المعلم من جراء ما سمعه ،
بينما الشابان يتأوهان تحت ضغط يد الخادم ، ثم سارع أحدهم
وهو "ابن روفئوس" سائلاً المعلم عما يقرأ بالمخطوطة ،
فأوضح له أنها جزء من مضابط الجلسات التي تخص مجمع
"نيقية" ، فهو يراجع بعضها بينما الجزء الآخر بقلم النسخ
الآن بالمدرسة ، ينسخ من أجل المجمع الجديد للاستناد
على ما تم الاتفاق عليه بين الكنائس مسبقاً ، ليسأله
"ابن كوزموس" :

- لِمَ لَمْ يتفق المسيحيون والآريوسيون مجدداً ؟

فبدأ المعلم يكمل حديثه عن الآريوسية ، وبالأخص أحداث
مجمع نيقية المعظم المسكوني .

- لم يجلس البابا "أرشلوس" على كرسي البطريركية
سوى ستة أشهر ، وتنتج تاركاً "أريوس" مسماراً في
نecش الكنيسة السكندرية ليخرج البابا "ألكسندروس"
بطريركاً وهو تلميذ للبابا "بطرس" ، منتزعاً من
"أريوس" رتبته الكهنوتية تنفيذاً لوصية أبيه الروحي ،
وبطريركه السابق الذي أوصاه بهذا ، وعليها هاج
"أريوس" طالباً الوقوف أمام البابا الجديد ناشراً
تعاليمه التي تنادي بأن الابن المتمثل في شكل "السيد
المسيح" ليس أزلياً إنما له بداية حيث خلقه الآب
مستنداً على أقوال من الكتاب المقدس ، وكثر أتباعه
بشدة رهيبة مستخدماً في ذلك كل أسلحته واطعاً
الترانيم التي تسبح بعظمة الآب جل شأنه ، وتراجعت

أهمية الابن مما جعل البابا يعقد مجمعا في الثغر
السكندري عام ثلاثمائة وتسعة عشر لوقف بدعته
واعتباره هرطوقي ، وقد وَقَّعَ على هذا الحكم ستة
وثلاثون كاهنا وأربعة وأربعون شماسا ، وكانت تلك
أول مرة يظهر فيها الشاب "أثناسيوس" العشريني
العمر ، الذي ألحقه البابا لثقتة فيه لسعة معلوماته
وفصاحته وقوته في تفسير علم اللاهوت للدفاع عن
الإيمان المستقيم ، والوقوف أمام الأريوسيين ، وكان
شكل "أثناسيوس" بسيطا حيث أنه قصير القامة ، ذو
احتداب بسيط ، حسن الطلعة ، تظهر عليه سيما
التقوى والورع ، ذو أنف مقوس ، وفم دقيق ، ولحية
قصيرة متصلة بشاربين كبيرين ، ذو شعر خفيف
أسمر اللون ضارب إلى الحمرة .

وقف الشماس "أثناسيوس" أمام "أريوس" وأعوانه
وكتب المنشور السنوي ضده ، ونص المنشور يدين
بدعة "أريوس" ويبين أن تعليمه يدعو إلى تعدد الآلهة
وقياس غير المحدود بمقاييس بشرية ، والإيمان
ببعض الكتاب دون البعض الآخر ، ونجح هذا المجمع
في مسعاه لكن "أريوس" لم يهدأ بل أثار الشغب في
الإسكندرية وسط الشعب خاصته ، مما دفع البابا
"ألكسندروس" لعقد مجمع آخر عام ثلاثمائة وواحد
وعشرون بحضور مائة أسقف من مصر وليبيا بالثغر
السكندري ، وحكم هذا المجمع بحط "أريوس" من

درجة الكهنوت وطرده من "الإسكندرية" ذاهباً إلى "فلسطين" وبالفعل تم هذا ليجدها الأخير فرصة مناسبة لنشر تعاليمه هناك بين مسيحيي "فلسطين" بواسطة التلحين والتغيم لما كان يعلمه من معلمه "ميليتس" أنَّ للصوت تأثير على النفس البشرية ، وألف "أريوس" كتاباً باسم "تاليا" به ترانيم وتسابيح تمجد بدعته ليعود بعدها إلى "الإسكندرية" بحشد كبير محارباً البابا بعد أن عقد مجمعين : واحداً في "ميثينة" عام ثلاثمائة واثنان وعشرون ، وآخر في "فلسطين" عام ثلاثمائة وثلاثة وعشرون ، ولغى قرار البابا "ألكسندروس" عائداً بعدها إلى الثغر السكندري هائجاً بحزبه مما جعل المشهد سخيلاً أمام الوثنيين الذين أصابهم الفرح والسرور لما حل بالمسيحيين ، ولا ينكر أحد أنهم كسبوا ضحايا جدد وقعوا نتيجة ذلك الصراع السكندري الأريوسي ليتجلى الشماس "أثناسيوس" للدفاع عن المسيحية من جديد بالوقوف أمام "أريوس" وكتابة منشورين يدحضان تعاليم "أريوس" وقَعَ عليهما العديد من الكهنة والشماسة .

وهنا فقط أدرك "أريوس" ، ذلك الرجل المتوسط الحجم الذي لا توجد لديه رقبة بل رأسه على جسده مباشرة ، ذو رقبة صغيرة جداً وعينين ضيقتين وشعر أشعث ، عريض الصدر ، ذو معدة ممتلئة نوعاً ما ، إنَّه لا بد وأن يصل إلى البلاط الروماني مسيطراً عليه

فاستطاع أن يصل إلى أخت الإمبراطور "قسطنطين" عن طريق الأسقف "أوسيوس" أسقف قرطبة ، وأرسله إلى الإسكندرية لعمل مجمع هناك عام ثلاثمائة وأربعة وعشرون للتباحث في الأمر ، وهنا قام السكندريون بعمل شغب عظيم يدعو إلى تأييد البابا "ألكسندروس" ضد معانديه وعلى رأسهم الملك ، فقام أتباع "أريوس" بكسر تماثيل الملك وإصاقها بأتباع البابا ، مما دعا الأسقف "أوسيوس" بعد أن رأى كم العنف هذا إلى الاشتراك مع بابا الإسكندرية ونقل الصورة كما حدثت إلى الإمبراطور "قسطنطين الكبير" الذي دعا على الفور لعقد مجمع "نيقية" عام ثلاثمائة وخمسة وعشرون .

ذكر المعلم الصالح إنه وقتها كان ما زال طالبًا بالمدرسة اللاهوتية عندما خرج إلى ميناء النهر السكندري مع بقية الطلاب والشعب السكندري يشاهدون الثلاثة مراكب الملكية الضخمة التي بعث بها الإمبراطور لحمل البابا "ألكسندروس" وأعوانه .

- ثلاثة مراكب ضخمة جدًا ، جزء من الأسطول الروماني العظيم الذي ذاع صيته في جميع أعالي البحار ، وانبهر الجميع بالأشرع الضخمة التي تحمل علامة الصليب على جهة ، وعلامة النسر الروماني على الجهة الأخرى ، مما جعل قلوب السكندريين ترقص فرحًا لرؤية الصليبان الفضية المعلقة على

المراكب الضخمة ، وها هم الجنود حملة الشعار الروماني يتقدمون المراكب الثلاثة رافعين الصلبان والنسور الرومانية على زيهم العسكري المميز الخاطف للأبصار ، وجميع الأهالي يحيون إياهم بترحاب ومودة شديدة .

رست المراكب لمدة يومين حيث تم إمدادها بالمؤن اللازمة ، واستعد الركب المقدس وقتها للذهاب والدفاع عن الإيمان المسيحي القويم ، وعلى رأسهم البابا "الكسندروس" يرافقه من الأساقفة "بوتامون" أسقف هرقلية بأعالي النيل ، و "بنفوتيس" أسقف طيبة الذي عُذّب في زمن الاضطهاد وفقد عيناً من أعينه ، ولفيف من الأراخنة والإكليروس المدافعين عن الإيمان ، وعدد من النساخ الذين قاموا بنسخ جميع مضابط الجلسات والمخطوطات بكل من اللغة القبطية واليونانية ، وكان يوماً حافلاً عظيماً حيث اصطف الأهالي على جانبي الطريق من الكاتدرائية العظيمة إلى حيث شاطئ الميناء ، والنساء يطلقن الزغاريد والرجال تهتف بحياة البابا متمنين له أن يعينه الله على حربه ضد "أريوس" .

امتطى البطرك والأساقفة الجياد ، والإكليروس وطغمت الشمامسة يرتلون الألحان وهم سائرون حاملين الدفوف والصنوج ، وعلى رأسهم الشماس الشهير "أثناسيوس" يرمنون وينشدون مزامير

المصاعد ، وبأحد أركان "الإسكندرية" العامرة وقف اليهود يشاهدون ذلك الحشد العظيم ، وفي ركن آخر اصطف الوثنيون يتذكرون أيام مجدهم وأنَّ العالم دول أمس كان لهم ولآلهتهم والآن للمسيحيين وبطريركهم ، أمّا من كانوا يشتعلون من الغيظ فهم الآريوسيون حيث رفضوا الاشتراك مع الجمع أو حتى النزول إلى شوارع وطرق الإسكندرية بل اعتلوا أسطح المنازل وظلوا يرشقون الركب بالحجارة في بعض المواضع مما أحدث نفوراً رهيباً جاعلاً المسيحيين يصعدون إلى أعالي الأسطح ويتشابكون ويتشاجرون بالأيدي ليقرر البعض مبادلة الآريوسيين التراشق بالحجارة أيضاً ، مما استدعى إلى تدخل حرس الوالي السكندري لفض مثل تلك الاشتباكات التي اندلعت على هامش الموكب ليتم القبض على عينات عشوائية من الجانبين وترحيلهم إلى سجن القلعة الغربية إلى حين النظر في أمرهم .

اعتلى الجميع أسطح المراكب الثلاثة وقام البابا ومن معه من أساقفة بتلاوة صلاة أوشية المسافرين ومعهم جميع الشعب ، وأعطى البابا ثلاث أيادٍ بخور بالمجمرات الذهبية ومعهم الأساقفة يشاركونه ، ومن ثم أنهى الصلاة وهتف الشعب بحماس وقوة ب حياة البابا "ألكسندروس" مما جعل النفوس تلتهب بالإيمان والغيرة المقدسة ، وأوصيت صديقي الأكبر الشماس

"أثناسيوس" أن يذكر لي كل شيء عند عودته فوعدني بهذا وقبّله قبله أخويةً ليصعد على متن السفينة الحربية ، وانطلقت الثلاث سفن من ميناء الثغر إلى ميناء نيقية .



- كل هذا رأي عيناى أيها الفتية الأعزاء .

لقد فتحت أفواه الشباب "أثناسيوس" من الاندهاش مما يسرده المعلم متمنين أن يروا مثل هذا المشهد المهيّب مرة أخرى حتى قطع المعلم اندهاشهم مكملًا حديثه عن ما حدث هناك "بنيقية" حيث وصل الركب المقدس إلى ضالتهم المنشودة وقد استقبلوا في "نيقية" استقبالا حافلا أيضا ولكنه ليس بنفس قوة أهل "الإسكندرية" وقد استغرب الشمس "أثناسيوس" من أن هناك أناسا قد تكالبوا عليه لمصافحته عندما علموا أنه هو من تصدى "لأريوس" في "الإسكندرية" وقد وصل صيته وشهرته إلى أهل "نيقية" أيضا ، وتمركز الجميع في القصر الملكي حتى أعطى الإمبراطور أمرا إلى الجميع لبدء انعقاد جلسات المجمع ، وبلغ عدد الحاضرين ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا ، وها هم أسماء الحضور أو جانبًا منهم :

أسطاسيوس أسقف أنطاكية ، يوساب أسقف قيصرية ، مكاريوس أسقف أورشليم ، بولس أسقف قيصرية الجديدة ، يعقوب أسقف نصيبين وتلميذه مار أفرام ، وعطا الله أسقف

أديسا ، أما سلفستروس أسقف كنيسة الرومان فلم يحضر لشيخوخته وأتاب عنه الكاهن ويتون والكاهن يكنديوس . وحضر من أرمينية وبلاد الفرس وأيضاً من الغوط القاطنين عبر نهر الدانوب ومن آسيا الصغرى ، وأيضاً يوساب من نيكوميديا ، وماسليوس أكبر معارض لآريوس بعد أثناسيوس والأسقف أسبريد من جزيرة قبرص ، وقد بلغ عدد ممثلي بلاد المشرق مائتين وعشرة ، ومن البلاد الغربية ثمانية أساقفة وهم ممثلون من روما وأسبانيا والغال وبريطانيا والليريكوم والسرب والبلغار أو دولماتيا ، ومن أبرزهم الأسقف أوسيوس .

أما من الطرف الآريوسي فيأتي على رأسهم الكاهن "آريوس" نفسه يليه أكبر مناصريه ومؤيديه وهو أوسابيوس أسقف نيكوميديا وثاؤفنس مطران نيقية ومارس أسقف خلكيدون ، ومعهم عشرة فلاسفة من أقوى الفلاسفة بالإسكندرية ونيقية ونيكوميديا ، وكان ما يميز الفرق بين الشماس والأسقف أنَّ الشماس يلبس رداءً طويلاً أما الأساقفة فيرتدون برنساً كبيراً من الصوف ذي اللون الأبيض .

استعد الشماس "أثناسيوس" بكل ما أُوتي من حجج للرد على "آريوس" وأعوانه وقد شجعه البابا "ألكسندروس" بكل ما لديه وعضده بكل ما يحتاجه الشاب الصغير ، واجتمع المجمع المسكوني بنيقية عام ثلاثمائة وخمسة وعشرون تحت رعاية وحضور الإمبراطور "قسطنطين" شخصياً .

في اليوم المحدد ، الموافق الخامس والعشرين من مايو انفتح المجمع بمكانه في الساحة الوسطى بالقصر الإمبراطوري العظيم الشأن القوي الأساسات ذي البهو الواسع جدًا الذي تعلوه نقوش بيزنطية مسيحية تمثل الصلبان والملائكة المجنحة وعناقيد الكروم ، وقد كُتبت بأحرف من ذهب آيات من الكتاب المقدس على الحوائط ، ورُسمت العديد من الأيقونات المعظمة ذات الألوان الأخاذة وتنوعت الرسومات الجدارية الضخمة ما بين قصة الفلك ودخول الحيوانات وعائلة نوح يقابلها لوحة جدارية لقيامة السيد المسيح من القبر والحراس نائمين والباب الحجري مختوم وفي الخلفية صورة لآدم وحواء في الجنة والحية تعطيهم التفاحة وأخرى تمثل تنصيب داود النبي ملكًا على إسرائيل بيد صموئيل النبي .. مناظر عظيمة رُسمت من خيال الرسام مستوحيا جميعها من الإنجيل المعظم تُدخل على جميع الناظرين إليها الرهبة والسكون الروحاني ، وقف في أركان البهو الملكي حاملو المجامر الذهبية المشتعلة ورائحة البخور تفوح منها بغزارة وكثافة ليمتلئ البهو بأكمله ، معطية للنفس السكينة والهدوء .

أما الحرس الإمبراطوري فقد اصطف على الجانبين ممسكًا بالرماح الملكية التي تعلوها علامة الصلبان المرسومة على الشارات الأرجوانية اللون ليشعر الجميع بحق أنه قد مضى عهد الاضطهاد والاستبداد وأتى عهد النعمة المسيحية فبالأمس شهدت تلك القاعة الفسيحة حالات تعذيب واضطهاد لبعض منهم وآبائهم وأجدادهم ، وصدرت حالات الصلب

والقتل والنفي لذويهم والمسيحيين من داخل تلك القاعة التي أصبحت الآن دارًا للبركة والنعمة والحكم على الأجيال المنشقة من ظهر الآباء والأجداد الشهداء ، وشتان ما بين أمس واليوم ، وتلك هي حيل الشيطان لبني الإنسان كما تهيأ للبابا "ألكسندروس" حيث جلس في الجانب المخصص له وكل الكراسي موضوعة بترتيب وعناية لكي يكون معارضو "أريوس" في جهة وصاحب البدعة ومؤيديه في جهة أخرى ، الفريقان في مقابلة بعضهما البعض وعلى رأس الصفيين المتقابلين وُضِعَ كرسي الإمبراطور المعظم المحب لله "قسطنطين الكبير" وجلس على أطراف البهو العديد من موظفي البلاط الملكي المعظم وأفراد العائلة المالكة منتظرين جميعهم دخول الإمبراطور ، ودقت الأجراس بشدة فانتبه جميع من بخارج القصر الملكي الذين يحاولون استراق السمع من الشرفات والمنافذ أو المداخل والمخارج لتبلغ أعداد الحاضرين بالخارج ما يقدر بالأربعة آلاف نسمة من شعب "نيقية" ومن الآخرين الذين رافقوا الأساقفة المبجلين الحاضرين .

استعد الجميع بقرطاسه وقلمه وحجته وآياته الكتابية ليشرحوا في ألوهية الابن ليتذكر الشماس "أثناسيوس" كيف أنه بالأمس القريب كان بعضٌ منهم يقف مرعوبًا أمام الاضطهاد ومنهم من هرب ، والآن يقفون ببسالة متناهية ينهشون من لحم الحبيب المسيح .

اشرأبت الأعناق ولمعت الأعين ، وشحنت النفوس منها بالجد ومنها بالسيء ، وانتفخت الأوداج وكتمت الأنفاس ، والشماس "أثناسيوس" عيونه كالصقر مراقباً الجانب الأريوسي حاضراً بحجته كاملة ، ودخل الإمبراطور المعظم "قسطنطين" ليناى الحاجب على الجميع قائلاً :

- جلالة الإمبراطور المعظم المحب لله العظيم في الأباطرة والملوك ، القوي في الإيمان الإمبراطور قسطنطين المبارك أطال الله عمره وحفظه من أعداء المسيحية .

بارك جميع الأساقفة دخول الإمبراطور قائلين في نفس واحدة بصوت جهوري اهتزت له أرجاء القاعة :

- آمين .

قام رئيس الشماسة النيقاوي يرافقه خورس الشماسة الملكي المكون من خمسمائة شماس بترتيل لحن "مبارك الآتي باسم الرب" باللغة اللاتينية يصاحبهم ضاربو الدف والناقوس حتى اقشعرت أجساد جميع الحاضرين لعذوبة أصوات الملائكة الأرضيين الصادرة ، ليشعر الجميع بأنهم انتقلوا إلى السماء في رحلة مؤقتة ، حيث اهتزت أساسات القصر الإمبراطوري من هذه الكلمات المباركة الملحنة بألحان تأخذ العقول والقلوب إلى الملكوت ، ناقلة إياهم من المجد الأرضي الفاني إلى المجد السمائي العتيد .

انتهى الخورس من اللحن ثم وقف الإمبراطور بين الحضور بهامته الطويلة وجسمه العسكري الرشيق ، وأكتافه العريضة

ووجهه دقيق الملامح ذي الفم الواسع والأنف القيصرية ،
والعينين الواسعتين نوعًا ما ملقياً خطبته باللغة اللاتينية حيث
ترجمها له "يوساب" متحدثًا فيها عن الاتحاد وفوائده ، وأنه
لا بد من فض المشاكل بالحكمة فليس من المستحب أننا بعد
أن عبرنا عصور الاضطهاد والاستشهاد العنيفة نجعل العالم
يشاهد انقسام المسيحية على نفسها الآن ، يجب أن نتحد بكل
قوة ، ورحب الملك بالجميع مفضلًا أن لا يجلس على رأس
المجمع لوجود أساقفة جهازة وعلماء رفيعي الشأن لا يستحق
أن يجالسهم فاختر لنفسه كرسياً عادياً في آخر المجمع
للجلوس عليه إلا أن أعضاء المجمع أبوا ورفضوا بشدة
معطين إياه الكرامة والعزة طالبين منه الجلوس على كرسيه
الإمبراطوري لأنَّ القادم سيكون مهماً جداً ، وبالفعل جلس
الإمبراطور "قسطنطين" مشاهدًا ما سيحدث معتبرين
"أوسيوس القرطبي" الأريوسي رئيسًا للمجمع إلا أنَّ الأنظار
كلها اتجهت إلى البابا "ألكسندروس" ومساعدته الشماس
"أثناسيوس" فيما بعد ، وبدأت أولى الجلسات التي شهدت
خروجًا عن النص وهرج ومرج ومشاحنات من الطرفين
وانقلابات وتحزبات وأصوات عالية من كلا الجانبين حتى
وصل الأمر إلى أن ما عاد يسمع أحد أو يفهم ما يقال ، وكان
"أريوس" معتمدًا على أخت الملك "قسطنطين" في إيصال
صوته إلى الملك حيث أنَّ أب اعترافها كاهن أريوسي ،
وبالفعل ناصرت "أريوس" وحزبه وانقسمت العائلة الملكية
على ذاتها والبلاط الملكي أيضًا مما جعل الإمبراطور نفسه

ينزعج بشدة ويقرر تأجيل الجلسة إلى يوم آخر تكون فيه النفوس قد هدأت فيتمكنوا من إكمال كل تلك الأحاديث بدون مشاحنات أو اضطرابات ، وبالفعل تم فض الجلسة الأولى على لا شيء بالمرّة ليشتد كل فريق هممه بالعودة من جديد إلى طاولة الاجتماعات بالبهو الملكي الواسع ليزعق هذا ويقابله من الجهة الأخرى شخص آخر يزعق أمامه ، وتجلّى الشماس "أثناسيوس" إذ دخل في إحدى الجلسات أمام الإمبراطور والفريق الأريوسي حاملاً لوحات مرسومة مستأذناً القائم مقام على أعمال المجمع بأن يساعده بإحضار لوح عرض ليقوم بتثبيت لوحاته والكل ينظر إليه في استغراب شديد حتى انتهى من تعليق لوحته على الخلفية الخشبية التي لم يكن عليها سوى صورة شمس مرسومة بالحجم الكبير ومكتوب داخلها باليونانية كلمة (شمس) وبدأ يشرح "أثناسيوس" غرضه من اللوحة ، فالشمس ثابتة في كبد السماء يشع منها نور ثم وضع على اللوحة قطعة مكتوب عليها نور مشيراً إلى النافذة الخارجية ذاكراً أنّ الكل يرى النور ، ثم وضع قطعة على اللوحة مكتوب عليها حرارة شارحاً أنّ الحرارة تخرج من الشمس ونشعر بها ليطلب فتح النافذة فاخترقت حرارة الشمس البهو ليشعر بها الجميع ليدور الشاب حول لوحته مبسّطاً الأمر ، أنّه لا يمكن أنْ يفصل أيّاً منهما عن بعضهما البعض حيث إنّ كل من الحرارة والنور خارجان من الشمس ، هكذا الله الآب والابن والروح القدس لا ينفصلون لحظة واحدة ولا طرفة عين .

ابتسم الإمبراطور من هذا الشرح الوافي معطياً انتباهه إلى هذا الشاب المدافع الصنديد "أثناسيوس" الضعيف الجسم القوي العقل ، ليرى ذلك "أريوس" فينهض متناحراً مهاجماً عن عقيدته التي يريد فرضها على الجميع ، ومفادها أن الابن غير أزلي وهو مخلوق من الآب ، ودارت الدوائر فكلمة من هنا وكلمة من هناك ولفظ عقائدي خاص من هنا ولفظ عقائدي آخر مناظر له من الجهة الأخرى ، ولكي يكون المعلم الصالح أميناً في نقل تلك الرواية فقد أثر أن يقرأ للشابين بعضاً من مقاطع النزاع اللاهوتي العقائدي الذي دار منذ ما يقارب الخمسين عاماً بين "أثناسيوس" و "أريوس" كما هو مدون بالمخطوطة التي كتبت وقت انعقاد الجلسة مع اعتراض "أريوس" ومؤيديه على أن منافسه رئيس شمامسة ولا يصح أن يجادل كاهناً وأساقفة إلا أن الإمبراطور لم يلتفت إلى تلك الحجة ، ومن وقتها اعتبرت الكنائس الشرقية والغربية أن رتبة رئيس الشمامسة من أوائل الرتب الكهنوتية وذلك لأن "أثناسيوس" مع عظم شأنه لم يكن سوى رئيس شمامسة فقط ، وقف "أريوس" وقال :

- إنَّ الابن ليس مساوياً للآب في الأزلية ، وليس من جوهره ، وإنَّ الآب كان في الأصل وحيداً فأخرج الابن من العدم بإرادته ، وإنَّ الآب لا يرى ولا يكيف حتى للابن لأنَّ الذي له بداية لا يعرف الأزلي ، وإنَّ الابن إله لحصوله على لاهوت مكتسب .

عندما سمع الآباء هذه الكلمات ضجوا ضجيجاً هائلاً وصموا آذانهم بالكاد حتى لا يسمعون أناشيد "أريوس" المحضة على التجديف محدثين هرجاً حتى أسكتهم الملك بالقوة لينبيري "أثناسيوس" واقعاً ندّاً أمام "أريوس" الذي أكمل حديثه قائلاً :

- إن سليمان الحكيم تكلم بلسان المسيح قائلاً : خلقتني أول طريقه .

"أثناسيوس" :

- معنى ذلك أنّ الربّ ولدني لأنّه يذكر في النص

العبراني عوض خلقتني "قناني" أي ولدني ، كما يقال

قنى بالله ولداً أي ولد ، ويؤيد هذا التفسير ما ورد في

نفس الفصل إذ يقول : منذ الأزل مسحت ، منذ البدء

كنت معه قبل أن يخلق الجبال وقبل أن يصنع الأرض

لما ثبت السموات كنت هناك .

وهناك أقوال تدل على ولادة الابن الأزلية كما قال

داود النبي "أنت ابني ، أنا اليوم ولدتك ، ومن البطن

قبل كوكب الصبح ولدتك" .

"أريوس" :

- إنّ الابن قال "أبي أعظم مني" فعلى هذا يكون الابن

أصغر من الأب ولا يساويه بالجواهر .

"أثناسيوس" :

- إنّ الابن دون الأب لكونه تجسد كما يتضح ذلك من

الآية نفسها "لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأنني قلت

أمضي إلى الأب ، لأنّ أبي أعظم مني" أي أنّه

بناسوته يمضي إلى الآب الذي هو أعظم من ناسوت الابن وإلا كيف يتكلم بلاهوته ، إنّه يمضي إلى الآب حال كونه في حضن الآب ، ويؤيد ذلك أنّه في نفس الفصل يتكلم باللاهوت ويبين مساواته لأبيه بالجوهر بقوله "من رأني فقد رأى الآب ، وأنا في الآب والآب في ، وكل ما للآب فهو لي ، وكل ما لي فهو له لأننا نحن واحد" .

"أريوس" :

- إنّ المسيح قال "دُفِعَ إليّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض" فذكر هنا أنّه نال السلطان من أبيه لأنّه أعظم منه وغير مساوٍ له .

"أثناسيوس" :

- يعني أنّ الابن بولادته الأزلية من الآب قد ملك كل سلطان أو أنّه قال ذلك بحسب كونه متأنساً لأنّه في أثر هذا القول ساوى نفسه بأبيه بقوله لتلاميذه "عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" .

"أريوس" :

- إنّ المسيح نسب ذاته لعدم معرفة ساعة الدينونة بقوله لتلاميذه "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفها أحد ولا ملائكة السموات إلا الآب وحده" فإذا كان الابن لا يعرف وقت الدينونة فكيف يكون إلهاً ؟

"أثناسيوس" :

- إنَّ المسيح قال ذلك لتلاميذه لئلا يسألوه عن هذا السر الذي لا يجوز لهم أن يطلعوا عليه كما يقول صاحب السر إنِّي لا أعلم هذه المسألة أي لا أعلمها علمًا يباح به لأنَّ بطرس قال له : "يا رب أنت تعرف كل شيء".

"أريوس" :

- إنَّ المسيح قال : "أنا لا أقدر أن أصنع مشيئتي بل مشيئة من أرسلني" ، إذن هو عبد للآب ودونه .

"أثناسيوس" :

- إن المسيح تكلم في مواضع كثيرة بحسب كونه إلهاً صار إنساناً كقوله : "إن شئت فلتعبر عني هذه الكأس" و "إلهي إلهي لماذا تركتني" ، "إني صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" ومثل ذلك صلاته إلى أبيه مرات كثيرة ، وبصفة كونه إلهاً قال : "من رأي فقد رأى الآب" ، "أنا في الآب والآب في" ، "أنا والآب واحد" ، وفي نفس الفصل الواردة فيه آية الاعتراض قال المسيح : "كما أنَّ الآب يقيم الموتى ويحييهم كذلك الابن أيضاً يحيي من يشاء ليكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب" ، وغير ذلك كثير من أقوال المسيح التي تصرح بمساواة لاهوته للاهوت أبيه في الأزلية والعظمة والقدرة .

"أريوس" :

- إنَّ يوحنا قال في بشارته عن الابن : "كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان" فهذا القول لا يدل على أنَّ الابن آلة استخدمها الآب لصنع الخلائق فالابن إذاً ليس إلهاً خالقاً .

"أثناسيوس" :

- إنَّ الآب خَلَقَ بالابن أي بواسطة الابن الخالق كما يقال "بنى الملك المدينة بابنه" فالملك وابنه يعدان بانيي المدينة ، ولا سيما أنَّ يوحنا صرح بلاهوت الابن وأزليته ومساواته لأبيه في الجوهر والقدرة في بشارته وفي رسالته حيث قال "الذي كان منذ البدء ، الذي سمعناه ، الذي رأيناه ، الذي لمسناه أيدينا" وأيضاً "الشهود في السماء ثلاثة الآب والكلمة والروح وهؤلاء الثلاثة هم واحد" وفي الرؤيا "أنا هو الألف والياء ، البداية والنهاية ، يقول الرب الكائن والذي كان ، والذي يأتي القادر على كل شيء" وقوله "الجالس على العرش وللحمل البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين" وفي أول الفصل الواردة فيه آية الاعتراض نص البشير بجلاء عن لاهوت الابن بقوله "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" فكيف يكون معنى قوله بعد هذا التصريح أنَّ الابن ليس بإله خالق لكنه آلة لصنع الخلائق وقد اعترف داود النبي بأنَّ الابن خالق ، كما قال "أنت يا رب في البدء أسست الأرض والسموات

صنع يدك" ، ولا ريب أنَّ هذا القول يخاطب به النبي ابن الله كما فهم ذلك الرسول ، فقد اتضح أنَّ ابن الله خالق نظير أبيه وإله مساوٍ له في الجوهر والعظمة والمجد .



سكت المعلم الصالح عن الكلام مغلقًا المخطوطة التي احتوت الحوار الشيق هذا بين "أريوس" و"أثناسيوس" كجزء من حوار مجمع نيقية .

قال "ابن كوزموس" معلقًا على كل ما قيل :
- أظن أنَّ الحُجة لم تكن قوية بالمرة ، وإنما هو إضعاف للنصوص من قِبَل "أريوس" وأتباعه.

وافق "ابن روفوريوس" على هذا المبدأ أيضًا ، وأكمل المعلم شرحه لأعمال المجمع حيث قام "أثناسيوس" بسؤال الأريوسيين إن كانوا يقبلون أنَّ يكتب في العقيدة عن طبيعة الابن إنَّه من الله ، فقالوا : نعم ، لأننا نحن أيضًا من الله والكتاب يقول : "لكن لنا إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء" ويقول أيضًا : "هوذا الكل قد صار جديدًا ، ولكن الكل من الله" ، فسُئِلوا إذا كانوا يعترفون بأنَّ الابن ليس مخلوقًا بل هو قوة الآب وحكمته وصورته وإنَّه هو الله حقًا ، فنظر بعضهم إلى بعضٍ وتشاوروا همسًا ثم قالوا : "إننا نوافق على ذلك لأننا نحن البشر ندعى صورة الله ومجد الله وأشياء كثيرة يقول عنها الكتاب أنَّها قوته كقول المزمور :

"جميع قوة الرب خرجت من مصر" حتى إنّ الجراد سميت بقوات الرب ، وأما من جهة القول بأنّه إله حقيقي فلا مشاحنة فيه إذ إنّهُ جُعِلَ أو تعين هكذا ، ولم يلقِ أحدُ الفريقين أية عبارة يعبر بها عن فكرة إلا وقام الفريق الآخر بإضعاف قوتها ونفيها .

اقترح الشماس "أثناسيوس" أن تضاف كلمة "أوموسيوس" باليونانية أي "مساوي في الجوهر" أو ذو جوهر واحد للتعبير عن هذه الحقيقة بطريقة موجزة واحدة فعارض "يوسابيوس النيكوميدي" في استعمال هذه اللفظة بدعوى أنّها ليست من الكتاب وغير ملائمة وقابلة للتأويل ليقتراح أن يستبدلها بلفظ "هومسيوس" باليونانية أي "مشابه في الجوهر" والفرق بين الكلمتين هو تغيير حرف واحد ألا وهو اليوتا باليونانية (I) ، ولكن ما أعظم الفرق بين اللفظين في المعنى ، وبقدر معارضتهم بقدر ما ظهر للأغلبية أنّها هي العبارة المقصودة بالذات للتمييز بين من يؤمن بصحة لاهوت المسيح وبين من يعتقد بما هو أقل من ذلك .

صُدِّقَ على اقتراح الشماس "أثناسيوس" بأغلبية هائلة ولم تزد الأقلية عن سبعة عشر صوتاً وقوبلت هذه النتيجة بالسرور التام ، وتم وضع قانون الإيمان وبعدها تم حرمان "أريوس" نهائياً من أي منصب كهنوتي وأيضاً تحريم بدعة "سابليوس" وقد وَقَّعَ كل من بالمجمع على هذه القرارات ليعترفوا بهرطقة "أريوس" ما عدا بعضهم الذين لم يذعنوا ، ألا وهم الأسقف "يوساب النيكوميدي" والأسقف "يوساب القيصري"

و"سيكوندس" أسقف بطليموسة و "ثيونس" أسقف ماريكة ، مع التوصية بحرق جميع كتب "أريوس" وبإعدام من يتستر عليها ، فسقط "أريوس" غير ناطق بكلمة ، وقام المجمع بإرسال رسائل إلى كنائس أفريقية ، فتح المعلم المخطوطة قارئاً نص الرسالة :

- قبل كل شيء وقع البحث أمام الملك "قسطنطين" الكلي التقوى في إثم "أريوس" ورفقائه وعدم تقواهم وحتم بصوت الجميع أن تعليمه العديم التقوى ليكن (أنائما) وهكذا أيضاً فلتكن أقواله وعباراته التجديفية التي استعملها لأنه قال مجدفاً أن ابن الله من القدم وأنه وجد زمان لم يوجد فيه ، وقال أن ابن الله من تلقاء إرادته قادر على الفضيلة والرذيلة ، وقال أنه مخلوق وعمل ، فكل هذا حرمة والمجمع المقدس لا يطيق استماع هذا التعليم العديم التقوى أو الأخرى هذه السفاهة وهذه الأقوال التجديفية ، وقد سمعتم أو تسمعون ماذا جرى في حقه لئلا نظهر نحن أننا تعدينا على إنسان أخذ استحقاق شره ولكن شره غلب بهذا المقدار حتى أدخل معه في الهلاك "ثيونس" المرمريكي و "سيكوندس" من عكا لأنهما حُكِم عليهما كما حُكِم عليه ، وتم توقيع الجميع وأيضاً وَقَعَ الإمبراطور وختم بخاتم الإمبراطورية الرومانية .

فأمسك الشبان بالخطاب ذلك ليروا إمضاء الملك وختمه ليتحسسوا مكانه فسرت قشعريرة بأجسادهم متخيلين شكل

الإمبراطور وهو يوقع تلك المخطوطة ويختتمها ، ليأخذ المعلم المخطوطة مغلقًا إياها واضعها جانبًا ليسأل "ابن روفئوس" قائلاً :

- وهل انتهى المجمع على ذلك ؟
- ظهرت ابتسامة هادئة على وجه المعلم قائلاً :
- المجمع استمر ثلاثة أشهر منعقدًا حتى انتهى في الخامس والعشرين من أغسطس بعد أن نُظِرَ في عشرين قضية أخرى ما بين عقائدية وطقسية كمثال أنَّ يوم القيامة يحدده بطريرك الإسكندرية لأن علوم الفلك بالثغر السكندري قوية ، وأشياء أخرى تتعلق بإدارة الكنيسة ورجالها ، وانتهى المجمع بوليمة ضخمة أعدها الإمبراطور "قسطنطين" ليأكل الجميع وعلى رأسهم هو شخصيًا ليشعر الجميع بأنهم إخوة وأنه لا فضل من أحد على أحد ، موزعًا هدايا فخمة ليعود الجميع من حيث أتوا ولكن بقي هناك عداء بائت وثأر دفين بين "أريوس" وأتباعه جميعهم وشخص واحد اعتبروه عدوهم اللدود ألا وهو الشماس "أثناسيوس" .



(٥)



- "أثناسيوس" قد تخطى حدوده معنا يا "سيزار" وأختك هي ابنة عمي وأنا لا أسمح بما يحدث .

قال "مركيان" كلامه هذا موجهًا إياه إلى "سيزار فابيان" أخي "مارثا" بينما هما جالسين أمام شاطئ البحر السكندري ينظران إلى زوارق الصيد الراسية داخل عمق البحر عليها الصيادون يصطادون السمك بالشباك في منتصف النهار ، ومن ثم نقل "سيزار" بصره إلى ابن عمه المقارب له في السن قائلاً:

- لقد تتبععت صديقهم الثالث ، يبدو أنه من هواة الذهاب إلى معبد "سيرابيس" بشرق المدينة والاختلاط براهبته العاهرات .

ظهرت على وجه "مركيان" ابتسامة خبيثة قائلاً بدهاء:

- إذن لم الانتظار يا "سيزار" ؟ الأمور قد اتضحت الآن ولا داعي للانتظار.

تمعن "سيزار" في وجه ابن عمه الذي يشع شراً ناقلاً بصره إلى رمال الشاطئ ، وظل يكتب على الرمال بيده بعض الحروف اليونانية التي تدعو إلى الصبر ، فسأله "مركيان"

عن جدوى الانتظار فهم قد أحكموا قبضتهم على الثلاثة
أصدقاء وعرفوا عنهم كل شيء فقال "سيزار" مفكرًا :

- يكفي أننا قد طرحناهم ضربًا لعلمهم يهتدون إلى
صوابهم ويبتعدون عنا ، وبالأخص "أثناسيوس
كوزموس" عن أختي .

- إنني أرى أنّ الضرب ليس هو الحل الوحيد .

- إنني لم أقل أنّه الحل الوحيد ، فما زال في جعبة
الحاوي العديد من الألعاب التي لم يفصح عنها بعد .

- إنّ علاقة "أثناسيوس روفوس" بمحبوبته اليهودية
التي أبوها من كبار أعيان اليهود بالإسكندرية لكفيل
بأن يأتي عليهم بالخراب إذا انكشف سر تلك العلاقة .

- وعلاقة "أنطونيوس غالوس" بالعاهرة الوثنية
سيضعه في مأزق مع عائلته كلها بدءًا من أبيه
المتزمت إلى كنيسته المتشددة .

- إذن لِمَ الانتظار يا أخي ؟!

أخذ "سيزار" نفسًا عميقًا مخرجًا إياه على دفعة واحدة قائلاً
في هدوء خبيث ، وقد انغلق حاجباه :

- إنّ "أثناسيوس كوزموس" يتيم الأب ، والذي يرعاه

هنا في الإسكندرية هو العم "روفوس" والد
"أثناسيوس" ، وهذا الشخص له ثقله وسط معشر

المسيحيين حيث علاقاته الوطيدة بالوالي والبلاط

الملكي لما يتمتع به من ثراء وتجارة واسعة في صيد

الأسمك ، ويجب أن يكون اللعب معه بحذر .

- ابتسم "مركيان" فاهماً مقصد ابن عمه قائلاً :
- أنت تريد أن تكون الضربة موجعة له ولابنه ولصديق ابنه .. ما الذي يدور بعقلك يا ابن عمي العظيم ؟
- تطلع "سيزار" إلى البحر الواسع القابع أمامه وأواجه المتلاحقة الواحدة وراء الأخرى قائلاً :
- إنني أريد يوم أن تضرب ضربتنا أن تسمع صداها الإسكندرية كلها بشعبها مثلما تسمع صوت البحر الهائج ، يجب أن يدفع "أثناسيوس كوزموس" الثمن غالباً لأنه فكر يوماً ما أن يفكر في أختي ابنة المعلم الأريوسي "فابيان" الشهير ، إنَّ العداء الذي بيننا وبينهم عميق والكراهية شديدة ، لذا يجب أن تكون ضربتنا لهم موجعة وفي مقتل .
- ظهرت البلاهة على وجه "مركيان" قائلاً :
- أنا لا أفهم شيئاً يا "سيزار" وأنت تعلم علم يقين أنني أحب أختك حباً جمّاً وأريدها لنفسى زوجة ، ولن أتسامح أو أتساهل مع من يأخذ منى هذا الحق المشروع لي .
- ربت "سيزار" على ظهر "مركيان" مطمئناً إياه قائلاً :
- أعلم جيداً وأبارك تلك الخطوة ، ولن أسمح لأحد بأن يأخذ أختي منك يا ابن العم العزيز لكنى أريد أن أذل "أثناسيوس" واضعاً وجهه في رمال هذا الشاطئ ، فأنا ما زلت لم أنسَ ما فعله بي .

صمت "سيزار" عن الحديث وعيناه قد شعت غضباً وحقداً ظهر جلياً على وجهه الخمري ليلتهب متحولاً إلى اللون الأحمر القاتم ، مشاهدًا موج البحر وهو يتخبط على الصخور متذكرًا ما حدث منذ بضعة سنوات في مجمع الفلاسفة السكندري الذي يجتمع فيه الشباب من كل حذب وصوب للتناقش في جميع أمور الدنيا التي من حولهم ، ولا يشترط هذا المجلس بملة أو طائفة أو دين بل هو مجتمع راقٍ متحضر مفتوح للجميع يهود ووثنيين ومسيحيين وأريوسيين ، وهناك وقع المحذور عندما فكر "سيزار" أن يواجه "أثناسيوس" في مناقشة جدلية بيزنطية أمام الجميع عن تاريخ الأريوسيين وبدأ يومها يدافع باستماتة عن العقيدة الأريوسية التي تشربها من أبيه المعلم والمدافع الصنديد عن معلمه وأستاذه "أريوس" ، وما أن انتهى من حديثه حتى خرج الثلاثة أصدقاء على رأسهم "أثناسيوس كوزموس" بتمثيل مسرحية هزلية يشرحون فيها موت "أريوس" حيث خرجت أحشاؤه منه عندما اختلى بنفسه وهو في "القسطنطينية" في طريقه إلى الكنيسة لتسلم مقاليد الأسقفية ليهاجمه الألم الشديد بمعدته فترك الجمع متجهًا إلى موضع قفر معتزلًا الجميع ظناً منه أنه سيلبي نداء الطبيعة ، حتى وجدوه بعد ذلك وأحشاؤه كلها خارجة منه على الأرض دفعة واحدة وهو قد فارق الحياة بجانبها ، وما أن انتهى الثلاثة أصدقاء من تمثيلهم الهزلي الذي لم يقصدوا منه سوى السخرية من شخص "أريوس" وانتقام الله منه بتلك الطريقة إلى أن ضحك جميع

الحاضرين بالمجمع من السخرية والطريقة التهامية اللاذعة التي أدى بها الأصدقاء تمثيليتهم البسيطة ، وما زاد الأمور اشتعالاً يومها هم الوثنيون الذين رأوا علامات التجهم والغيط الشديدة على وجوه الأريوسيين الحاضرين فأرادوا سكب الزيت على النار لتصل شعلة اللهب إلى عنان السماء ، فهم يعلمون مدى الحقد والكراهية الذي يكنه كل طرف للآخر ، وعلى دراية بالتاريخ الأسود الذي بينهم لذا طالبوا في براءة شديدة من الأصدقاء الثلاثة أن يعيدوا عليهم تمثيل مسرحيتهم مرة أخرى ففعلها الأصدقاء وتعالّت أصوات الضحك والاستهزاء بينما سرت همهمات الاستنكار والبغضاء في الجانب الأريوسي ، واشترك جانب يهودي قليل العدد في طلب رؤية التمثيلية الهزلية ، وعند هذا الحد احتد الأريوسيون ، وأولهم "سيزار" لتتقلب الجلسة إلى مشاجرة عظيمة راح ضحيتها من الجانب المسيحي أموات ومن الجانب الأريوسي أموات أيضاً ، وحدث ولا حرج عن الجرحى والمصابين ، بينما خرج الجانب الوثني والجانب اليهودي كالأبرياء براءة الذنب من دم ابن يعقوب ، ترتسم على وجوههم ملامح الوداعة والأسف والحزن على ما أصاب الشباب السكندري أبناء مدينتهم من الطرفين ، منددين وشاجبين مثل هذه الأعمال العنيفة الدموية التي لا تؤدي سوى إلى تأصيل جذور الكراهية والطائفية داخل نفوس الشعب السكندري المسالم ، وانفضت المشاجرة بعد حضور جنود الوالي وقبضهم على مثيري الشغب وتهدة الرأي العام

حتى لا تشتعل الحرب الأهلية بين المسيحيين والآريوسيين التي لا تهدأ أبداً ، وما أن اندلعت في منطقة الإسكندرية حتى اشتعل الثغر كله ، ووقتها لن يكون هناك تهاون في الثأر ورد الشرف .

صاح "مركيان" قائلاً :

- ما الذي أخذك مني يا ابن العم ؟
- قال "سيزار" شاعراً بضيق النفس ومرارة الهزيمة :
- أخذتني ذكريات ليست سعيدة بالمرة .. اسمع يا "مركيان" ، كم شاباً يمكن أن ينضم إلينا في تأديب هؤلاء الأصدقاء الحمقى ؟
- تطلع "مركيان" إلى "سيزار" شغفاً قائلاً :
- الكثير يا ابن العم ، وإن أدى الأمر لأتيت لك بجميع الشباب الآريوسي ليس من الثغر فقط بل من ربوع مصر كلها .
- جيد جداً بل لنقل ممتاز ، المهم الآن يجب أن نبعدهم عن طريق المعلم الصالح بأي شكل فهذا الرجل داهية وعلاقاته متشعبة بالبلاط الملكي ، وله علاقة صداقة وطيدة مع رئيس حرس الوالي السكندري ونحن لا نريد أن نزعج به في معركتنا .
- هل تريد أن نتخلص منه ؟

أشار "سيزار" بأصبعه بعلامة النفي قائلاً :

- المعلم الصالح ليس هدفنا في تلك المرحلة مع إنّي أتمنى بالطبع من كل قلبي أن نتخلص منه بل ومن كنيسته ومدرسته ، وعلى رأسهم بطيركهم إلا أن الوقت لم يحن بعد خاصة وإن الإمبراطور موالي للمذهب السكندري .
- إذن ماذا تريد يا ابن العم ؟ أنا لم أستطع أن أفهمك .
- ستفهم بالتأكيد يا "مركيان" ، ستفهم .



- أفهمت شيئاً بعد من كل ما يقوله المعلم ؟
- حك "ابن روفئوس" مؤخرة رأسه ظاهراً على وجهه علامات عدم الفهم قائلاً "لابن كوزموس" وهم واقفين بأحد أطراف المدرسة :
- أحاول يا صديقي لكن الجرعة الدراسية الخاصة التي نتلقاها منه دسمة ويجب مراجعتها على المهل .
- أخرج "ابن كوزموس" نفساً عميقاً يدل على ملله من صديقه قائلاً :
- أفهم يا صديقي أن المعلم قد وضع يده على الجرح الغائر لديّ .
- ظهر الاندهاش على وجه "ابن روفئوس" قائلاً :
- جرح غائر ، أين يا صديقي ؟ هل جرحت يوم أن تلقينا الضرب المبرح ؟

- طرق "ابن كوزموس" يده على جبهته قائلاً :
- إنَّه يقصد علاقتي "بمارثا فابيان" ، أفهمت بالله عليك؟
- ارتد "ابن روفئوس" خطوتان إلى الوراء ولون وجهه قد تحول إلى الاصفرار الشاحب قائلاً بخوف :
- أَعَلِمَ شيئاً المعلم الصالح ؟
- أوماً "ابن كوزموس" برأسه بعلامة النفي ، مما جعل الآخر يكمل حديثه قائلاً :
- إذن مِمَّ الخوف ؟
- أعتقد أنَّه قد شعر بشيء فحديثه عن "أريوس" والآريوسيين يضعني أنا أمام الحقيقة الثابتة ألا وهي عدم جواز حبي لمارثا .
- انفتحت أعين "ابن روفئوس" على الحقيقة المؤلمة التي يمر بها صديقه قائلاً :
- إذا كان الحال هكذا فما بالك بحالتي أنا ؟!
- إنَّ من عشقتها يهودية الجنس .
- توقف "ابن روفئوس" عن الحديث عندما رأى أحد الأساتذة مقبلاً عليه ليكمل بعد أن مر قائلاً :
- أظن أنَّ المكان هنا غير ملائم بالمرّة للحديث في تلك المسائل العاطفية .
- وافق "ابن كوزموس" على ما يقوله صديقه ليؤجلا أحاديثهما تلك حتى انتهى اليوم الدراسي ليعودوا إلى دار "ابن روفئوس" واجدين الدار مزدحماً والسيد "روفئوس" جالساً بهيبته المعهودة وسط معشر الصيادين العاملين لديه ، وهو

رجل خمسيني العمر ، قصير القامة أصلع ، خمري اللون ذو جسد ممتلئ نوعاً ما ، يده قويتان خشتان كعادة أهل البحر ، صوته جهوري قوي .

وقف الصديقان على باب الدار ، لا يعرفان إلى أين يذهبان من الازدحام الشديد الذي احتشد به الدار . حاول "ابن روفوس" أن ينادي على أبيه ليستعلم عن الأمر لكن ذهب صوته مع أدراج رياح الإسكندرية لعلو صوت الصيادين المتجادلين فيما بينهم وتكالبهم على أبيه الذي توسط الدائرة مستمعاً إلى ما يقوله الجميع حتى خرج صياد منهم قوي البنيان قائلاً بصوت غليظ أجش :

- أيها السيد "روفيوس" إننا إن لم نتخذ موقفاً من هؤلاء الهراطقة أعداء المسيح فوراً سيعاقبنا الله على ذلك أشد العقاب .

رد آخر عليه من الناحية الأخرى قائلاً :

- إنهم يعاملوننا وكأنّ بحر الإسكندرية أصبح ملكاً لهم أولاد الأفاعي هؤلاء .

صاحت امرأة جالسة بجانب النافذة قائلة :

- أنت كبيرنا يا سيد "روفيوس" ويجب أن تجد لنا حلاً نحن معشر الصيادين وإلا وحق العذراء مريم سوف نشعل لهم الشاطئ جحيماً ونجعل البحر الواسع مقبرة لهم .

أشاد جميع الحاضرين بمقولة المرأة الثائرة حتى أشار "روفيوس" إلى الجميع باللجوء إلى الهدوء حتى يستطيع أن

يتكلم ، فامتثل الجميع لأمره لتصمت الأفواه الغاضبة ، ويقول هو :

- أيها الأخوة والأخوات .. يا معشر الصيادين ، أنا أعلم جيداً المعاناة التي نمر بها جميعاً ، وإنني أؤكد لكم أننا لن نتهاون مع أي تعدٍ من جانب الآريوسيين والوثنيين علينا وما حدث لن يحدث مرة أخرى .

نظر الصديقان إلى بعضهم البعض وهم لا يدرون ماذا حدث فمال "ابن روفئوس" على أحد الصيادين الواقفين سائلاً عن ماهية ما حدث ، فصرح له الصياد بأن الصيادين الآريوسيين والوثنيين يمارسون سياسة السماجة معهم رافضين إشراكهم في الصيد ، معتبرين أن بحر الإسكندرية حكراً عليهم فقط :

- انتهى الأمر اليوم بمشاجرة عظيمة على شاطئ البحر أغرقنا فيها مركب لصياد آريوسي ، فاجتمع الآريوسيون على نفس واحدة يريدون إحراق مراكبنا كلها .

ابتلع "ابن كوزموس" ريقه حينما سمع هذا الحديث ، فبيدو أن الأمور لن تهدأ بين معشر السكندريين .

دخل صياد بمخطوط قادماً من بيت كبير الصيادين الآريوسي حيث سلمه إلى السيد "روفيوس" الذي فتح المخطوط قارئاً في صمت شديد ، وعلامات التجهم واضحة على وجوه الجميع منتظرين أن يعرفوا فحوى الخطاب الذي ما أن انتهى من قراءته حتى قرب الخطاب من نار الشعلة

التي بالدار ليحترق الخطاب ملقياً به من نافذة داره وسط هتاف الجميع ذاكراً لهم ما وجده في الخطاب :

- إنَّ كبير الصيادين الآريوسي يريد أنْ ندفع ثمن ما أفسدناه ، ألا وهو ثمن المركب التي خربت ذلك الصباح بفعل التعدي الذي حدث من جانب المسيحيين على الصياد الآريوسي الأعزل ، ويطالب أيضاً بتقسيم أيام الأسبوع للصيد ما بيننا نحن والوثنيين واليهود والآريوسيين ، إنَّهم يريدون منا التخلي عن بحرنا .

صاح جميع الصيادين الذين داخل الدار وخارجه بقوة شديدة منادين بالرد الحاسم على مثل هذا الخطاب العدواني ، لتصبح السيدة الثائرة قائلة :

- البيت بيت أبينا والأغراب قادمون لطرдна ، هل سنسكت أيها الرجال ؟!

صاح الرجال نافين مؤكدين على أنْ الرد سيكون فعالاً وقوياً وبمثابة صفة على وجه الآريوسيين جميعاً وليس على طائفة الصيادين منهم فقط ، فتكلم السيد "روفيوس" مخاطباً الجمع قائلاً :

- يظنون أنْ الإسكندرية لهم هم والوثنيين الأنجاس واليهود الأدناس ، لقد اعتدوا علينا هؤلاء الأوغاد ويجب الرد وبقوة الآن .

هتف معشر الصيادين بحياة السيد "روفيوس" ، وقطع هتاف الجميع وقوف جواد راكبه جندي روماني ، قوي البنية حاد القسما ، يرتدي زياً عسكرياً مهيباً يتضح منه أنه شخص

ذو مكانة مرموقة داخل الجيش الروماني ، ساد سكون رهيب استدعى السيد "روفيوس" أن ينهض ليرى من القادم ، فظهرت ملامح البشاشة والترحاب على وجهه عندما رأى صديقه مساعد رئيس الجند بالإسكندرية ، ذلك "القائد الرومي" ذو الإيمان المسيحي القويم ليتقدم منه "روفيوس" ، فترجل القائد من على جواده مصافحاً الآخر مما أدخل الغبطة والسرور في نفوس الصيادين الثائرين ، فها هي السلطة الرومانية الحاكمة أو جزء منها معهم قلباً وقالباً وهذا ما أكده القائد الذي دخل بصحبة "روفيوس" إلى داره وسط الجمع المحتشد ، وقال بصوت أجش غليظ :

- أيها الأخوة في الإيمان المسيحي القويم ، إنني أعلم ما تمرون به والمضايقات التي تتعرضون لها ، وأنا من مكاني هذا أعلن تأييدي لكم ، وأن كل ما تطلبوه هو حق شرعي لكم لأن الإسكندرية لنا وستظل لنا ، وإذا لم يعجبهم هم فليرحلوا ويتركوا لنا مدينتنا الغالية التي ارتوت أرضها بدمائنا .. الإسكندرية لنا !

التهبت مشاعر الحاضرين ليصيحوا شاهرين مسيحتهم ومن ثم مجّدوا القائد والسيد "روفيوس" وعلى أثر ذلك دخل اثنان من الجنود المرافقين محمّلين بالأسلحة واضعين إياها على المنضدة الخشبية أمام الجمع مما جعل "روفيوس" تنتفخ أوداجه وتظهر على ملامح وجهه فرحة النصر القريب .

انفض الجمع الغفير موزعين الأسلحة عليهم ما بين خناجر وسيوف مختلفة الأطوال ، شاكرين القائد الذي وعدهم بأن الانتقام سيكون قريباً ولينتظروا الأوامر من السيد "روفيوس" وما أن خلا الدار عليهم حتى صعد السيد "روفيوس" والقائد إلى العلية مغلقين الباب عليهم متحدثين لمدة من الوقت عن أحوال البلاد والعباد وما يحدث وأنه لا بد من فعل ضربة قاصمة لتعجرف الأريوسيين وتهذيب طبقة الوثنيين واليهود الذين يظنون أنه ما زال الحكم معهم .

أيد القائد هذا الاتجاه مما جعل "روفيوس" يخرج كيساً من العملة الذهبية معطياً إياه إلى القائد الذي رفض في البداية معتبراً أن ما فعله هو ما يحتمه عليه ضميره المسيحي النابض بالإيمان ، ولكن مع إلحاح الأخير أخذ القائد الكيس الممتلئ بالعملات الذهبية وعلى وجهه ابتسامة هادئة ، مودعاً صديقه الغني واعدًا إياه بأنه في الساعة التي اتفقوا عليها لن يتدخل بجنوده لفض الاشتباك حتى يتسنى للمسيحيين السكندريين أن يقتنصوا الأريوسيين ، وإذا تدخل اليهود والوثنيون سيكون هو كفيلاً بهم مع جنوده ويمنعهم من الاحتكاك المباشر ، وعليه غادر القائد تصحبه السلامة وكل من الصديقين "أثناسيوس" ما زالوا في حيرة من أمرهم حتى شرح لهم "روفيوس" ما سيحدث .



- ما سيحدث سيهز الإسكندرية كلها وسيرجع مجد الآريوسيين المسلوب منهم ، من يستطيع أن ينسى أن الإمبراطور "قسطنطيوس" ابن الإمبراطور "قسطنطين" الكبير كان آريوسياً حتى اغتالته الأيدي الغاشمة ، والإمبراطور "فالنس" أيضاً وكثير من أفراد البلاط الملكي يعترفون بالآريوسية ، إذن يا سادة نحن شركاء في تلك الأرض ، والإسكندرية ليست حكرًا على أحد إنها مدينة الله مفتوحة للجميع وحق الآريوسيين واجب وطني .

أنهى مساعد قائد الحرس ذلك القائد الرومي الجنس حديثه هذا ليلهب مشاعر الأخوة الآريوسيين المجتمعين في دار "فابيان" ذلك الرجل الآريوسي الثري الذي صفق على أثر كلام صديقه القائد الذي جلس يحتسي كوب الخمر مشيرًا إلى جنوده المرافقين الذين دخلوا محملين بالأسلحة ليتم توزيعها على الحاضرين بالتساوي لينفض المجلس ويذهب كلٌّ في طريقه منتظرين تعليماتهم القادمة من السيد "فابيان" الذي اختلى بالقائد معطيًا إياه كيسًا ممتلئًا بالعملات الذهبية نظير تعبهم معهم ، ووقوفه بجوارهم ضد الكيان السكندري المسيحي المضاد لهم .

ركب القائد جواده محيياً "فابيان" سائراً في طريقه مع جنوده حتى مال أحدهم عليه ممتطياً جواده هو الآخر قائلاً بصوت خافت :

- إنني لا أفهم شيئاً يا سيدي ، نحن مع من في تلك القضية ؟

نظر "القائد الرومي" متمعناً في مساعدته الأبله ظاهرةً على وجهه ابتسامة خبيثة قائلاً :

- نحن مع الإمبراطور بالطبع .
- إذن الإمبراطور مع من ؟
- لا يهم الإمبراطور مع من ، المهم أن نحسن نحن تجارتنا الرائجة ألا وهي تجارة السلاح .
- ولكن بذلك سيحدث شغب .
- وما المانع ومن واجبنا القضاء على الشغب !
- ولكن نحن من أمددناهم بالسلاح .
- ومن يعلم ؟ يا مساعدتي العزيز ، إنك تتعلم الآن أسلوب الدهاء السياسي.
- ولكننا جنود يا سيدي وليس لنا في السياسة .
- ومن قال إنها سياسة ، إن الأمر برمته مساعدات في سبيل إعلاء كلمة الله .
- وكيف تعلق كلمة الله بالسيف ؟
- من ينتصر في النهاية سنكون وقتها حلفاءه ، إن الإسكندرية الآن منقسمة على نفسها بين مسيحيين

الطريق الحق الأرثوذكسيين ، وبين طائفة الآريوسيين الذين يريدون الاستيلاء على الكنيسة ، وما بين قلة يهودية لا يستهان بها لتحكمها في مقاليد التجارة ، وبقايا وثنية ما زالت باقية على العهد الوثني وهؤلاء أيضاً لديهم نفوذ داخل الثغر السكندري وخارجه ، والبلاط الملكي متخبط بين كل هؤلاء لا يعرف مع من يكون ، فهناك أيام يتجهون فيها إلى الآريوسية وأيام أخرى يعودون إلى الإيمان المستقيم ، وهكذا تدور الدوائر في الإسكندرية.

ظهرت علامات التعجب على وجه المساعد قائلاً :

- نحن مع من سيكتب له النصر .



- النصر يجب أن يكون حليفنا تلك الليلة أيها الأخوة ، ولا بد من ضربة قاضية موجعة للمسيحيين يدركون بها أنهم بلا حول ولا قوة .

نطق السيد "فابيان" بذلك موجهاً كلامه إلى النخبة الآريوسية من الشباب السكندري الذي اختارهم بدقة لينفذوا المخطط المتفق عليه مع صديقه "القائد الرومي" وعليه انتفض الشباب ممسكين بأسلحتهم من خناجر وسيوف ومشاعل نارية ليخرجوا تحت ستار الليل بعد أن خلد شعب الثغر السكندري إلى النوم العميق ، متجهين نحو شاطئ البحر وبالأخص إلى مكان رسو المراكب الصغيرة المخصصة للصيد التي يمتلكها

الصيادون المسيحيون أصحاب المذهب الأرثوذكسي ، ومن المتعارف عليه أنَّ الصياد الأرثوذكسي لا يحبذ أن يترك مركبه بجانب مركب صياد أريوسي حتى لا تحل لعنة من السماء على مركب الأريوسي فتصيب مركبه هو أيضًا ، متبعين مبدأ يوحنا الحبيب عندما فرَّ من أمام رجلٍ هرطوقي في الحمام العام خوفًا من أن ينهار الحمام عليهم فجأة فيموت الجميع مع هرطوقي أثيم فيؤخذوا بذنبه .

اقترب الشباب الأريوسي وعلى رأسهم "سيزار" وابن عمه "مركيان" واضعين الزيت داخل المراكب مشعلين إياها بالمشاعل النارية ، ولم يمضِ وقت قليل حتى اشتعل الشط السكندري بخط ناري عظيم ملتهماً جميع مراكب الصيادين المسيحيين ، وفي التوقيت نفسه أصدر السيد "روفوس" أوامره إلى بعض الشباب الثوري الأرثوذكسي الغيور على إيمانه بحرق كنيسة تابعة للأريوسيين واقعة في منتصف المدينة السكندرية وبالتحديد في شارع بطليموس ، وبالفعل توجه الشباب تحت جناح الليل أيضًا حاملين المشاعل النارية ، وفي غمض البصر اشتعلت الكنيسة الأريوسية فهاجت وماجت المدينة ليستيقظ الجميع على صيحات الانتقام الناري التي دبت يمينًا ويسارًا محاولين إنقاذ ما يمكن إنقاذه من براثن النيران ، واتجهت طائفة أخرى إلى محاولة السيطرة على الحريق حتى لا يمتد إلى منازل المدينة التي يمكن أن تشتعل فجأة بسبب قوة الهواء الزاحفة بسرعة رهيبية مزيدة تأجج النيران ، بينما وقف فريق آخر يشاهد دون أن يتحرك

أو تبدر عنه أية محاولة للمساعدة فرحًا بما يحدث ، فحريقان كبيران ينشبان في منتصف الليل أحدهما على شاطئ الثغر السكندري ملتهماً مراكب بعينها وآخر يشب في وسط المدينة ملتهماً كنيسة بعينها ، لذا من مصلحة الشعب اليهودي والوثني أن يقيم الأفراح .



(٦)



- الأفراح ستلغى لمدة شهر عقابًا لكلا الطرفين لما حدث
وتأديبًا ، للرعب الذي عاشه الشعب السكندري لمدة
ليلة كاملة ، هذا أمر ملكي يختم بخاتمي ويعلق
مخطوطًا منه بمجلس المدينة وبالأماكن العامة مثل
الأسواق والحمامات العامة لكي يراها أكبر عدد من
الشعب .

انتهى والي الإسكندرية من إملائه المخطوط الملكي على
كاتبه الذي أخذ المخطوط مقتربًا به من الوالي الذي وقَّعه ثم
ختمه بالخاتم الملكي الذي لا يفارق يده أبدًا وعلى وجهه
ملامح الغضب الثائر وبجواره يقف قائد الجند ومساعد
الرومي والجنود محيطين إياه بالقصر الملكي المقام على تبة
عالية كاشفًا الثغر السكندري كله ، وهذا القصر يعود بناؤه
إلى أيام "يوليوس قيصر" ، فخم البناء متين التشييد ما زال
يوجد به بعض ملامح الحياة الوثنية المترفة من تماثيل
رومانية لنساء عاريات ورجال عراة يمسون بالسيوف
شاهرين إياها إلى الأعالي ، وتتوسط قاعة البهو الملكي
نافورة جميلة يتوسطها تمثال الإلهة "أفروديت" إلهة الحب

والجمال ، والمياه تخرج من صدرها البارز إلى الأمام ، ولكي يواكب القصر العصر المسيحي منذ أن اُعْتُبِرَتْ المسيحية ديناً رسمياً للبلاد قام الولاة بالتتابع بوضع بعض الرموز المسيحية مثل الصليبان الذهبية وبعض التماثيل المنحوتة على شكل المسيح أو العذراء وبعض الأيقونات المرسومة التي تمثل قصص من الكتاب المقدس وكل ذلك بجانب بعضه ، الرموز الوثنية بجانب الرموز المسيحية والحياة تسير متناغمة بينما جلس أمام الوالي كبار رجال الأريوسيين الأثرياء يقابلهم كبار رجال الأرثوذكس الأثرياء وقلة من رجال الدين من كلا الطرفين حتى صاح "فابيان" من الجانب الأريوسي قائلاً :

- وحق كنيستنا التي احترقت حتى آخر قطعة حجر ، أين يا والي الإسكندرية ؟
- قاطععه "روفيوس" بحدة شديدة قائلاً :
- وحق المراكب التي تعدت الألف مركب أين أيها القتلة سافكي الدماء ؟

هاج المجلس على أثر تلك الكلمات وتعالّت الصيحات وتحركت الأيادي ملوحة في الهواء غير عابئين بحضور الوالي وقادته وجنوده . حاول الوالي تهدئة الجميع ليصبح صارخاً أمراً رئيس جنده بأن من يتكلم بدون إذن يحبس فوراً ولا شفاعاة له ، فأعطى قائد الجند أوامره للجنود بإحاطة رجال المجلس شاهرين رماحهم فنظر الجميع من حولهم في

قلق ورعب نوعاً ما من جراء ذلك التصرف الغريب الذي صدر من الوالي ليتكلم الأخير بحزم وشدة قائلاً :

- إنَّ ما يحدث الآن هو تصرف أطفال وليس رجال بالغين ، إنَّ ما تفعلونه سوف يدمر الثغر السكندري .
رفع "روفيوس" يده طالباً الإذن بالحديث فأعطاه له رئيس الجند ليقول في عصبية ملحوظة :

- هؤلاء الآريوسيون يجب طردهم من المدينة ، هم مصدر القلاقل والشغب ، ومن يدرى يا حضرة الوالي فيمكن أن يكونوا هم من حرقوا كنيستهم لكي يلصقوا بنا هذه التهمة .

قاطعه "فابيان" قائلاً في غضب :

- معشر الأرثوذكس كلهم كذبه ومنافقون ومخادعون ، نحن من سنحرق كنيستنا يا معشر الخنازير؟! إنَّ لدي شهوداً بأنهم رأوا ابنك من ضمن الذين هجموا على الكنيسة مشعلين إياها .

انتفض المجلس مجدداً عن بكرة أبيه والتحمت الأيدي وتدخل الجند لتفرقته والوالي عاجز لا حول له ولا قوة وسط حرسه ففي النهاية الجالسون أمامه أعيان الإسكندرية ومن صفوة المدينة والتعامل معهم بحذر ، وما أغاظ "روفيوس" ذكر سيرة ابنه "أثناسيوس" .

- أثناسيوس روفوريوس البطل السكندري .

هتف "أثناسيوس كوزموس" و "أنطونيوس غالوس" بحياة صديقهم الشجاع الذي اشترك في حرق كنيسة الأريوسيين ، والمعلم الصالح ينظر إليهم وهم جالسين معه داخل داره وأمامه مجموعة من المخطوطات المنسوخة التي يراجعها المعلم بنفسه حيث توقف عن المطالعة تحت ضوء المشاعل والشموع ملتفتًا إليهم ناظرًا وعلى ملامح وجهه الحزن واليأس حتى لاحظ ذلك الشباب ليقول "ابن كوزموس" في هدوء :

- ما الذي يحزنك يا معلم الآن ؟ إننا قد أعطينا الأريوسيين درسًا موجعًا .

أخذ المعلم نفسًا عميقًا طارداً إياه بضيق على دفعة واحدة قائلاً :

- وماذا بعد ؟

نظر إليه الثلاثة شباب لا يعلمون ماذا يقولون أمام منطقته هذا لينتفض "ابن روفوريوس" قائلاً بحدة :

- يجب أن ينتهي الأريوسيون من الإسكندرية بل من العالم كله .

أجاب عليه المعلم قائلاً :

- وهل لا يفكر الأريوسيون مثلك الآن ؟ إن ما تسعون إليه لن يؤدي إلا إلى حرب أهلية بين معشر

السكندريين وما يبدأ بالشر والخراب سينتهي بالدمار
الشامل على الجميع ، ولا أحد ينسى المصارع الأبكى.

لمعت أعين الثلاثة شباب من الإثارة واشتعلت أجسادهم
بالغيرة المقدسة عند ذكر سيرة المصارع الأبكى ليقول
"أنطونيوس" :

- إنني ما أزال أسمع صوته عندما اقترب من برية
الإسكندرية الداخلية .

ظهر على وجه المعلم ابتسامة هادئة من منطق "أنطونيوس"
البسيط لأنه لا يوجد أحد في الإسكندرية من بدايتها إلى
نهايتها يستطيع أن يجزم إن كان المصارع الأبكى ما زال
على قيد الحياة أم رقد على رجاء القيامة وأتباعه الذين
خرجوا من الإسكندرية منذ وقتٍ بعيدٍ سائرين على دربه لم
يعودوا أو يراهم أحد حتى الآن ، إنها قصة طويلة ليهتف
"ابن روفئوس" قائلاً :

- إنَّ أبي ما زال على علاقة بأتباع المصارع وهم على
أهبة الاستعداد لدخول الإسكندرية والدفاع عن
المسيحية الأرثوذكسية باذلين كل نقطة دماء ، لن يعود
عصر الاستشهاد من جديد ، الإسكندرية بل العالم كله
أصبح لنا .

وضع المعلم الصالح يده على لحيته مربباً عليها عائداً بذاكرته
إلى الوراء قائلاً بصوت خافت :

- هذا ما قلته أنا عندما كنت في سنكم عندما تولى البابا أثناسيوس سدة الكرسي البطريركي بالإسكندرية خلفاً للبابا ألكسندروس وابتدأ عهد الكوارث الآريوسية التي بدأت من وقتها ولم تنته حتى الآن .



صمت الثلاثة شباب وهم جالسون أمام المعلم الصالح الذي يظهر وجهه على ضوء الشموع كقرص الشمس الذاهب إلى غروبه والأخير يسرد عليهم تلك الأيام عائدًا إلى عام ثلاثمائة وستة وعشرون في عهد الإمبراطور "قسطنطين الكبير" حيث رُسم البابا "أثناسيوس" بطريركًا وعمره لم يكن يتجاوز وقتها الثلاثين عامًا ، وقد حاول الآريوسيون وقتها عرقلة تلك الرسامة بكل الطرق حتى إنهم حرقوا كنائس وقتلوا أناسًا أبرياء وفتكوا ببيوت العذارى لخلق نوع من الفوضى مظهرين للإمبراطور سخطهم وعدم رغبتهم عن "أثناسيوس".

وكان على رأس تلك الحملة الشرسة الشعواء "أريوس" ذات نفسه الطامع في الكرسي والأسقف "أوسابيوس النيكوميدي" حيث قام كل منهما بتوزيع أموال على أتباعهم لشراء الأسلحة وإشعال الفتنة بين أهل الإسكندرية البسطاء ، ولكن لم تنجح محاولتهم وذهبت كلها مع أدراج الرياح وتمت رسامة "أثناسيوس" على الإسكندرية ومصر كلها ، ليعود الآريوسيون مشككين في صحة رسامته أمام الإمبراطور وأنه

غير شرعي ، ليظهر هنا الأب "باخوميوس" أب الشركة واقفاً بجوار البابا وأيضاً القديس "أنطونيوس" الكبير أب الرهبان ودحضوا كل تلك المناوشات ، إلى أن وجد "أوسابيوس النيكوميدي" أنه لا سبيل للإنهاء على "أثناسيوس" سوى الوصول إلى أخت الملك "قسطنطين" التي كان أب اعترافها آريوسي وبالفعل نجح في الوصول إليها بالبلاط الملكي مقنعاً إياها أن "آريوس" المسكين برئ من جميع تلك التهم التي وُجّهت إليه في مجمع "نيقية" وأنّ حقد السكندريين عليه لانتشار تعاليمه وعلو شأنه هو ما جعلهم يقفون أمامه خوفاً على الكراسي الخاصة بهم ولخوفهم الشديد منه استطاعوا أن يتكثروا على الكاهن الفقير إلى الله "آريوس" مطيحين به مجردين إياه بلا شفقة أو رحمة من رتبته الكهنوتية ، ملقين به على قارعة الطريق لتنهش الكلاب الضالة في لحمه ، ليمارس "أوسابيوس" الأسقف المخادع حيلة الكذب والرياء مقنعاً أخت الملك أن "آريوس" لم ينتهك حرمة الكنيسة قط أو ينشر بدع أو هرطقات كما ادعوا عليه ليعطي السيدة مخطوطاً بخط "آريوس" وموقع من قبله به اعتراف صريح وضمني بأنه يقبل قانون الإيمان المقدس الذي اعترف به مجمع نيقية .

تعاطفت السيدة الفاضلة المغرر بها مع حالة "آريوس" وأتباعه واجدة أنه لا يوجد أي ذنب عليهم بالمرة بل هم قوم مخلصون للمسيحية تم فهم معتقداتهم خطأ وغدر بهم في مجمع نيقية ، وعليه قررت التدخل بشخصها الملكي في هذا

الصراع مطالبة الإمبراطور "قسطنطين" أخيها أن يعيد "أريوس" ومن معه الذين حرموا إلى رتبتهم وكرامتهم الأولى ، ورضخ الإمبراطور في النهاية إلى مطالب أخته ليعود إلى الساحة الدينية مرة أخرى كل من "أريوس" و "أوسابيوس" و "تيوغنيس" أسقف نيقية يعضدهم تلك المرة القوى السياسية العظمى ألا وهو الإمبراطور المؤمن المحب لله "قسطنطين" الكبير حامي المسيحية في العالم كله وقتها وتلك إرادة الله أن يعودوا وبقوة عظيمة عاقدين مجمعاً كبيراً في "أنطاكية" عام ثلاثمائة وتسعة وعشرون ليحكموا فيه بعزل بعض الأساقفة الأرثوذكس بحجة أنهم من أتباع "سابيلوس" ، ووافق الملك على هذه القرارات ليعود "أريوس" مرة أخرى إلى الثغر السكندري مدججاً بسلاح التوصية الملكية المختوم بخاتم الإمبراطور "قسطنطين" شخصياً وصورة أخرى من إيمان "أريوس" الملتوي واضعاً إياهم أمام البابا "أثناسيوس" الذي رفض الاعتراف بتلك القرارات والتوصيات ليدور بينه وبين "أريوس" حوارٌ ساخن جداً حيث قال "أريوس" مهدداً :

- إنَّك بهذا أيها المتعجرف الأرثوذكسي تدفع بأوامر الإمبراطور إلى عرض الحائط .

صاح البطريرك السكندري بانفعال قائلاً :

- خيرٌ لي أن أدفع بأوامر الملك عرض الحائط عوضاً

عن أن يدفعني الله إلى الجحيم .

- يبدو أنَّك ستظل تعاند حتى تخسر كل شيء من حولك .

- ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه .
- ستخسر الجميع يا "أثناسيوس" .

صارت مهمة شرسة من جميع الكهنة والأساقفة الذين يلتفون حول البابا ليرى "أريوس" أنّ وجوده أصبح غير مرغوب فيه فألقى بنظراته النارية عليهم قائلاً :

- غداً هذا الكرسي سيكون لى يا أثناسيوس .

طرد البابا "أثناسيوس" "أريوس" من مجلسه بل ومن الإسكندرية كلها رافضاً تنفيذ قرار الإمبراطور مرسلاً إياه رسالة تأنيب وتعنيف قائلاً فيها :

- إنّه لا يمكن أن يقبل في كنيسة رؤوس الهرطقة المحرومين من المجمع النيقاوي وأنّ الكنيسة عموماً لا تقبل في شركتها أناساً ينكرون ألوهية يسوع المسيح.

ولم يكتف الأريوسيون بهذا بل بدأوا في إشعال حرب شوارع بينهم وبين السكندريين الأرثوذكسيين وانقلب الشعب على ذاته ما بين أريوسي وأرثوذكسي ، ويحرم الجميع بعضهم ويلفق "أريوس" وأتباعه تهم جديدة إلى "أثناسيوس" للإيقاع بينه وبين الإمبراطور "قسطنطين" حيث ادعوا أنّه يريد فرض ضريبة على مصر لعمل خلل بيضاء من الكتان إلى رجال الإكليروس بدون علم السلطة الحاكمة وعلى رأسها الإمبراطور ، والادعاء الثاني أنّ البابا يناصر عدو الإمبراطور الأول ألا وهو "فيلومنوس" مرسلاً له مبلغاً

ضخما من أموال الكنيسة لمناصرته وتكوين جيش والهجوم على مصر والاستقلال بحكمها ، والادعاء الثالث أنَّ البابا قام بكسر الكأس المقدس المكرس وقرر هدم كنيسة فاشتعل غضب "أثناسيوس" مدافعا عن نفسه ومعه الشعب السكندري المؤمن كله الذين هاجوا وماجوا وقاوموا بافتعال المظاهرات الضخمة والمسيرات الثائرة وتكسير تماثيل الإمبراطور متجهين كل يوم إلى قصر الوالي السكندري وقتها مطالبين بتبرئة بطريركهم من تلك التهم الشنيعة المنسوبة ظلماً وبهتاناً إليه لينقل الوالي وجميع رجال السلطة تلك الصورة والمطالب الثورية إلى الإمبراطور خائفين أنَّ يحدث هياج شعبي يؤدي إلى تعدي الأرثوذكسيين على الآريوسيين وإبادتهم حيث كثرت تلك الفترة الكثير من حوادث الاعتداء والسرقات ما بين كلا الطرفين الذين حللوا أموال ونساء بعضهم البعض ليجث الملك سريعاً في تلك التهم ويعترف ببراءة "أثناسيوس" قائلاً إلى أعوانه:

- إنِّي قبلت بإكرام "أثناسيوس" أسقفكم كقبولي رجلا متنورا من الله ومما سمعته منه ورأيت فيه منقذا ، ظهر لي أنَّه رجل جليل القدر وأنَّ كنيستكم في احتياج إليه لأنَّه عالي الهمة وذو عناية بحفظ الحق والديانة ومحِب للسلام وقابل للصواب .

وعلى أثر إعلان براءة "أثناسيوس" من جميع ما نسب إليه من تهم قام بتعليق مكاتيب بالأماكن العمومية بالإسكندرية تدل على براءته لكي يهدئ من ثورة عموم الشعب الغاضب ، ولم

يمر وقت حتى قام الملك بعمل مجمع في "صُور" عام ثلاثمائة وأربعة وثلاثون بسبب أنَّ "أريوس" وأتباعه أقنعوا الملك بتهم جديدة فعلها "أثناسيوس" بهم ، وللأسف انصاع الملك عن طريق أخته إلى عقد ذلك المجمع ليحضر أعضاؤه الذين كان أغلبهم آريوسيين أساقفة من الشرق بينما ذهب "أثناسيوس" ومعه ثمانية وأربعون أسقفًا وتقدم المجمع "يوسابيوس" الآريوسي أسقف قيصرية وأناب عن الملك أحد الموظفين الكبار بالديوان الملكي المدعو "ديونيسيوس" ولأول مرة يتحد الآريوسيون والميلاتيين الذين يتبعون حزب "ميليتس" المحروم الهرطوقي وبتأحادهم هذا تكالبت التهم الجديدة على رأس "أثناسيوس" .

لم يتحمل البعض أن يكون "يوسابيوس القيصري" هو المقدم للمجمع وقد قال "بوتامون" أسقف هراقليا موجهاً حديثه إلى "يوسابيوس" :

- من يتحمل أن تكون أنت جالسًا على كرسي التقدم و "أثناسيوس" يقف كرجل مذنب ، أما تذكر إنني أُلقيت وإياك في السجن في زمن اضطهاد الوثنيين ومن أجل الإيمان عدمت عيني وأنت خرجت سالمًا من السجن ، فكيف أمكنك الخروج سالماً ؟!

نظر وقتها "يوسابيوس القيصري" نظرات باردة ثلجية إلى "بوتامون" الذي اتبع مقولته كل من "مكسيموس" أسقف

أورشليم والأسقف "بفنوتئوس" ، ووجهت التهم إلى شخص البابا "أثناسيوس" .

كانت التهمة الأولى : اقتراف الإثم مع بتول راهبة ، ليأتوا بامرأة زانية مدخلين بها إلى بهو المجمع المنعقد بالكنيسة الكبرى "بصور" حيث جلس الجميع وعلى رأسهم مندوب الملك ليلتهب المجلس أمام تلك المرأة الغانية التي دخلت باكية داعية على "أثناسيوس" الفاجر الماجن بالهلاك من أجل أنه أفقدها بكوريبتها وهي التي نذرت نفسها إلى الله ، فهم "أثناسيوس" بالنهوض للدفاع عن نفسه فأجلسه تلميذه "تيموثاوس" لينتفض هو قائلاً:

- أنا "أثناسيوس" يا امرأة ، وقد اعترفت بخطيتي ،
تعالني إلي .

ركضت الفتاة بكل حماقة وسذاجة ناحيته قائلة :

- "أثناسيوس" أيها الوحش الغدار .

وهنا بعد الصمت الرهيب انفجر الجميع ضاحكين من جراء ما حدث ، فقد انكشفت الحيلة وتبين أن تلك الزانية ما إلا كذبة كبيرة ، مما صب الخجل أنهاراً من العرق من وجوه الأريوسيين والمليتيين أصحاب التهمة ليأمر مندوب الإمبراطور بسجن تلك المرأة الغانية للتحري والتقصي عنها والنظر في أمرها ، ولم تكد أول تهمة تسقط من تلقاء نفسها متهاوية حتى وجدت الأخرى سريعاً كسرة البرق ليخرج أحد الأريوسيين ملفياً تهمة العمل بالسحر من قِبَل البابا

"أثناسيوس" واستخدامه الأسقف "أرسانيوس" حيث قطع يده عنوة وغصب للاستفادة بها في أعمال سحرية ولم يكن صاحب هذا الاتهام سوى شخص يدعى "يوحنا الأريوسي" الذي أقسم بأبناؤه أنه رأى هذا الفعل المشين ولم يكن أمم "أثناسيوس" وأعوانه الذين كنت أنا - المعلم الصالح - واحدًا منهم سوى استدعاء "أرسانيوس" من الصعيد وتم تأجيل الجلسة التالية إلى حين حضور المجنى عليه الذي قطعت يده وأقيمت في أعمال السحر والشعوذة ، وبالفعل ذهب الأعوان وأنا منهم مفتشين عن الأسقف "أرسانيوس" الذي كان متخفيًا كعهده مع الأريوسيين وما أن وفقنا الله في إيجاده حتى استطعنا أن نرده عن ضلالته آخذين إياه راجعين إلى "صور".

ولم يعرف الفريق المضاد شيئًا بما حدث وتم إبلاغ مندوب الإمبراطور بضرورة انعقاد الجلسة الثانية للمجمع بسبب دحض التهم المنسوبة "لأثناسيوس" ، وحاول الأريوسيون يومها أن يمنعوا وصول "أثناسيوس" وأعوانه إلى مكان انعقاد المجمع باعثن بخطابات مزورة إلى الوفد السكندري بخاتم المندوب الإمبراطوري يفيد بتغيير مكان انعقاد المجمع من مكانه الأصلي ببهو الكنيسة إلى مكان آخر على أطراف المدينة بقلعة حربية ، وللأسف ابتلعنا الطعم ذاهبين إلى هناك بينما انعقد المجمع بمكانه المعتاد ومن العادة أنه إذا دخل المندوب الذي يمثل الإمبراطور وأغلق الباب قام الحاجب الملكي بالمناداة على أسماء الحضور ومن لم يجده يعتبر

منسحب ، وعلى الجانب الآخر اكتشف "أثناسيوس" تلك الخدعة ليقوم تلاميذه بحمله والركض به حيث إنَّ الحراس الذين رافقونا بالجياد قد اختفوا بتدبير من الآريوسيين وسقط من سقط من شدة الركض وأكمل من أكمل ولكن تلاميذ البابا السكندري الفتيان الشباب الأصحاء ومنهم أنا لم نتهاون في أنْ نحمل البطريك راكضين به بعد أنْ أصابه التعب ، ركضنا كالجياد العربية الأصلية حاملين إياه ومعنا "أرسانيوس" الذي سيبطل التهمة ، وفي المجمع قام الحاجب بالنداء على الجميع ومن ثم وصل إلى البابا "أثناسيوس" لينادي عليه فلم يجب أحد فصارت همهمات وسط الحاضرين ليقوم "يوحنا الآريوسي" منتفضاً من مجلسه قائلاً في حدة مخاطباً الجمع وعلى رأسهم مندوب الإمبراطور :

- لقد ظهر الحق كقرص الشمس في السماء ولم يأتِ "أثناسيوس" ذلك الساحر الزنديق لخوفه منا وعدم مقدرته على إنكار التهمة .

علا صوت صياح الجانب الآريوسي بالاستحسان مع التصفيق الحار مقتنعين تمام الاقتناع أنهم قد فازوا بتلك الجولة من حربهم مع "أثناسيوس" مما جعل مندوب الملك يصيبه الضجر من جراء ما يحدث فميعاد المجمع محدد من قبل وقد علم به الجميع فنظر إلى الجانب الأرثوذكسي الموالي للبابا السكندري فلم يجد لديهم شيئاً يدافعون به عن غياب صاحبهم وأعوانه فأشار المندوب الإمبراطوري إلى الحاجب لينادي مرة أخرى على البابا "أثناسيوس" ، وبالفعل حدث

وكل من الأسقف "بفوتئوس" والأسقف "مكسيموس" قد رفعوا قلبهم إلى الله بالصلاة وإذا بالمندوب سيتكلم لإدانة "أثناسيوس" لعدم حضوره ، حتى وقف الأسقف "بوتامون" أسقف هراقليا قائلاً :

- إنني أشتّم رائحة آريوسية نتنة في تلك المؤامرة لتعطيل أختينا "أثناسيوس" عن الحضور .

هاج الجانب الآريوسي وانتفض "أوسابيوس النيكوميدي" قائلاً :

- فليُدَوّن في مضبطة الجلسة ذلك السب والقذف الشنيع الذي رماه الآن الأسقف "بوتامون" ، وليأخذ جناب المندوب القيصري ردًا حاسمًا تجاه هذا الخرق للقانون المجمع .

نظر المندوب إلى الأسقف "بوتامون" بتردد فهو يعلم قداسة هذا الرجل وبذله لذاته ونفسه أيام الاضطهاد الوثني المتوحش لذا قام بتهدئة الوضع ملوحًا بيده للجانب الآريوسي بالصمت سائلاً "بوتامون" عن وجهة نظره ليجيب الأسقف قائلاً :

- يا سادة هناك شيءٌ معيب في عدم حضور البابا "أثناسيوس" فتلك ليست عادته ، أكيد هناك شيءٌ خطير عطله عن المجيء .

صرخ "يوحنا الآريوسي" مقاطعًا قائلاً ليرُجَ صوته البهو الكنسي :

- يبدو أنه يستحم أو يأكل .

انفجر الآريوسيون ضحكًا بينما أشار المندوب إلى قائد الجند بتهدة الجمع فما منه إلا أن لوح للجنود حاملي الرماح ذات الأعلام الصليبية فضربوا بها على الأرض الرخامية ليصمت الجميع ويقول الأسقف "بوتامون" بغضب حاد :

- من تنتهكمون عليه يا سادة هو "بطل كنيسة الله أثناسيوس السكندري" كما وصفه الإمبراطور "قسطنطين" ، ألا يوجد احترام لمن احترامه الإمبراطور وقدره شخصيًا ؟!

نظر الآريوسيون إلى بعضهم البعض حيث شعروا أن الأسقف الخبيث - من وجهة نظرهم - قد أوقعهم في فخ إهانة الذات الإمبراطورية ليجدوا المندوب الإمبراطوري يرمقهم بنظرات قاسية حادة فقام "أوسابيوس النيكوميدي" محاولاً تهدة الوضع قائلاً بدهاء شديد :

- حاشا وكلا أن نهين أحداً ها هنا ولكن جناب المندوب يعلم أن عدم حضور صاحب التهمة يجعل التهمة تثبت عليه حيث هروبه بدون مبرر يجعل الشك يقين .

أخذ المندوب نفساً عميقاً مخرجاً إياه على دفعة واحدة قائلاً :

- سننادي لآخر مرة على البابا "أثناسيوس" وإذا لم يجب سنعتبره هارباً من جلسة المجمع ومذنباً في التهمة التي نسبت إليه ، نادِ أيها الحاجب .

وبالفعل توقف الزمان للحظات وقلوب أعوان "أثناسيوس" ارتفعت إلى الله وجباهم امتلأت بالعرق النازح على وجوههم وأعينهم قد أغمضت للصلاة في تلك الأوقات الحرجة العصبية ليرفع الحاجب عصاه الخشبية ويدق بها على الأرض وسط الصمت الرهيب الذي ساد المكان ، ونظرات الشماتة والفرح واضحة على وجوه الأريوسيين وصوت الرياح يخترق الآذان كالنواح على ما سيكون بعد نطق الحاجب اسم "أثناسيوس" ، وفجأة بعد نطق الاسم مباشرة كنا نحن على الناحية الأخرى من الباب نتشاجر مع الجنود حيث أخذ كل تلميذ جندياً متعاركاً معه لأن الأريوسيين رشوا الجنود طالبيين منهم عدم فتح الأبواب ، وتعاركنا صائحين متسائلين كيف يمنعون حبيب الإمبراطور ؟



انفتح باب الكنيسة الخشبي العتيق جداً المهيّب لتظهر بوضوح أصوات قرقرة المفصلات النحاسية التي تربط الباب بالعوارض الحجرية ويدخل شعاع الشمس مخترقاً القاعة ومن قوته الشديدة وضع الجميع أيديهم أمام أعينهم ودخل البابا "أثناسيوس" يغطيه قرص الشمس بأشعته الذهبية قائلاً في هدوء :

- بنعمة الله "أثناسيوس" حاضر الجلسة .

انتصب كل أعوانه مصافحين إياه سائلين عن سبب تأخيرته ، فأمسك المخطوط المزور مقدماً إياه إلى الحاجب الذي بدوره

أعطاه إلى المندوب قارئاً إياه لتتفتح عيناه على آخرهما وينغلق حاجبيه ناظرًا إلى الجانب الأريوسي قائلاً في سخط :
 - ما هذا المزاح السخيف يا سادة ؟ من الذي أرسل تلك الرسالة ؟

افتحل الأريوسيون جميعهم الغباء وعدم المعرفة بما حدث ، مستغربين من هذا الفعل الإجرامي السخيف شاكرين الله على سلامة وصول البطريرك السكندري إلى المجمع فما كان من المندوب إلا أن مزق المخطوط المزور لتبدأ فعاليات الجلسة وما أن وصل الأمر إلى استدعاء الأسقف "أرسانيوس" الذي لم نرتض أن ندخله منذ ابتداء الجلسة إلا عند الاحتياج إليه ، وبالفعل دخل إلى القاعة وجميع الأريوسيين قد تعرفوا عليه وقد قمنا بتغطية يده بشال أسود طويل فلم تظهر يده عند دخوله لينتفض "يوحنا الأريوسي" قائلاً مصطنعاً الحزن :
 - ها هو المسكين "أرسانيوس" الأسقف البائس الحزين ، وقد فقد يديه .

دهش المندوب وجميع الحاضرين من رجال البلاط الملكي والجنود إلى أن استقر "أرسانيوس" في وسط المجمع واقتربت منه أنا وكنت وقتها شاباً لأنزع عنه الشال الأسود وتظهر يده فغضب المندوب الإمبراطوري منهياً تلك الجلسة الهزلية لصالح "أثناسيوس" وتبرئته للمرة الثانية ناقلًا بصره إلى "يوحنا الأريوسي" لسمع رده فلم يجده بالمرة لأنه كان قد هرب بعد تلك الفضيحة .

واستمر المجمع في إلقاء التهم الجرافية التي ليس لها أساس من الصحة و"أثناسيوس" ينفىها واحدة تلو الأخرى حتى تم الانتهاء من جميع التهم ، فلم يجد الأريوسيون حلاً سوى قتل "أثناسيوس" والفتك به لكن تشاء العناية الإلهية أن يخلصه المندوب الإمبراطوري من أيديهم ليهرب بعيداً إلى القسطنطينية ، وأصدر المجمع قراراً بعزله في عدم وجوده وحَزَنَ البابا لذلك جداً من قسوة ووحشية الأريوسيين محاولاً أن يقابل الإمبراطور وפלح في ذلك بمساعدة أسقف القسطنطينية الذي يَكُنّ محبة عظيمة للبابا ، وبالفعل حدثت مقابلة حاول فيها "أثناسيوس" الدفاع عن نفسه لكن سبقتة وشاية من قِبَلِ أخت الإمبراطور حيث أشاعت في نفس الإمبراطور أنَّ "أثناسيوس" يحرض الشعب السكندري على عدم شحن القمح من مصر إلى "القسطنطينية" لذا سارع الإمبراطور "قسطنطين" بإغلاق جميع أبواب الحوار في وجه "أثناسيوس" ، وكانت الطامة الكبرى عندما أمر الإمبراطور المؤمن بالقبض على بابا الإسكندرية ونفيه إلى مدينة "تريف" التي تقع في الجنوب الغربي من بلاد "غالية" بالجزء الغربي من المملكة الرومانية واشتعلت الإسكندرية حيث قام الأهالي المسيحيون فور سماعهم تلك الأخبار المزعجة بغلق الميناء البحري للشعر السكندري وإقامة المظاهرات الثائرة الضخمة لمساندة أبيهم الروحي وراعيهم والضغط على والي الإسكندرية لنقل المشهد بأكمله إلى الإمبراطور .

إنِّي أتذكر تلك الأيام جيدًا يا أبنائي لأنني كنت من المناهضين لحكم الإمبراطور بنفي البابا قاطعين الطرق الرئيسية معطلين حركة العمل بجميع المناحي ، واشتباك بعض الشباب السكندري الثائر بالحامية الرومانية وأصيب من الجانبين الكثيرون وسقطت الضحايا كالذباب ولم ننسَ الآريوسيين فقد نابهم من الشعب جانب وحاول اليهود والوثنيون مساندة الآريوسيين فندموا أشدَّ الندم لهذا التفكير حيث هاج الشعب السكندري حارقًا معابد وثنية ويهودية مطالبًا إياهم بالرحيل من الثغر ، وأصبح الأمرُ لا يطاق حتى إنه لم يعد أحدٌ يسمع أحدًا بالمرّة لدرجة أن شَبَّه بعضهم الانقسام الطائفي هذا بالحرب الملعونة بل وأسوأ منها ، وأصبح في كل مدينة كل أسقف يجادل ضد أسقف والشعب يناقض بعضه البعض كمثّل أسراب البعوض تتصارع في الهواء .

والضربات تتوالى بقسوة وبشدة ، ضربة من الأرثوذكسيين يقابلها ضربة من الآريوسيين بينما استُقبل البابا "أثناسيوس" في تريف بترحاب من أسقف مدينتها المدعو "مكسيمينوس" الذي أحسن ضيافته لحبه لهذا البابا المجاهد بينما الإسكندرية يظهر بها بطل جديد أخذ على عاتقه الجهاد ضد الرومان الذين نفوا سيده وأبيه الروحي ومعلمه ، ولم يكن هذا الشخص سوى المصارع الأَبْكم .



توقف المعلم الصالح عن الحديث نوعاً ما مرتشفاً كوباً من الماء ليحثه الشباب الجالس أمامه على تكملة حديثه الشيق فهم يريدون معرفة المزيد عن المصارع الأبكى .

فأكمل المعلم حكايته سارداً أنه كان يعرف ذلك المصارع معرفة وثيقة وطيدة لأنه عاش في كنف البابا "أثناسيوس" منذ أن دخل إلى المسيحية ولا يعرف أحدٌ عنه سوى القليل قبل مسيحيته إلا أنني في مرة من المرات قد سألت البابا ليجيبني بأنه يعرف عنه أنه كان فيما مضى مصارعاً مشهوراً في أرجاء روما بعهد الوثنية وقد تخرج من مدرسة المصارعين الرومانية التي تخرج منها عظماء المصارعة الأشداء الجابرة ويعتبر هو واحداً منهم ولا يقل عنهم شأنًا ، فهو في يوم من الأيام تغنت النساء والفتيات بانتصاراته وحلم الرجال أن يصبحوا فحولاً مثله ، هتفت له حلمات المصارعة في روما وسوريا وفينيقية حتى أحب جارية مصرية من الإسكندرية كانت وقتها بروما تخدم مع أسيادها ، جميلة جداً وسط الجواري ومالكها كان رجلاً وثنياً غليظ القلب كان دائماً يعذبها ويهينها ، وحدث الاضطهاد العظيم واتضح أن تلك الجارية تدين بالمسيحية فَعَلِمَت المصارع بعضاً منها وتم قتل الكثير من المسيحيين في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وعلم سيد الجارية بمسحيتها فعذبها عذاباً شديداً محاولاً إرغامها على السجود للأصنام لكن الجارية رفضت بشدة مما أثار في نفسية المصارع فحاول أن يساعدها في الهروب ، وبالفعل نجح لتهرب هي إلى الإسكندرية تاركة روما وهو

يقع في براثن السيد الوثني الذي علم بما حدث فأبلغ السلطات الرومانية أنَّ المصارع مسيحي فتم القبض عليه وكانت ستقطع رقبته بحد السيف لولا تدخل أحد محبيه من الأسياد الرومان ليكتفوا بقطع لسانه ، وانتهى عصر الاضطهاد وأصبحت الدولة الرومانية تعترف بالمسيحية واعتنق سيد المصارع المسيحية وأعتق الأخير من نير العبودية والمصارعة معطيًا إياه صك الحرية ليغادر المصارع روما متجهاً إلى الإسكندرية باحثاً عن محبوبته متعشماً من الله أن يجدها التي بسببها فقد لسانه ، وظل يبحث مدة من الزمن ولم يفلح في أن يجدها حتى توصل إلى اقتناع أنها لربما تكون استشهدت في الإسكندرية ، وفقد الأمل في الحياة وقام بقطع شرايين يده والوقوف على شاطئ البحر ، وبينما البابا "ألكسندروس" يتريض ذات يوم على شاطئ البحر برفقة رئيس الشماسة "أثناسيوس" وجدوا ذلك المصارع يصارع الموت ، ومما شد انتباه "أثناسيوس" له أنه ضخم جداً وبيده المغلقة بإحكام صليب خشبي صغير كانت قد أعطته له محبوبته قبل هربها واحتفظ به وهو لا يفهم معناه .

تحزن البابا "ألكسندروس" عليه وأمر تلاميذه بحمله إلى دار البطريركية لمعالجته والإحسان عليه ، وبالفعل حدث وتعافى المصارع ليجد نفسه أنه لم يمت بل بدأ حياة جديدة تماماً وأوكل البابا إلى تلميذه "أثناسيوس" مهمة تعليم المصارع أصول الديانة المسيحية الذي ما أن علم الأخير أنها تلك الديانة التي كانت تتبعها محبوبته حتى انكب على تعلمها

بشغف رهيب ومحبة عميقة ، وتوطدت أواصر الصداقة والإخوة بين "أثناسيوس" والمصارع الذي فضل أن يستغل قوته في سبيل مجد الرب وخدمته ، وبالفعل عمل في الكنيسة خادماً للرب مستغلاً قوته الجسمانية التي حباه بها الله في مساعدة المحتاجين والمرضى والفقراء فكان يحمل المرضى غير القادرين على الحراك إلى الكنيسة لسماع كلمة الله مفيداً بذلك جانب كبير من المؤمنين المرضى وكبار السن الذين لا يعرفون كيف يذهبون إلى الكنيسة وأيضاً استخدم قوته في حمل المياه العذبة من منابعها إلى المسنين والأيتام والأرامل والذين ليس لهم أحد يذكرهم ولم يفوته أيضاً أن يدافع عن المسيحيين العزل الفقراء ضد تبجح الوثنيين واليهود الذين ما أن كانوا يروه أو يسمعون بقدومه حتى كانوا يفرون من أمام وجهه مرتعبين لأنه من فكر في معاداة المصارع أو الوقوف في طريقه لن يسلم من قبضته حيث لقبه "أثناسيوس" بلقب "شمشون الكنيسة السكندرية" .

أما المصارع فأحب "أثناسيوس" حباً جماً حتى إنه لم يكن يفوت له أي محاضرة يلقيها بالمدرسة اللاهوتية أو عظة يعظها بالكنيسة الكبرى "بوكاليا" مستمعاً إلى كلمة الله من فم صديقه العزيز وما أن رُسِمَ بطريركاً حتى قام المصارع بالجلوس تحت أقدامه غاسلاً إياها آخذاً الماء بعد ذلك مرتشفاً إياه مما جعل الشعب السكندري عند رؤيته هذا الأمر الذي لا يفعله سوى المتضعين النساك القديسين فقط ، يبجلون المصارع معتبرين إياه من صفوف الأبرار ، وعظم هذا

الأمر في أعين البابا ليلحقه بالخدمة في الكنيسة مفضلاً أن يرسمه شماساً لكن المصارع رفض حاسباً عدم أهليته لتلك الخدمة العظيمة بسبب حياته في الخطيئة السابقة قبل دخوله إلى المسيحية وأنه غير أهل لتلك النعمة فهو أبكم ، فكيف سيصلي وكيف سيرتل وكيف سيعظ الشعب ؟ مفضلاً أن يكون خادماً أميناً لله فقط ومن بعده الكنيسة والبابا الذي كان يرى أن خدمته الفائقة تلك هي صلاة راضخاً له جاعلاً إياه كاتم أسرارهِ التي يثق تمام الثقة أنه لن يبوح بها لأحد أبداً ، وما أن وصل إلى آذان المصارع نفي البابا حتى التهبت مشاعر الغيرة لديه وخرج إلى الطرقات يجري يمينا ويساراً ينادي الشعب للخروج من منازلهم والتظاهر أمام قصر الوالي ونجح ذلك الأبكم في حشد الآلاف من أهالي الثغر السكندري الغيورين على إيمانهم وبطيريركهم ولم يخلُ الأمرُ من مناوشات ومشاجرات مع جماعة الأريوسيين الذين احتكوا بالمصارع أكثر من مرة حتى إنهم ذهبوا إلى أن أتوا له بمصارع مخضرم من روما على نفقتهم الشخصية واضعين إياه أمام ذلك المصارع في منتصف الطريق على الشاطئ ، وفي البداية رفض المصارع المسيحي أن يعود إلى سابق عهده حيث علّمه "أثناسيوس" أن الإيمان المسيحي قائم على المحبة والسلام والوداعة متبعين مبدأ "المسيح" القائل : "من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر أيضاً" ، لذا لم يمد الأبكم يده على المصارع الأريوسي الأسود الضخم الذي يبدو للعيان أنه أضخم من الأبكم ، وبدأ الأسودُ في التحرش

بالأبكم ومناداته بألقاب المصارعة القذرة لعله يفلح في أن يعيد إليه ذكريات حلبه المصارعة ولكن لم يفلح الأمر بالمرة مع الأبكم فجرب أن يسبه بآلهته الوثنية معتقداً أنه ما زال وثنيا فلم ينجح في استثارة الآخر حتى مال عليه أحد الآريوسيين هامساً في أذنه ببعض الكلمات فابتسم الأسود قائلاً :

- ملعون "أثناسيوس" وملعون أنت يا عاهرة أثناسيوس.

وهنا فقط انتفض جسد الأبكم بأكمله ونفرت عروقه من تحت جلده السميك وانتفخت عضلاته بالدماء الساخنة تغلي من جراء ما سمعه عن أبيه وصديقه الروحي ، وتحول لون عينيه من السواد القاتم إلى الاحمرار الدموي من الغيظ الشديد والتفت إلى المصارع الأسود صارخاً بأعلى صوته صرخة مدوية اهتز لها شاطئ النهر بأكمله وانتبه إليه جميع السكندريين ليقفوا وراء مصارعهم المسيحي هاتفين باسم البابا "أثناسيوس" مطالبين رجلهم العظيم بالثأر لبطيركهم النبيل .

اشتد هواء البحر المحمل بالرطوبة الثقيلة التي جعلت أجساد المصارعين يتصببان عرقاً غزيراً وصوت موج البحر يذكرهم بصوت هدير صياح المتفرجين بالكلوزيوم الروماني ليقف كل منهم قبالة الآخر والأسود يخرج من أنفه هواءً ساخناً يظهر على هيئة بخار وقدمه اليمنى تنبش في رمال الشاطئ فيبدو كالنور الهائج المستعد للانقضاض على فريسته أما الأبكم فقد أغلق يديه الاثنتين بقوة شديدة وفجأة ركض

الاثنان تجاه بعضهما البعض ليصطدما ببعض لحماً أمام لحم وعظام تكسر عظاماً وأصوات فرقة التكسير والضرب تدوي في أذان المتفرجين ، فريقٌ يهتف بحياة البابا وفريقٌ يهتف بحياة أريوس العظيم ، لكلمات وراء كلمات وخيوط دماء تسيل من جميع الجبهات ، شخص يضرب والآخر يدافع ثم تتقلب الآية وذلك يضرب والثاني يدافع ، وتلطخت رمال الشاطئ بالدماء ومعشر الوثنيين واليهود يشاهدون بلا اكتراث ، ما عدا الوثنيين الذين عادت في مخيلتهم مشاهد الدماء والاضطهاد الذي كانوا يُنْكَلون به المسيحيين حتى صاح واحدٌ منهم ضاحكاً بصوتٍ عالٍ لسمع الجميع :

- الآن يتحارب المسيحيون مع بعضهم البعض ، أليس من الأفضل أن يعود الإمبراطور "دقلديانوس" ويقتلهم بسيفه ليدخلوا فردوسهم خيرٌ من أن يقتلوا بعضهم ويدخلون الجحيم .

فهقه اليهود والوثنيون أجمعين بينما توعدهم الأرثوذكسيون ، أما الآريوسيون فطالبوا مصارعهم الأسود بالإنهاء على الأبكى ، وبالفعل كاد ينجح إلا أن المصارع فعل حركة محترفة تمكن بها من شل حركة الأسود رامياً إياه على رمال الشاطئ تاركاً إياه مهزوماً وما أن تلفت معطياً إياه ظهره حتى رمى آريوسي بخنجرٍ إلى المصارع الأسود الذي هبَّ واقفاً مستلاً الخنجر جارياً ناحية المصارع الأبكى الذي أحسَّ به فمال بجسده بحركة بهلوانية لا يستطيع فعلها الكثير متفادياً ضربة الخنجر ليمسك بيد الأسود التي بها الخنجر بيد واحدة

مستجمعاً كل قواه ضارباً بقبضته الأخرى جبهة الأسود الذي توقف فجأة عن الحركة بعد أن تلقى الضربة ليقع الخنجر من يده ويسقط على ركبتيه الاثنتين دفعة واحدة ، ومن ثم ارتمى جسده كله على الرمال بغير حراك أو نفس حتى اقترب رجل آريوسي من المصارع الأسود متحسباً أنفه فلم يجد أي أثرٍ للنفس فصاح بأعلى صوته قائلاً :

- لقد قتل الأبكى رجلنا الأسود الآريوسي الأعزل من السلاح .

وأشاع الآريوسيون ينطقون بهذا حتى استطاعوا بدهائهم استمالة حرس الوالي الروماني في استصدار أمراً بالقبض على المصارع الأبكى الذي لم يهرب أو يفعل متبعاً تعليم من قَتَلَ سَيَقْتَل يوماً ما وبالكيل الذي تكيلون يكال لكم ، ليسلم نفسه إلى السلطات الرومانية وسط حزن الشعب الأرثوذكسي وشماتة الشعب الآريوسي وفي السجن لاقى المصارع أشد أنواع العذابات والأهوال .

صمت المعلم عند هذا الحد شاعراً بالإرهاق من كثرة ما سرد من حكايات طالباً من أبنائه أن يكملوا في وقتٍ آخر لأنَّ ميعاد نومه قد حان وعليها ألقى عليه الثلاثة أصدقاء تحية المساء ذاهبين إلى ديارهم وكلهم أمانى عريضة .



(٧)



- عريضة مكتوبة إلى والي البلاد بشأن الإفراج عن المسيحيين المعتقلين جراء أعمال الشغب الأخيرة لعل وعسى يخلّى سبيلهم .

هكذا قال السيد "روفيوس" إلى الجمع من الصيادين الجالسين أمامه ، ومن ضمنهم ابنه الذي أنهى كتابة مخطوط العريضة خاتماً إياها بخاتم والده ، معطياً المخطوط إلى أبيه الذي أكمل حديثه قائلاً :

- يجب أن نهذاً قليلاً أيها الإخوة حتى يخرج إخوتنا من السجون .

رد أحد الواقفين قائلاً :

- أين البابا "تيموثاوس" من كل ما يحدث ؟

تدخل "أثناسيوس" في الحديث قائلاً :

- إنَّ البابا ومعه لفيف من الأساقفة خارج البلاد لحضور

مجمع مسكوني هام في القسطنطينية ، لذا استغل

الآريوسيون عدم وجوده وأشاعوا الخراب والدمار

كعادتهم القذرة .

علق الأب على حديث ابنه معقبًا قائلاً :

- ويجب أن نتصدى لهم ، واعلموا يا إخواني الصيادين أننا لسنا بمفردنا فالسيد "غالوس" الرجل المسيحي الفاضل تاجر الأقمشة والحرائر ومعه حزبٌ كبيرٌ يتصدون للآريوسيين معنا وأيضًا السيد "كاسيان" تاجر الغلال ومعه باع كثير والسيد "أنيانوس" الإسكافي ومعه أبناء طائفته والكثير والكثير من أهل الثغر السكندري الغيورين على الإيمان المسيحي القويم .

صاحت سيدة قائلة :

- والفقراء أيها السيد روفوس أمثالنا ماذا يفعلون ؟
إننا أول من يواجه الصعوبات في وسط كل تلك الاحتكاكات والمشاحنات.

أجاب "روفوس" بهدوء قائلاً :

- أنتم إخواننا الأصاغر ولن نترككم أبدًا مهما حدث ، أنا أعلم أنَّ هناك طائفة من الآريوسيين يشترون ذمم المسيحيين الفقراء ضعاف النفوس ليضموهم إلى طائفتهم الهرطوقية ، ونحن كمعشر أسياد الإسكندرية نعمل جاهدين على مساعدة الفقراء والأرامل والأيتام ولن يتكرر ما حدث في عهد الأباطرة الآريوسيين أمثال "قسطنطس" و "فالنس" حيث حُجِبَتْ حصّة القمح الموجهة إلى فقراء المسيحيين وتوجّهت إلى فقراء الآريوسيين فقط .

صاح معشر الصيادين بالهتاف باسم السيد "روفيوس" طالبين من الله أن يمد في عمره مدافعاً عن الإيمان القويم المستقيم مما أثار غبطة "روفيوس" ماسحاً عرقه من على صلته بينما استدرك أحدهم الحديث قائلاً :

- أَلن ننتقم من الآريوسيين يا سيدي نتيجة حرقهم مراكبنا ؟

رد "روفيوس" بكل ثقة قائلاً :

- سيحدث أيها الرجال الشجعان ، ولكن لتهدأ قليلاً فما زال حرق كنيستهم يسبب لهم ألماً شديداً حيث كانت ضربة في مقتل .

انفض الاجتماع بعد أن وزع السيد "روفيوس" بعض المساعدات المادية والعينية على الإخوان الصيادين الذين تضرروا بحرق مراكبهم واعدًا إياهم بأنهم في القريب العاجل سيحصلون على غيرها ليعودوا إلى البحر بشباكهم صائدين للأسماك ، وما أن رحل الجميع حتى حل القائد الرومي صديق "روفيوس" ليتناقش كل منهما في حال المساجين المسيحيين الذين راحوا ضحية العمل الأخير ، فما من القائد إلا أن عبر عن أسفه معلناً لصديقه الحميم أن الوالي ثابت على الإيمان المستقيم مثل الإمبراطور وأنه لن يتزعزع قيد أنملة ناحية معشر الآريوسيين الجبناء الخبثاء لكن ترضية للرأي العام السكندري وجد أنه لا بد من أن يقبض على بعض المسيحيين أيضاً وما هي إلا مدة وجيزة وسيطلق سراحهم ، فطلب "روفيوس" أن يكون ذلك في القريب العاجل

جداً لأن لديهم مخططات كثيرة ويحتاجون كل رجل معهم ، معطيًا القائد كيسان قدرًا من العملات الذهبية لاستعجال الأمر واسترضاء الوالي بأي شكل ، فوعده الأخير بأنه سيبدل كل ما في استطاعته حتى يخرج المساجين أحرارًا في غضون أيام لاستكمال رحلة الكفاح المقدسة في سبيل إعلاء شأن كنيسة الإسكندرية .

تناول الاثنان الغذاء مع بعضهما لينصرف القائد سعيدًا بغنيمة الجديدة متجهًا إلى أصدقائه الأريوسيين لتناول العشاء بدار السيد "فابيان" الأريوسي الذي ما أن رآه حتى تهلت أساريره داعيًا كبار رجال الأريوسيين الأثرياء لمناقشة أمور الأحوال السكندرية ، ولم يخل الاجتماع من "سيزار" ابنه المحبوب ليقول القائد الرومي باهتمام شديد ودهاء عجيب :

- قلبي معكم يا معشر الأريوسيين الشرفاء المجاهدين في سبيل إيمانكم السليم .
- ابتسم "فابيان" لذلك الإطراء قائلاً :
- إننا كلنا ثقة في الله ثم في شرفكم العسكري ، إنكم خير مساعد لنا في تلك المدينة الآثمة التي وصلت رائحة فجورها إلى السماء .

ظهر الآسى وخيبة الأمل على وجوه بعض الحاضرين ليقول واحدٌ منهم :

- إنَّ الوالي أثبت في اللقاء الأخير أمانته إلى الكنيسة الأرثوذكسية ولم يعاقب أحدًا منهم على حرق كنيستنا التي اعتبروها احترقت قضاء وقدرًا وليس بفعل فاعل

ليتم التدليس على الجريمة العظيمة التي اشترك فيها
"أثناسيوس بن روففوس" والكل رآه وخبر.

عَقَّبَ "فابيان" قائلاً :

- أكيد هذا الخبيث "روففوس" قد دفع إلى الوالي حتى
لا تأتي سيرة ابنه في تلك الجريمة البشعة ، لكن وحق
الإيمان الآريوسي سيدفع الثمن غالباً .
نظر القائد الرومي بتمعن شديد إلى "فابيان" ومن ثم إلى
جميع الحاضرين قائلاً :

- يا سادة الإسكندرية والمدافعين عن الإيمان الآريوسي
القوم ، ماذا تريدون بالضبط في عهد إمبراطور
أرثوذكسي ؟

تطلع الجميع إلى بعضهم بفضول واستغراب شديد من ذلك
التساؤل القوي الذي لا بد من الإجابة عليه آجلاً أو عاجلاً ،
فهم في تناحر مستمر منذ ما يقارب الستين عاماً مع معشر
الكنيسة السكندرية محاولين فرض سيطرتهم على الكنيسة
المرقسية وتحويلها إلى كنيسة آريوسية بأي شكل كان وبأي
ثمن مهما كان غالباً ، ليرد "فابيان" بعد مدة من التفكير
العميق قائلاً وقد ظهرت على وجهه ملامح الجدية المتناهية :
- صديقي العزيز القائد الرومي المخضرم المحب لنا ،
سوف أكذب عليك إن قلت لك إننا نريد كرسي
البطريركية الآن في وجود إمبراطور لا يتبع معتقداتنا

لذا فلاأكن صريحاً معك ، إنَّ كل ما نريده هو أن تكون
لنا كنائسنا وأساقفتنا .

ظهرت علامات الاندهاش على وجه القائد قائلاً :

- ولكنها موجودة بالفعل تلك الطلبات ، فلكم كنائسكم
التي تمارسون فيها شرائعكم ومعتقداتكم ، ولديكم
أساقفتكم .

- ولكنهم غير شرعيين لدى عامة الشعب السكندري
وهذا هو مطلبنا (الشرعية) ، نحن نريد الشرعية
الكنسية حتى نستطيع التحكم في أهل الثغر السكندري.

احتسى القائد القليل من الخمر ليعيد الكأس الخاص به على
المنضدة قائلاً :

- ومن وجهة نظرك يا سيد "فابيان" كيف تحصل على
تلك الشرعية الكنسية ؟
طرق "فابيان" بأصابعه على المنضدة الخشبية ثم توقف قائلاً
بهدهوء شديد :

- أتعلم أين البابا "تيموثاوس" الآن ؟
- بالقسطنطينية لحضور مجمع مسكوني للنظر في بدعة
الأسقف "مكدونيوس" .

- صحيح ، والأسقف "مكدونيوس" ليس سوى أسقف من
كبار أتباعنا وبطريك على القسطنطينية حيث الملك
قابع هناك ، وتلك المرة لن تكون مثل سابقتها ، سَنَبْلُغُ
مرادنا وسنفتك بالكرسي السكندري ونحتله تلك المرة.

صمت "فابيان" لينهي القائد كأس الخمر على دفعة واحدة قائلاً :

- سيد "فابيان" ، أنت تعلم علم يقين أنني أعتبرك أخي وصديقي وأنا أرى من واجبي أن أنبهك بأنه حتى يحدث هذا المراد يجب الاستعانة بالصبر وعدم إشعال الجو العام بالإسكندرية .
تَدَخَّلَ أحد الحاضرين قائلاً :

- كيف يا سيدي ، يجب أن نطرق على الحديد وهو ساخن .

صب الخادم خمرًا بكأس القائد ليرتشف منه قائلاً إلى المتكلم:
- ومن الذي سيشعل النار ليسخن الحديد ؟
ابتسم "فابيان" بخبث ومكر قائلاً :
- نحن من سيشعل النيران أيها القائد العزيز !



- العزيز والغالي هو أنت يا "مارثا" .
قال "أثناسيوس" ذلك إلى حبيبته وهم واقفين عند صخرة الأحباب ، لتقول له في دلال زائد :
- أنت تقول هكذا كل مرة ولا تأخذ خطوة تجاه حبا الطاهر العفيف .
تنفس "أثناسيوس" الصعداء قائلاً :

- لكل شيء تحت السماء وقت يا حبيبتي ، فأنا لم أخرج بعد من المدرسة اللاهوتية .
- وما الذي يمنع زواجنا بذلك ، يمكن أن تكمل دراستك ونحن أزواج .
- تلك أمنية العمر يا جميلة جميلات الثغر السكندري كله لكن ...

صمت "أثناسيوس" لبرهة ، لا يعرف كيف يكمل حديثه لتفهم "مارثا" مقصده تمامًا قائلة في خيبة أمل :

- ولكن أنا آريوسية ابنة آريوسي وأنت أرثوذكسي ابن أرثوذكسي ، أليس كذلك ؟

ضرب "أثناسيوس" رمل الشاطئ بأقدامه غيظًا وحنقًا وقلة حيلة قائلاً :

- بالضبط يا "مارثا" ، وهذا هو أول حائل بيننا .
- ظهر على وجه الفتاة يأس وخيبة أمل رهيبة قائلة :
- وما الحل الآن ؟ وأخي قد بدأ يشعر بعلاقة حبنا ، وأخاف أن يخبر أبي فيمنع خروجي من الدار .

بلغ القنوط من "ابن روفئوس" قائلاً لحبيبته اليهودية حيث اجتمع بها على الجانب الآخر من صخرة الأحباب :

- لن أسمح لهم بأن يأخذوك مني ويحرموننا من بعضنا البعض ، أنا أحبك حبًا جمًّا .

ردت عليه في برود شديد :

- إنَّك تقول هذا منذ سنة ولم يحدث شيء بالمرة ، إنَّك تلهو بي .

قاطعها "ابن روفئوس" قائلاً :

- وحق مسيحتي إنَّني أحبك ولا ألهو بك .
- إذن متى سنعلن لجميع أهل الإسكندرية عن حبنا الطاهر مكللين إياه بالزواج ؟

ارتعش جسد "ابن روفئوس" نتيجة اندفاع الهواء البارد دفعة واحدة قادماً من اتجاه البحر ليعجز عن النطق ، فتكمل هي وصوتها به نبرة يأس قائلة :

- أنت لن تفعل ذلك ، وكل المدة السابقة التي ذهبت هباءً من الحب والعشق مثلما يطير رمل الشاطئ في الهواء أليس كذلك ؟

- لماذا تقولين هذا ، أليس لديك ثقة في حبيبك ؟
أمسكت الفتاة بيده الباردة واضعة إياها على صدرها وبالأخص ناحية القلب ، ليدب الدفء في جسده فجأة مبتلِّعاً ريقه بصعوبة بالغة ، لتقول في دلال أنثوي :

- إنَّ كل دقة من قلبي تقول إنَّني أحب "أثناسيوس بن روفئوس" .

ظل لفترة من الوقت واضحاً يده على حالها تلك حتى أنزلتها هي قائلة :

- إنَّي أريد أن أقول لك إنَّني قد قلت لوالدتي عن علاقتنا .

لمعت أعين "ابن روفوس" ليظهر على وجهه علامات
الرعب الشديد قائلاً :
- ماذا ؟

شعرت الفتاة بتلعثمه وخوفه الظاهر للعيان قائلة :
- لا تخف يا حبيبي ، إنَّ أمي لن تذكر لأبي شيئاً ، فهي
تعلم أنَّك مسيحي وهي لا تمنع لأنَّك بالتأكيد ستعتنق
اليهودية من أجلي .. أليس كذلك ؟

شعر "ابن روفوس" بطرق عنيف على رأسه وكأنَّ هناك
أحدٌ أمسك بمطرقة وهوى على رأسه بعنف وقوة رهيبة غير
واجدٍ أية كلمة ليرد بها عليها ففضل الصمت المدقع .



أمسك "ابن كوزموس" بيد حبيبته قائلاً في ود بالغ وشوق
جارف :

- إن المعلم الصالح يعلم بعلاقتنا .
- وماذا قال لك ؟
- لا شيء حتى الآن .
- إذن ماذا ستفعل أنت يا حبيبي ؟
- لا أدري يا حبيبتي لكن يجب أن نجد حلاً في تلك
المعضلة السخيفة ، لا أعلم كيف انقسمت المسيحية
على ذاتها هكذا بسرعة شديدة ، فهي ما زالت في
مهددها لم يمر على ظهورها أكثر من ثلاثة قرون
لتدفع بالوثنية وبطشها إلى عرض البحر وتحجم

- اليهودية القاسية حتى تنقسم على ذاتها متفرقة شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً ، أي حالٍ هذا قد سمح به الله .
- الله يريد حبنا أن ينمو ويزدهر في النور .
 - لكن كيف يا مارثا ساعديني ؟ أنا طالب بالمدرسة اللاهوتية ويجب أن أخرج منها لأصبح رجل دين بعدها أو أبسط الإيمان مدرّساً بها كما أرادت لي أمي تنفيذاً لوصية أبي ، وأنا لا أستطيع أن أخالفها فهي كل ما تبقى لي في تلك الحياة القاسية ، دبريني ماذا أفعل؟

انسالت دمعة صامئة حزينة من أعين الفتاة الصغيرة العاشقة "لابن كوزموس" بشدة وهي لا تدري كيف تحل تلك المعضلة الرهيبة التي وضعهم القدر بها لتقول له :

- لا أعرف يا حبيبي الغالي ، يبدو أن الإسكندرية المدينة الكبيرة أصبحت صغيرة جداً علينا حتى إننا لا نستطيع أن نجاهر بحبنا أمام الجميع .

مد "ابن كوزموس" يده ماسحاً دموع حبيبته قائلاً :

- تلك الدموع غالية جداً على قلبي ، لن أكذب عليك ، إنني كثيراً ما انبئت نفسي وتحدثت معها ، كيف أنها سمحت لي أن أحب فتاة آريوسية الإيمان تاركة جميع بنات الإيمان القويم ؟ والحق أقول لك لم أجد إجابة سوى خفقان قلبي منادياً باسمك .

ظهرت علامات الاندهاش على وجه الفتاة لتبوح له بأنها فكرت مثل ذلك التفكير أيضاً حتى إنها قررت أن لا تراه مرة أخرى ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها عن رؤيته ، إنَّ الحبَّ الذي بينهم أقوى من أي حاجز .

تشجع "ابن كوزموس" قائلاً لها :

- "مارثا" ما رأيك أن تصبحي زوجتي على الإيمان

المستقيم ؟

صُدِمَت الفتاة عند سماعها هذا الطلب الذي ولأول مرة يطلبه منها حبيبها ليتحول إعجابهم ببعض إلى حب حقيقي يفرض نفسه بالقوة الجبرية على قلبها وقلبه ليطلب منها أن تنضم إلى صفه ، فوجدت نفسها تستأذن لتأخرها عن ميعاد رجوعها إلى الدار آخذة صديقتها "راعوث" معها تاركتين الشابين في حيرة من أمرهما حيث سار كل منهما بمحاذاة الشاطئ لا ينطقان بكلمة واحدة ، وما أن اتخذا قرارهما بالتكلم وجدا نفسيهما يتكلمان في نفس الوقت فتوقفا للحظات مبتسمين من تلك المصادفة رافعين أعينهما إلى السماء التي بدأت الغيوم تتجمع بها بكثافة عالية ، فعرفا أنَّهما مقدمان على ليلة ممطرة فعزما على إيجاد "أنطونيوس" والاختلاء في أحد الأماكن المغلقة للتحدث .



تجمع الثلاثة أصدقاء بإسطبل الخيل الخاص بالسيد "غالوس" مشعلين النار بأحد أركان الإسطبل الخاوية ليتدفئوا حيث اشتد

البرد وانهطلت الأمطار بكثافة شديدة طارقة على سطح الإسطبل بقوة كطبول الحرب أو ما شابه لتتنظم ضرباتها مع دقات قلوب الثلاثة أصدقاء ، حيث قال "ابن كوزموس" والحيرة تملؤه :

- أنا أتبع الإيمان المستقيم ، وهي تتبع الإيمان الأريوسي .. إذن ما الحل ؟

مد "ابن روفئوس" يديه تجاه النار الموقدة ليشعر بالدفء ، قائلاً في خوف :

- لقد ذكرت لأمها عن علاقتنا ، وأنا مسيحي وهي يهودية .. إذن ما الحل ؟

تطلع "أنطونيوس" إليهما بإشفاق وحسرة واضعاً بعض الأخشاب بالنار حتى لا تنطفئ قائلاً :

- الحب مشكلة كبيرة في ذلك الزمان ، تعددت المذاهب والأديان ولم يتغير حال بني الإنسان في الحب .

تطلع صديقه إليه غير مستوعبين ما يقوله ليسأله "ابن كوزموس" قائلاً :

- هل أحببت يا "أنطونيوس" قبل ذلك ؟

نظر "أنطونيوس" بتمعن إلى صديقهِ لا يعرف هل يصارحهما بحقيقة علاقته مع الراهبة الوثنية أم يجعله سرّاً مقدساً له هو فقط ، لذا لم يفكر كثيراً مقررّاً الاحتفاظ بسرهِ لنفسه ، فهو في البداية والنهاية لا يعتبر علاقته حبّاً مثلها بل هي علاقة إثم مع امرأة وثنية زانية ، وإذا عُرِفَ هذا الأمر

ستكون كارثة بكل المقاييس لأنَّ عقاب المسيحي الزاني مع الوثنية عظيم جدًا في كنيسة الإسكندرية .
مجرد التفكير في العقاب يجعل جسد "أنطونيوس" يرتجف بشدة ليلاحظ ذلك الصديقان فيطلبان من صديقهم أن يقترب من النار للدفع ، ويعود "ابن كوزموس" لسؤاله نفس السؤال من جديد ، فيجيب "أنطونيوس" بأنه لم يعرف معنى الحب الذي يقصدونه لأنَّه حتى الآن لم يحب فتاة مثلهم مُظهرًا تفهمه الشديد لحالة الاثنين وأنها في موقف حرج جدًا .

قال "ابن روفئوس" بقلق واضح :

- لِمَ كل هذا العناء ؟

لم يفهم الصديقان مغزى سؤاله ليستفسر كل منهما ، فيكمل الأخير حديثه موضِّحًا مغزى سؤاله قائلاً :

- لِمَ خلق الله كل هذا العناء والشقاء للبشرية ؟ ألم يكن يقدر أن يخلقهم كلهم على شاكلة واحدة متبعين مذهبًا واحدًا .

لم يعرف أحدٌ بما يجيبه ليقول "ابن كوزموس" وهو يحك مؤخرة رأسه قائلاً :

- أظن أن تلك الحالة منذ الأزل ، ألا تذكرون عندما درسنا في قسم الكتاب المقدس بالسنة الدراسية الأولى سفر التكوين عندما أمر الله أبناءه بأن لا يختلطوا ببنات العالم حتى لا يهلكون ، وبالفعل عصى أبناء الله كلامه واختلط منهم البعض ببنات العالم ، وولدوا عماليق ، وأباد الله نسلهم من على وجه الأرض .

أخذ "أنطونيوس" نفساً عميقاً مخرجاً إياه على مراحل قائلاً :
 - لكن مع مجيء السيد المسيح بدأ عهد جديد من المحبة
 والرحمة .

قاطعته "ابن روفئوس" قائلاً :
 - لكن لا تخالطوا أهل هذا الجيل .
 رد أنطونيوس قائلاً :

- إذن من سنخالط ، إن كان كل الجيل أعوج وشرير ؟
 فمن جهة نجد الآريوسيين ومن جهة أخرى الوثنيين ،
 وفي الركن البعيد اليهود متربصين ، ووالي البلاد
 رجلٌ خانع لا يستطيع أن يُرضي أيًا من الأطراف ،
 والكنيسة مشغولة بدفاعها عن الإيمان ، وعامة
 المسيحيين يتخبطون بين كل هذا .
 أتصدقون أنه ما زال هناك قديسون في ذلك الزمن
 الرديء الذي نعيشه ؟!

تمعن الصديقان في صديقهم الذي قلب ظهر المجن على
 الجميع مكفراً ناقماً على كل من حوله مكماً حديثه قائلاً :
 - إنَّ الكاهن دائماً ما يذكر لأبي أن تأديب الأبناء واجب
 مقدس متخذاً من الكتاب المقدس آية واحدة ألا وهي
 (أدَّبْ ابْنَكَ بقضيبٍ مِنْ حَدِيدٍ) ، وها هو يا أصدقائي
 الأعزاء .

انتفض "أنطونيوس" من مجلسه على غفلة مما أربع
 صديقيه ، ليخلع عباءته مظهرًا لهم ظهره المنحوت حُفراً من

كثرة الضرب المبرح بالعصا ليرقص لهيب النار كالأفعوان على ظهره الدامي الذي ما زالت الجروح فيه لم تندمل بعد ، فيشعر الصديقان بالاشمئزاز مما يرونه ، بينما يرتدي "أنطونيوس" عباءته مرة أخرى وعيناه قد ظهر بهما بريق سرعان ما تحول إلى دمعة صامتة حزينة ، مواجهًا صديقه مرة أخرى جالسًا قائلًا في حزن شديد :

- أتلک هي المسيحية التي أوصى بها المسيح ، أيها الإخوة ؟

صمت الصديقان برهة من الوقت ، واليأس يكتنفهم شاعرين بالألم من أجل حال صديقهم الذي لأول مرة يبوح لهما بهذا السر ، فحاول "ابن كوزموس" تخفيف الألم قائلًا :

- لا تحزن يا صديقي ، فالله شاهد وعالم بما يحدث لك .

ابتسم "أنطونيوس" بتهكم قائلًا :

- إذن ليأخذ أبي ويتركني حرًا أنا وأمي التي عندما تحاول الدفاع عني تصيبها لسعات العصا أيضًا ، لقد فكرت كثيرًا في أن أهرب وأترك الإسكندرية بمن فيها.

رد عليه "ابن روفوس" متسائلًا :

- وإلى أين ستذهب ؟

نظر "أنطونيوس" إلى شعلة النار متمعنًا فيها بشدة قائلًا :

- إلى أي مكان ليس به أبي ، وإن كان جهنم لأن أبي يعلم علم يقين وواثق كل الثقة أنه من أهل الفردوس

لأنه لا يفعل أي خطيئة ، وتحريضه على قتال
الآريوسيين جهاراً في سبيل الإيمان المستقيم
سيكافئه عليه الله ، حقاً ألم تكن الوثنية أفضل حالٍ
لنا نحن المسيحيون .

وضع "ابن كوزموس" يده على خده قائلاً :

- صدقني يا صديقي ، لقد جال هذا الفكر بخاطري يوماً
ما عندما كنا على قلب رجلٍ واحد في عهد الوثنية
ولكن ما أن استتب لنا الأمر وأصبحت المسيحية
الديانة الرسمية للدولة الرومانية حتى تفرقنا على يد
رجلٍ واحد .

حك "أنطونيوس" منخاره بيده قائلاً :

- وستتفرق أكثر وأكثر يا صديقي لأننا لم نتعلم كيف
نتحد بعد الآن .. ثق فيما أقوله لك ، لقد بدأ الأمر
بمجمع نيقية ولم يمر نصف قرن حتى حل علينا مجمع
القسطنطينية ، والله أعلم ما الذي يخبئه الزمن لنا من
مجامع .

رد "ابن روفوريوس" قائلاً :

- ومن وصل إلى البلاط الملكي حصل على الحصانة
السيادية لمذهبه وشريعته وداس كل من حوله مساوياً
إياهم بالأرض ، أي حالٍ هذا الذي نعيش به ، أي
مسيحٍ هذا الذي دعا إلى ذلك الخراب والتشتت ؟!

قال "ابن كوزموس" في صوت يشوبه الأسي قائلاً :

- من بعدي سيأتي أنبياء كذبة سيضلون الشعب .

رد "أنطونيوس" قائلاً :

- والشعب ضال بطبيعته الفاسدة حتى وإن لم يأت أنبياء

كذبة ، إنَّ أبي لا يحتاج إلى نبي كاذب أو لمسيح آخر

يقتعه بأنَّ ما يفعله خطأ لأنَّه رأى نفسه مُبرِّءًا من

الخطيئة في عين الله ، وهذه هي مصيبتى .. فكرت

ملياً أن أقتله لكن وجدت نفسي جباناً رعيدياً .

ربت "ابن روفئوس" على كتف أنطونيوس مهدئاً إياه قائلاً :

- تذرع بالصبر الذي لا تملك سواه الآن .

نظر إليه "أنطونيوس" دون أن ينطق ليقول "ابن كوزموس":

- إنني لست أدري إذا رفضت عرضي ماذا أفعل ؟

قال "ابن روفئوس" وهو مُعلِّقاً نظره على صديقه قائلاً :

- وأنا لا أدري إذا طلبت مني اعتناق اليهودية ، ماذا

أفعل ؟

نظر إليهما "أنطونيوس" قائلاً في هدوء ، والنيران ترقص

داخل عينيه :

- ما أنتم مزعمون أن تفعلوه افعلوه سريعاً .



(٨)



- سريعاً هكذا تم الاختلاف دوناً عن الاتفاق ، أي لعنة أصابت هذا المجمع ؟!

وضع المعلم الصالح المخطوط القادم إليه من "القسطنطينية" شارحاً مجريات سير المجمع وأحداثه وقد جلس المعلم برواق المعلمين والأساتذة الذين جلسوا حوله في شكل شبه دائري مستمعين إلى المخطوط الذي قرأه عليهم كله ليتضح من خلاله انعكاس ثقافة جديدة ألا وهي بدعه "مقدونيوس" ، ومن ثم يريدون إرجاع الكرسي السكندري إلى المرتبة الثالثة بعد كرسي "روما" و "القسطنطينية" لأن الأولى العاصمة والثانية روما الجديدة الشرقية .

صمت المعلم الصالح عن الحديث مستاءً جداً مما يحدث بمجمع "القسطنطينية" من أحداث حيث إنَّ الإمبراطور مؤيد لذلك الانقلاب على الكرسي السكندري الرسولي ، فإذا بأحد أساتذة التاريخ يقول بحدة شديدة :

- لقد نسوا من هي الإسكندرية عاصمة الإسكندر الأكبر نسوا هيلانية البحر السكندري ، وفرعونية أرضه ليأتي

الآن أبناء روما الذين يأكلون من خير مصر ليجعلونا
في المرتبة المتأخرة وسط الكراسي الرسولية .

رد عليه أحد أساتذة الكتاب المقدس قائلاً :

- وكلما بنوا مدينة جديدة حديثة كلما أصبحنا نحن مدينة
قديمة متأخرة ، نحن الذين نُصَدِّر لهم المسيحية
وعلماءها وقديسيها ورهبانها .. لقد نسوا الأب
"أنطونيوس" مؤسس الرهبنة المصري الذي وضع
النظام الرهباني للعالم كله .

صاح أحد معلمي الطقس الكنسي :

- لك الله أيها الإسكندرية العظيمة ، يا من قدمت أولادك
ذبيحة تضحية في أيام الاستشهاد بل مصر كلها
وضعت أبناءها وبناتها بخور تقدمة أمام الله العلي ،
ويكفينا فخراً أننا قدمنا للمسيحية أكثر الشهداء على
مستوى العالم ، ولا يقدر أحد من الكنائس الرسولية أن
يقلل من اعترافنا بالمجيد بالسيد المسيح .

تهكّم أستاذ اللغة اليونانية قائلاً :

- جعلوا كرسي الأسد المرقسي أقل مرتبة من بقية
الكراسي ، لعنة الله عليهم أجمعين ، إذن لنمنع دراسة
اليونانية واللاتينية ولنكتفي بتدريس القبطية لغتنا
الأصلية كنوع من أنواع العصيان .

هلل البعض موافقين على هذا الاقتراح التصعيدي للموقف العدائي الذي اتخذه أهل مجمع "القسطنطينية" تجاه الكرسي المرقسي وبطريركه ، بينما صمت البعض الآخر غير عالم بما يجيب لينظر أحدهم إلى المعلم الصالح الصامت سائلاً إياه عن موقفه فأبدى استياءه الشديد مما يحدث معتبراً أن أي رد فعل سيأخذونه الآن سيكون بمثابة انعكاس لمشاعرهم الجياشة بالألم والحسرة لما يحدث ، وإنَّ عليهم الانتظار حتى وصول الوفد البطريركي وتباحث الأمر .

انفضَّ الاجتماع الخاص بهيئة التدريس لينتشر خبر المخطوط بين الطلاب ، والذي ما أنْ خرج إلى أهل الثغر السكندري أجمعه حتى التهبت النفوس بالغيرة على مكانة الكرسي السكندري ، خارجين من جديد للاعتصام بشوارع الثغر السكندري ورفع لافتات العصيان أمام قصر الوالي السكندري .



- الوالي السكندري ضعيف ، ولا يعرف كيف يسيطر على الإسكندرية .

قال "سيزار" هذا إلى ابن عمه "مركيان" وهم في طريقهم سائرين بأحد الشوارع الجانبية متجهين إلى غرب المدينة ليقول الأخير :

- وما الجديد في هذا ؟ لقد تم الإفراج عن المسيحيين وما زال إخوتنا الآريوسيين بالداخل .
- رد "سيزار" عليه منفعلًا قائلاً :
- إنَّ القائد الرومي أكد لوالدي أنَّها أيام قليلة وسيخرج جميع الآريوسيين من السجن أيضًا .
- ولكن لِمَ المسيحيون أولاً ؟ إنَّ هذا الوالي خائن ويجب ردعه .
- سيحدث ولكن كل شيء في وقته .
- إلى أين تأخذنا يا ابن العم ، إن رجلي قد تورمت من كثرة السير .
- ابتسم "سيزار" قائلاً :
- سر يا "مركيان" وأنت صامت ، ألا تريد أن تتزوج أختي أم عدلت عن رأيك ؟
- لمعت أعين "مركيان" بالفرح والبهجة والسرور قائلاً :
- حقًا يا "سيزار" إنَّ الطريق الذي نسير فيه الآن له علاقة بزواجي من أختك جميلة جميلات الإسكندرية ؟
- توقف "سيزار" عن السير ناظرًا إلى ابن عمه مبتسمًا بخبث قائلاً :
- ليس بالمعنى الصريح والواضح لكنه من قريب له علاقة بتقليص الوقت والتخلص من أحد الأعداء المهمين وتكسير نعمة الأصدقاء الثلاثة .. سر معي يا أخي لتعرف نهاية الطريق .

سار "مركيان" دون أن يفتح فمه مرة أخرى حتى وصلا إلى معبد الإله "سيرابيس" ليقف "سيزار" أمامه ناظرًا إلى عظمته وهيبته حيث الأعمدة الرخامية العالية التي تكاد تصل إلى عنان السماء ، حاملة السحب على رؤوس تيجانها ، يكللها في منتصف المعبد تمثال للاله "سيرابيس" الشبه بقرة ، وعلى جوانب المعبد أربعة تماثيل ضخمة يمثلون أربعة حراس ضخام في زي فرعوني يقومون على حراسة الإلهة "سيرابيس" الحنونة ليخفض "سيزار" رأسه قائلاً في تهكم :

- يوماً ما كانت الإسكندرية تحكم من هنا ، من داخل هذا المعبد .

انتظر "سيزار" حتى غربت الشمس وحل الليل الأسود ليدور حول المعبد واجدًا نفسه بجوار المبنى الضخم الحجري الملحق بالمعبد ، واقفاً أمامه حارسان ضخام الجثة أوقفوا "سيزار" و "مركيان" لسؤالهم عن سبب الزيارة وهم ليسوا من أهل المكان أو بعبدي أوثان من المؤمنين بالإلهة "سيرابيس" .

طلب "سيزار" مقابلة راهبة بعينها بعد أن أعطى كل حارس قطعة ذهبية ليُدخلوه إلى عالم الأوثان الإباحي حيث انتشرت الراهبات الشبه عاريات بجميع أنحاء بهو المبنى الضخم مداعبات الرجال الجالسين يحتسون الخمر ويلعبون النرد على القطع الذهبية وأصوات الضحكات الماجنة تعلو وتعلو حتى شعر "مركيان" بأنه يكاد يغشى عليه من فرط الشهوة

التي اجتاحتها فما يراه الآن هو بالجديد تمامًا عليه ، أما "سيزار" فلم تظهر على وجهه سوى علامات الابتسام الهادئة مراقبًا ما يحدث حوله حيث تأخذ الراهبة أحد الرجال صاعدة به إلى الدور العلوي لتمارس شعائر طقوسها الإباحية معه مقدمة نفسها ذبيحة حية لإرضاء الإلهة "سيرابيس" .

رفض كل من "مركيان" و "سيزار" شرب الخمر أو تناول شيء من اللحوم المتناثرة بكثرة على المناضد الفضية والنحاسية متبعين مسلك عدم الأكل لما دُبِحَ للأوثان أو شرب خمور المعابد الوثنية ، ولم يمضِ وقت حتى أقبلت الراهبة العاشقة الرائعة الجمال تتهادى في زيتها الحريري السماوي اللون ليراها "سيزار" نجمة في وسط نجوم السماء مخاطبًا نفسه بأن الفتى "أنطونيوس" عرف كيف يختار ، فتلك الراهبة الوثنية هي أجمل الموجودات داخل هذا المكان الجهنمي .

قدمت الراهبة يدها مصافحة "سيزار" الذي أخذها مقبلاً إياها لتطلق منها ابتسامة إطراء على ما فعله الشاب الصغير ، بينما حياها "مركيان" من بعيد لتقول له في ود وترحاب شديدين :

- أنت سيزار فابيان ابن التاجر الكبير فابيان الآريوسي.

ابتسم "سيزار" ناظرًا إلى ابن عمه في فضول قائلاً :

- لم أكن أعرف أن شهرتي قد ملأت الثغر السكندري كله حتى سمعت عنى الراهبة الجميلة .

انطلقت ضحكة ماجنة من الراهبة قائلة :

- و إذا لم أعرف ابن أحد أثرياء المدينة فمن سأعرف ..
بظريركها و فقرائها ؟!

مال "سيزار" عليها مقترباً منها جداً حتى لامس جسده جسدها
قائلاً في هدوء هامساً :

- ألا يوجد مكان منفرد يمكن أن نتحدث فيه .
رفعت الراهبة حاجبها الأيسر قائلة :
- أنت وصديقك أم بمفردك ؟
- لا ، بمفردي ، صديقي سينتظرنني ها هنا .
- لكن ثمني غالٍ جداً !
- الغالي والتمين يلقي تحت أقدامك ، أيتها الساحرة
الجمال .

ابتسمت الراهبة آخذة الفتى من يده صاعده به وهو يكاد يأكل
جسدها الناري الظاهر من تحت الملابس الشفافة التي ترتديها
بعينه ، و "مركيان" واقفاً بمفرده يتابعه منادياً عليه بينما هو
يلوح له بالصمت حتى اقتربت من "مركيان" إحدى الراهبات
آخذة إياه من يده مبتعدة به .

اختلت الراهبة "سيزار" في غرفتها الفخمة المزودة بالسرائر
الحريرية التي تغطي كل حوائط الغرفة ، بينما في كل ركن
يوجد أزهار اللوتس الشهيرة ، وهناك مبخرة فضية على أحد
الجوانب تنطلق منها رائحة بخور أخاذة تسلب العقول وتؤجج

الشهوة .. جلست الراهبة على الفراش ليظهر جسدها الغض
بأكمله على ضوء المشاعل النارية بينما وقف "سيزار" ينظر
إليها مريدًا التهامها لكنه قرر أن يدخل في صلب الموضوع
القادم من أجله قائلاً :

- أتعرفين "أنطونيوس غاليلوس" ؟

انتبهت الراهبة إلى سؤال "سيزار" ناهضة من رقودها ،
جالسة على الفراش ، ناظرة إليه بتمعن شديد ، وقد ظهرت
على وجهها ابتسامة صفراء خبيثة قائلة :

- لِمَ هذا السؤال ؟

جلس "سيزار" على أقرب مقعد مواجه للسريـر قائلاً :

- إذا كنتِ تعرفينه صار بيننا اتفاق ستكسبين من ورائه
الكثير ، وإذا لم تعرفيه خسرتِ الاتفاق .

أخرج "سيزار" كيسين من العملات الذهبية الممتلئة عن
آخرها واضعًا إياهما أمام الراهبة التي لمعت عيناها عند
رؤية الكيسين المفتوحين وبريق الذهب قد شع منهما نتيجة
انكسار ضوء المشاعل النارية عليهما ليسطع في جانب
الغرفة ، فتقول محاولة ابتلاع ريقها بصعوبة :

- وما هذا الاتفاق أيها الرجل الغني ؟

ظهرت علامات المكر على سمات "سيزار" قائلاً :

- لم تجيبي على سؤالـي ، هل تعرفينه ؟

- نعم أعرفه عز المعرفة .

- إذن في هذه الحالة بيننا اتفاق .

- وما هو هذا الاتفاق ؟

- أولاً ، أحكي لي عنه وكيف عرفتيه ؟ وماذا تفعلان مع بعضكما البعض ؟

نظرت الراهبة إليه بخبت شديد بعينيها المكحلتين الناريتين قائلة :

- وما علاقة هذا بالاتفاق ؟

أخرج "سيزار" كيسين آخرين من العملات الذهبية واضعاً إياهما بجانب الكيسين السابقين قائلاً لها بالأمر :

- احكي .

فبدأت تحكي الراهبة أنّها عرفتة منذ ما يقارب العامين عندما جاء مع أحد الأصدقاء له ورأته ورآها ودامت بينهما عشرة لطيفة حيث يجد لذته ومتعته معها معتبراً منها صديقته وحبيبته وعشيقته وأخته وكل شيء في حياته ، فهو يتعرض للضرب المبرح والاضطهاد من قِبَلِ أبيه بقسوة فيأتي إليها لكي تعالجه وتضمد جروح ظهره الدامية باستمرار من كثرة الضرب بالعصا الحديدية ، ولا يوجد أكثر من هذا أو أقل .

قال "سيزار" بصوت هادئ :

- وأنتِ تعتقدين أنّك ستحاولين التأثير عليه للتحويل إلى الوثنية وعبادة سيرابيس .

- وما المانع في ذلك ؟ إنّهُ يحبني ويمكن أن يفعل أي شيء أطلبه منه .

صفق "سيزار" بتهكم قائلاً :

- إنك تحلمين يا صديقتي الراهبة ، إنَّ "أنطونيوس" لا يمكن أن يترك المسيحية فأبوه في الحال يقتله .

ردت الراهبة بثقة قائلة :

- إنَّه يكره أباه ولا يريد به في حياته .

قاطعها "سيزار" :

- لكنه لن يترك المسيحية ، إنني أؤكد لك هذا وإذا لم تصدقي اطلبي منه .

أخذت الراهبة نفساً عميقاً مطلقة إياه دفعة واحدة قائلة :

- لقد طلبت منه بالفعل وفي كل مرة يتهرب مني ثم

يعود مجدداً حتى أنَّ رئيسة الكهنة قد سئمت منه .

- هذا هو الطبيعي ولا تنتظري منه المزيد فهو أجبن من

أن يتحول إلى الوثنية ، ليس رجل مواقف ، لن

يضحي من أجل حبه - إذا كان في الأساس يحبك ،

إنَّك بالنسبة له هروب من واقعه المرير المؤلم مع

أبيه.

تمعنت الراهبة في "سيزار" قائلة :

- إنني أعرف هذا لكنني أعطيه الوقت الكافي لعل

وعسى تتغير تلك النظرة منه لي .

- وإنني أضمن لك أنَّك ستنتظرين العمر كله ولن يحدث

شيئاً ، وغداً يزوجه أبوه ولا ترينه مجدداً .

- إذن ليكن ، لن أخسر شيئاً فهو يدفع ثمن متعته معي

وذلك يكفيني الآن .

- وهذا ما أريده منك أيتها الراهبة لإلهك الرحيم .

فتحت الراهبة عينيها وأصغت جيداً لما يريده "سيزار" ليتم بينهما اتفاق سينفذونه على أثره ثم أخذت أموالها الذهبية ليغادر الشاب فرحاً مسروراً لنجاح أول جزء من خطته الانتقامية .



- الانتقام لا يولد سوى انتقاماً ، ويدخل الجميع في دائرة الدم .

هكذا تحدث المعلم الصالح إلى كل من الثلاثة شباب القابعين أمامه في حديقة داره الصغيرة ، ليرد عليه "ابن كوزموس" قائلاً :

- وما الحل غير الانتقام ؟ يجب أن يكون هناك رد فعل قوي وحاسم لما يفعله الأريوسيون والوثنيون واليهود . ربت المعلم على لحيته البيضاء قائلاً :

- لو كان أراد المسيح أن ينتقم من صالبيه لكان فتك بهم وهو كفيل وقادر على ذلك . قال "ابن روفئوس" :

- لكن بعد ذلك لم يوجد حجر على حجر ، وتشتت أبناء اليهود عقاباً .. الله منتقم .

أمسك المعلم عليه ها هنا قائلاً :

- نعم ، الله هو المنتقم وليس نحن ، دع الله ينتقم لأنه هو الوحيد الذي له النعمة مجازياً .

قاطع "أنطونيوس" في حدة شديدة قائلاً :

- لقد ترك الله العالم ، وإلا لِمَ أمعن الوثنيون سابقاً في تعذيبنا واضطهادنا ، واليوم الآريوسيون يكملون المسيرة ، لِمَ لا يتدخل الله ويبدد الأشرار ؟!

أجاب المعلم قائلاً :

- الله لا يبيد ، لأنه يريد الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يُقْبَلُونَ .

ابتسم "ابن كوزموس" قائلاً :

- أتريد أن تقول لي إنَّ أشخاص مثل أصحاب البدع سيتوبون ويخلصون ؟ هيهات أيها المعلم الصالح ، ليس لديهم فرصة واحدة .

اعترض المعلم الصالح على مثل تلك اللهجة التي يتفوه بها الثلاثة طلاب ، مكملاً لهم قصته عن "أريوس" الذي أرسل الله أكثر من مرة لتحذيره وتنبيهه منذ عهد "البابا بطرس" وحتى عهد "البابا أثناسيوس" لكن الإنسان هو الذي لا يريد أن يسمع صوت الله ، لذا فعند نفي "البابا أثناسيوس" أرسل "القديس أنطونيوس الكبير" أب الرهبان رسالة تعنيف وتأديب إلى الإمبراطور "قسطنطين" يحثه على الإفراج عن البابا لكن لم تفلح ، ليزيد الموقف تعقيداً في الإسكندرية خاصة وربوع مصر عامة بعد أن سلَّم المصارع الأيكم نفسه إلى

العدالة الرومانية معترفاً بقتله المصارع الأسود الأريوسي بدون قصد نتيجة الدفاع عن النفس ليتم حبسه بسجن القلعة الرومانية المقام على أطراف المدينة ، بينما ذهب "أريوس" مع "أوسابيوس النيكوميدي" إلى مدينة "تريف" حيث "البابا أثناسيوس" في منفاه ، وبعد دخول الوساطة الكنسية تم اللقاء لعل وعسى يتوصل كلا الطرفين إلى حل ، وجلس الثلاثة على منضدة واحدة ، ففي طرف نجد "أوسابيوس" و"أريوس" وفي الطرف الآخر جلس "البابا أثناسيوس" وحيداً ناظرًا إليهم بتمعن شديد قائلاً :

- ما الذي يمكن أن يقدمه رجلٌ أعزل منفي إليكم ؟
- ابتسم "أوسابيوس" قائلاً بصوت رزين مصطنعاً الوداعة :
- أنت من صَعَدَتِ الأمور إلى تلك الحالة .
- أمسك "أثناسيوس" لحيته بيده اليمنى مربتاً عليها قائلاً :
- كيف أيها الآباء الأفاضل ؟
- تدخل "أريوس" قائلاً في حدية :
- تعنتك المستمر لي ولأتباعي هو من وضعك في منفاك.

- رد "أثناسيوس" محاولاً أن لا يتعصب ، قائلاً :
- أكنت تظن أنني سأتركك تهدم المسيحية ؟
- قاطعته "أريوس" قائلاً :
- ومن أنت يا أثناسيوس ، أَصَدَقْتَ أَنَّك حامي الإيمان وبطل كنيسة الله كما دعاك الإمبراطور ؟ ما الحال الآن بعد أن نفاك وحيداً ؟

اقترب "أثناسيوس" ناظرًا بعينه الغاضبتين ، قائلاً بصوت خافت :

- أنت تعلم حيلك جيداً التي استخدمتها ببراعة في إقناع الإمبراطور وتلفيق التهم التي تجيدها وليس بالمسيحية شأنًا .

هاج "أريوس" خارجًا عن شعوره ليعلو صوته قائلاً :

- أنا ليس لي ذنب بل أفعالك الرديئة وطموحك الدنيء هو الذي أوصلك إلى هذا المكان ، لقد انكشفت الأعياب القذرة .

تدخل "أوسابيوس" محاولاً تهدئة الوضع المشتعل بين الطرفين قائلاً بهدوء :

- يا آباء ، نحن في النهاية رعاة في كنيسة الله وما حدث قد حدث ، ويمكن السيطرة على الأمور وعدم تفاقمها. تطلع إليه "أثناسيوس" قائلاً :

- كيف ؟

رد "أوسابيوس" في خبث قائلاً :

- نصل إلى معاهدة سلام متناسين مجمع نيقية .

طرق "أثناسيوس" بيده على المنضدة بقوة قائلاً :

- إذا انطبقت السماء على الأرض لن تزول كلمة أو حكم من أحكام مجمع نيقية .

تدخل "أريوس" محتدًا قائلاً :

- أرايت أيها الأسقف أوسابيوس العزيز ؟ ألم أقل لك أنه عنيد ومتكبر ؟ ألا ترى من حولك أن كل ما صنعه

يداك قد ذهب مع أدراج الرياح ، وأن الإمبراطور في صفنا الآن ؟

استعاد "أثناسيوس" هدوءه قائلاً :

- إلى حين يا عزيزي "أريوس" .. إلى حين ، يمكن أن تكون قد ربحت جولة بخبتك ودهائك لكن المعركة داخل كنيسة الله ما زالت مستمرة ، ومن يدري ماذا يحمل الغد ؟

قاطعته "أريوس" قائلاً :

- الغد لنا يا "أثناسيوس" ، الغد وبعد الغد وإلى دهر الدهور .

ابتسم "أثناسيوس" قائلاً بتهكم :

- أهدأ يا صديقي ودع التاريخ هو الذي يحكم على الجميع ، عليك وعليّ لنرى من الذي سيكتب الله له النصر ، لا تتعجل نهايتك .

انتفض "أريوس" من مكانه قائلاً :

- هيا بنا أيها الأسقف "أوسابيوس" ، لندعه يتعفن هنا في منفاه وهنيئاً لنا بالإسكندرية وشعبها .

أمسك "أوسابيوس" بيد "أريوس" طالباً منه الاستكانة والهدوء لأن العصبية المفرطة لن تؤدي إلى شيء ، ليعود "أريوس" جالساً وقد احمرَّ وجهه من الغيظ الشديد بينما ملامح الهدوء والوداعة قابضة على وجه البابا ليتدخل "أوسابيوس" قائلاً :

- الأسقف العزيز "أثناسيوس" ، نحن نعلم عن خطاباتك التي ترسلها للشعب السكندري لتهيج الرأي العام

ضدنا ، وهذا ليس من صالحك لأن المناوشات وسط الشعب زادت وتحولت إلى احتكاكات واضطرابات أثارت قلاقل كبيرة داخل الثغر السكندري ، والإمبراطور لا يرضيه هذا الحال بالمرة .

تطلع "أثناسيوس" إلى "أوسابيوس" مستغرباً من منطقته قائلاً :
- أنا راعي كنيسة الله في الإسكندرية ، ومن الواجب أن أنبه شعبي للسم الآريوسي القابع في وسطهم .

تدخل "آريوس" ليتحدث ، بينما منعه "أوسابيوس" ناظرًا إليه نظرة ذات مغزى ليصمت الأول ويكمل الأخير قائلاً :

- نحن لدينا صفقة عادلة لك ، إمّا أن تقبلها وننهي هذا الوضع المشين لك ، أو ترفضها ووقتها لا تسألنا عما سيحدث بعد ذلك .

رد "أثناسيوس" قائلاً :

- وما هي الصفقة العادلة تلك ؟

أفرد الأسقف صفقته ببراعة حيث طلب من البابا أن يتراجع عن مهاجمته "لآريوس" وأتباعه ، وأن الثغر السكندري مدينة كبيرة عليه وعلى رجاله ولا مانع من مشاركتهم له حيث يعفون عن "آريوس" ويردونه إلى رتبته الأولى الكهنوتية مع رسامته أسقف بكنيسة الإسكندرية ، والسماح له ببناء كنائس له ولأتباعه ، وفي هذه الحالة سيكلمون الإمبراطور للعفو عنه وعودته بكرامة مرة أخرى إلى كرسيه المرقسي السكندري لممارسة أعماله كسابق عهده ، ليعيش الجميع في

سلام ولا يتعدى أحدٌ على أحدٍ ، وإذا رفض وقعت سوء العاقبة على رأسه ورأس أتباعه لأن ما زال في جعبتهم الكثير وأولها الإمبراطور وأخته .

صمت "أوسابيوس" عن الكلام متطلعًا بشغف إلى "أثناسيوس" وحال "أريوس" هكذا أيضًا ، وما من البابا إلا أن أثر الصمت فترة ليقول له "أريوس" متشفياً :

- إنه عَرَضٌ مغرٍ وإذا أردت فرصة لكي تفكر فلا مانع.

رفع البابا يده اليمنى طالبًا من "أريوس" الكف عن الكلام ، فصمت الأخير لينهض "أثناسيوس" من مجلسه قائلاً وقد ظهرت على وجهه ملامح الجدية والحزم :

- لكي يحدث ما تريدونه يا آباء يجب أن تقتلوني أولاً ،

فأنت محروم يا "أريوس" من فم الثالوث القدوس منذ عهد "البابا بطرس" ، ويكفي الرؤيا التي تألم فيها بسببك قبل استشهاده ومهما فعلت من حيل والأعياب ووصلت إلى الإمبراطور أو غيره فلن ينفعك شيء ، هكذا قال الله وهكذا أنقله لك أنا البابا أثناسيوس بطريرك الكرسي السكندري شئت أم أبيت ، ورجوعك إلى حضن الكنيسة السكندرية مرفوض حتى يوم القيامة إلا إذا تراجعت عن تعاليمك المضللة وقدمت توبة .. انتهى الاجتماع .

انتفض كل من "أريوس" و"أوسابيوس" وعلامات الغيظ والضيق ظاهرة على وجوههم التي اصطبغت باللون الأحمر

بينما أعطاهم البابا ظهره متوجّهاً إلى باب الغرفة ليستوقفه
"أوسابيوس" منادياً عليه قائلاً :

- أثناسيوس .

توقف البابا بدون أن يلتفت إليهم ليستمع إليه فاستطرد
"أوسابيوس" قائلاً :

- العالم كله ضدك يا "أثناسيوس" .

صمت البابا لبرهة من الوقت وقد انغلق حاجباه وتوقف
الزمن أمام ذلك المشهد الرهيب ليرفع يده اليمنى مشيراً
بأصبعه السبابة بمفردها ناحية الأعلى قائلاً في هدوء
وصلاية شخصيته القوية :

- وأنا ضد العالم .



ارتشف المعلم الصالح بعضاً من الماء ، والثلاثة أصدقاء
قابعون أمامه كالأطفال الصغار ومعالم البطولة الواضحة في
الحديث السابق حيث أعلن "البابا أثناسيوس" تحديه للعالم كله
وعلى رأسهم الإمبراطور "قسطنطين" و "أريوس" وأساقفته
وجميع أتباعه ، مفضلاً المنفى على العودة ومشاركة
الآريوسيين إثمهم الفظيع ، حيث عزل "أريوس" الله عن
البشرية مقدّماً إياه كائنًا جامدًا لا غياً الحب الإلهي بين الثالوث
القدس مفسدًا سر الخلاص متجاهلاً النبوات ومنكرًا تجديد
طبيعتنا خلال التبني والاتحاد مع الله الآب في ابنه ، ليكمل
المعلم حديثه عن موت "قسطنطين" وتقسم المملكة بين أبنائه

حيث تولى ابنه "قسطنطين الصغير" الحكم سامحاً للبابا بأن يعود إلى كرسيه بمجد وإكرام كامل ليهيج "أريوس" وأتباعه مثيرين القلاقل والاضطرابات ، وحاول البابا أن يُخْرِجَ المصارع الأَبْكَم من سجنه إلا أنَّ اعترافه بجريمته جعل ذلك مانعاً ليشعر البابا بالندم لأنَّه هو من تسبب في ذلك ، فحاول جاهداً مع والي الإسكندرية وقتها أن يخفف من عذابه داخل السجن حتى تنتهي فترة العقوبة ، وكان يزوره باستمرار مناوئاً إياه من الأسرار المقدسة معزياً إياه في شدته تلك ، ولم يستمر الوضع كثيراً هكذا حيث قتل "قسطنطين" الصغير وتولى "قسطنطينوس" الحكم واستطاع "أوسابيوس" بحيله وكلامه الناعم أن يسيطر على الإمبراطور وأفراد عائلته كلهم ليقنعه باستصدار أمر بعقد مجمع "بأنطاكية" عام ثلاثمائة وأربعون نافياً "أثناسيوس" الذي اتجه إلى روما حيث المودة والصفاء مع بطريركها "يوليوس" ، وتم إرسال رجل من قِبَل الأسقف "أوسابيوس" يدعى "يسطس" لإدارة شئون الكنيسة السكندرية لكن لم يفلح الأمر حيث عقد أساقفة مصر مجمعاً كبيراً في الإسكندرية حضره ثمانون أسقفًا احتجاجاً فيه على تلك الأعمال رافعين صوتهم إلى الإمبراطور لكن كل ذلك باء بالفشل الذريع فهاجت الإسكندرية بشعبها حتى عُدَّ مجمع آخر في عام ثلاثمائة وواحد وأربعون بمدينة أنطاكية حضره الإمبراطور شخصياً ليؤيد حكم العزل بل والأخطر من هذا ألا وهو تنصيب بطريرك جديد للشعر السكندري يدعى "غريغوريوس الكبادوكي" ، وهرب البابا "أثناسيوس" إلى

براري مصر متنقلاً من دير إلى آخر وهبت أعاصير وزوابع وعواصف أهالي الثغر المسيحيين متظاهرين على ذلك الدخيل الذي سيصل إلى الإسكندرية لتولي شئون أعماله الرعوية ، ليظهر مرة أخرى على الساحة المصارع الأبكى وتتجلى أعماله في الدفاع عن الكنيسة .

قاطع "أنطونيوس" المعلم قائلاً :

- أليس المصارع في السجن ؟

تمعن المعلم الصالح في سماء الإسكندرية الصافي الرائق قائلاً :

- نعم ، وكنت أزوره تقريباً كل يوم حتى حدث ما حدث معه .

ظهر الاندهاش الغريب والفضول العجيب على وجه الأصدقاء مستفسرين عن ماهية ما حدث ، ليكمل المعلم ذكرياته الأليمة عن صديقه الأبكى الذي شرب المر كؤوساً عندما تغيرت إدارة السجن إلى جنود آريوسيين تحت قيادة والي للإسكندرية آريوسي في عهد الإمبراطور "قسطنطينوس" ليلاقي العذابات والإهانات والاضطهادات الشنيعة داخل السجن لأجد به كل يوم قطعة من جسده تنزف أو تدمي أو متورمة وهو حال نفسه دائماً شاكراً الله ، وقع ذلك الضخم في المصيدة معاملين إياه معاملة الحيوانات حتى إنهم في يوم التف حوله الجند مع رئيس السجن محاولين استنارته بأي طريقه مذكّرين إياه بأيام مجده العتيقة في حلبة المصارعة والنساء اللواتي كن يخطئ معهن طالبين منه أن يريهم فحولته مع امرأة ، وبالفعل أتوا له

بزانية لكنه المسكين لم يلتفت إليها ودموعه مناسبة على خديه حتى قرر طبيب السجن الآريوسي أن يقوم بإخصائه ، وبالفعل حدث ولم يجدوا أدنى مقاومة منه ليقوم الطبيب بعملية جراحية ناهياً عهد الرجولة للمصارع الذي فضل حياة البتولية منذ أن ترك عهد الوثنية وتحطمت نفسيته جداً لفترة من الوقت لكنه استعاد عافيته الروحية بعد ذلك حتى علم من حرس السجن أن البابا "أثناسيوس" قد نُفي مجدداً وأنَّ هناك بطريك جديد في طريقه للثغر ليأخذ مكان البابا ، وما أن تأكد المصارع مني لأنني كنت أداوم على زيارته معزياً إياه حتى دبّت فيه قوة غريبة في ليلة موحشة من ليالي السجن اللعينة متشبهاً "بشمشون الجبار" ليخرج عن صمته مستجمعاً كل ما أُوتي من قوة طالباً من الله المعونة ، محطماً السلاسل الحديدية المربوطة بجدران السجن ولا أحد يعلم حتى الآن كيف حدث هذا ليصبح كالحصان الجامح مطيحاً بكل الجنود الذين أمامه وهو أعزل لا يمتلك سوى يديه العاريتين فقط ليترك وراءه كومة من الجنود القابعة على أرضية السجن تنزف دماً غزيراً من جراء ضرباته الموجعة الصائبة ليستطيع أن يهرب من سجن القلعة الروماني مثيراً رعباً عظيماً بين الحامية الرومانية والجالية الآريوسية حتى أنَّ الوالي السكندري ارتعش وهو جالس على كرسي الولاية ، فهو لا يريد إثارة أعمال شغب قبل أن يصل البطريك الجديد الذي تحركت سفينته الرومانية الإمبراطورية محملاً بمرسوم إمبراطوري من مدينة أنطاكية متجهاً إلى الثغر السكندري .

دخل المصارع الأبكى إلى كنيسة "بوكاليا" بعد انتهاء مراسم القداس الإلهي واجداً حزناً عظيماً على وجوه المسيحيين جميعاً نساءً ورجالاً ، أطفالاً وشيوخاً ، أراملاً وأيتاماً لفقدانهم أبيهم المحبوب وراعيهم الأمين البابا "أثناسيوس" لتشتعل نار الغيرة المقدسة في قلبه وجسده كله منتفضاً في وسط الكنيسة صارخاً كالأسد الزائر صرخةً مُدَوِّيةً اهتزت لها أركان الكنيسة بل والإسكندرية كلها .

إنني أتذكر ذلك اليوم تماماً كأنه الآن حيث أيقظ بزئيره شعب الثغر السكندري كله من سباته مقررًا أن يُعلّم كل من يقدر على حمل السلاح كيفية الحرب ضد الدخلاء القادمين بل وضد الحامية الرومانية وعلى رأسها الوالي السكندري حتى يعود البابا إلى كرسيه معززاً مكرماً ، وبالفعل التف حوله جميع الرجال والشباب وبعض من النساء ليصنع ملحمة سكندرية عظيمة ضد الطغيان الروماني الآريوسي واضعاً الرعب في قلوب الآريوسيين جميعاً بل والوثنيين واليهود الذين يساندونهم مختلياً بأتباعه الأشداء الجبابرة البأس في صحراء الإسكندرية ، معلّماً إياهم فنون الحرب والكر والفر حيث أن شعب الإسكندرية المسيحي مسالم لم يحمل سلاحاً من قبل ولم يتدرب على التشكيلات الحربية العسكرية ، وفي زمن قياسي استطاع المصارع الأبكى إعداد فرق حربية منظمة قادرة على مواجهة الغزو والتصدي له ، وفي اليوم الموعود لرسو سفينة "إغريغوريوس الكبادوكي" اختفى جميع الشعب السكندري من الشوارع والطرق تماماً حتى اليهود

والوثنيون انصاعوا لأوامر بقية شعب الثغر المسيحي حيث حذروهم أن من سيتواجد بالأماكن العامة والطرق فليكن دمه على رأسه ، لتتحول مدينة الإسكندرية إلى مدينة أشباح خالية من الجميع في عز الظهر إلا من بعض أفراد الحامية الرومانية في طريقهم إلى استقبال السفينة الإمبراطورية بمجد وكرامة مستغربين من خلو الإسكندرية من شعبها الذي انزوى داخل مساكنه مفضلاً المشاهدة من النوافذ والشرفات والأسطح العالية فقط ، حتى السوق قد أغلق أبوابه في ذلك اليوم والتجار أغلقوا حوانيتهم والحمامات العامة أطفأت نيران مواقدھا وكان هذا هو السكون الذي يسبق العاصفة .

حلت السفينة الإمبراطورية الضخمة ترافقھا سفينتان حربيتان أصغر منها حجماً لتدخل ميناء الثغر السكندري بمهابة رومانية عظيمة حيث اصطف طاقمھا من الجنود الرومان على سطح المركب منتظرين الأوامر من قائد المركب بالنزول إلى أرض الميناء ، وما أن تطلع القائد إلى الميناء حتى رأى فيلقاً صغيراً من الجنود وعلى رأسهم قائد حرس الوالي السكندري الذي تعلل بأن الوالي أصابه داء الإسهال ولا يستطيع أن يبرح الفراش لذا أرسل مندوبه قائد الحرس ونفرًا من أعيان الأريوسيين لاستقبال البطريك الجديد الذي وطئت أقدامه شاطئ الإسكندرية ، ذلك الرجل ممتلئ الجسم ذو قسمات حادة بشعة المنظر وحاجبين كثيفين وذقن سوداء كثيفة الشعر وعيناه الجاحظتان تكاد تقذفان لهبًا لخلو الميناء من شعبها

الذي من المفروض أن يستقبله بالكرامة والمجد اللائق ،
ناظرًا إلى البحر الهائج قائلاً :

- غداً سأحول شوارع الإسكندرية إلى بحور من دماء
لإجبار هذا الشعب العنيد الغليظ الرقبة على طاعتي
وتبجيلي وإعطائي مكانتي الرعوية الإلهية .

بلغ رئيس الحرس ريقه بصعوبة عندما سمع ذلك طالبًا من
جناب البطريك سرعة التحرك إلى حيث مكانه بقصر الوالي
السكندري فتساءل "إغريغوريوس" عن قصره هو فأعلمه
رئيس الحرس أن الوقت لم يسعفهم لبناء واحد جديد ، ومن
المستحب أن يقيم بالجناح الملكي الخاص به بقصر الوالي
المطل على البحر وذلك أمنًا لشخصه وحماية له ، فافتتح
البطريك على مضض ليسير الموكب بالزغاريد والطلل
والزمر والصنوج والدفوف وقلة قليلة من شمامسة الأريوسيين
يتقدمون الموكب مرتلين لحن يا (ملك السلام) باللغة اليونانية
تمجيذًا لدخول بطريركهم إلى الإسكندرية راكبًا على جواده
الحربي محاطًا بالفرسان الرومانية وفرق المشاة العسكرية
الحاملة الصلبان الذهبية والفضية ، وما استغرب له الجميع
هو الطرقات الخالية حتى المتسولون قد اختفوا تمامًا ليسأل
"إغريغوريوس" رئيس الحرس قائلاً :

- أين الشعب السكندري ؟ هل مات ؟

قهرقه "إغريغوريوس" على دعابته تلك بينما نظر إليه رئيس
الحرس بخوف وارتياح قائلاً :

- اليوم يوم الأحد ، يوم الرب وهو عطلة رسمية بالإسكندرية ، لا يعمل أحد أو يفتح السوق أبوابه ، غداً سيقم الوالي احتفالاً مهيباً لقدم نياقتكم .

ابتسم "الكبادوكي" مغتبطاً بهذا الحديث ، وفجأة ظهر رجلٌ ضخْمُ الجثة ، مرتدياً عباءة طويلة ، متلفحاً بغطاء للرأس فلم يستدلوا على شخصه بينما هو ثابت بمكانه يفصل عنهم بحوالي مائة ذراع ، رافعاً يده اليمنى ملوحاً لهم بأن يعودوا من حيث جاءوا فاغتاظ "الكبادوكي" وقائد المركب من هذا الفعل الأهوج حيث يعترض أحد العوام موكب البطيريك الإمبراطوري حتى صاح قائد المركب قائلاً :

- من هذا الثور الذي يعترض طريقنا ؟

اقتشعر بدن رئيس الحرس وظهر القلق على وجهه والعرق يتصبب من على جبينه ظاهراً بوضوح من خلف خوذته الحديدية قائلاً :

- لا أعلم .

أصاب "الكبادوكي" الضيق والضجر صائحاً بصوتٍ عالٍ :
- ابتعد يا هذا ، فأنا البطيريك إغريغوريوس الكبادوكي بابا الإسكندرية الجديد ، أظهر كرامة ومجداً لي .

هبّت رياح قوية قادمة من البحر الهائج بأمواجه العالية لتزيح غطاء الرأس من على وجه الرجل الضخم ليظهر بشخصه أمامهم مصيباً الجميع بصاعقة من السماء حلت على رؤوسهم فجأة لينطق رئيس الحرس بصوت خافت قائلاً :

- لن يمر هذا اليوم بسلام ، إنَّه المصارع الأَبَكم .

نظر "الكبادوكي" غاضبًا إلى رئيس الحرس قائلاً :

- أبَكم أو أصم ، يجب أن يعاقب هذا الشخص لاعتراضه
موكبنا المقدس .. يا حراس أقبضوا عليه .

لم يتحرك أحدٌ من الفيلق السكندري قيد أنملة لأنهم يعرفون
ماهية المصارع الأَبَكم وما يجهزه لهم من مفاجآت دموية ،
ليغتاز "الكبادوكي" معيِّداً الأمر بصوت مرتفع أكثر وأكثر
حتى نظر له رئيس الحرس قائلاً :

- أعذرنا نيافتك ، فهذا الرجل مجرم خطير .

التفت قائد المركب ناظرًا إلى قائد الحرس باشمئزاز قائلاً :

- إذا لم يقدر عليه رجالك الجبناء الضعفاء ، فأنا سأريك
قوة رجالي البواسل الشجعان .. يا جنود السفينة
الإمبراطورية اقبضوا على هذا الرجل حالا واقتادوه
أسيرًا إلى السجن .

نظر رئيس الحرس بخوف عظيم إلى الجنود الذين بدأوا
بالتحرك فور تلقيهم الأمر بالهجوم على المصارع الذي لم
يتحرك من مكانه مما أصاب الجميع بالذهول طانين أنَّه
مجنون أو معتوه ما عدا رئيس الحرس الذي يعلم جيدًا قوة
ذلك الرجل الذي أمامه ، وما أن اقترب الجنود أكثر وأكثر
منه حتى ظهرت يد المصارع الأخرى الذي كان مخفيًا إياها
وراء جسده ممسكًا بها فك حمار يابس ، فابتسم بعض الجنود
بينما "الكبادوكي" قهقهه من الضحك ومعه قائد المركب .

لم يتبقَّ سوى بضع خطوات من المصارع حتى سمع صوت بوق عظيم شقَّ سكون السماء ، فارتجت له أركان الثغر السكندري كله ليدب الخوف والرعب بقلوب الجميع وتتهمر من السماء عليهم حجارة مشتعلة بالنيران الحارقة ليبدأ الجنود في عمل غطاء بدروعهم الحديدية الثقيلة ويقوم المصارع بحصد بعضهم بفك الحمار فيقع أمامه أول الضحايا ، استل الجنود الرومان سيوفهم للدفاع للزود عن البطريك الجديد ليعزلوه سريعاً بحصانه عن حرب الشوارع تلك التي بدأت ولا يعلم أحد متى تنتهي .

سُمِعَ صوت هدير بشري قادم من جميع جوانب الإسكندرية ولم يعرف الجند أن يفرقوا بين هذا الصوت وصوت أمواج البحر الطاحنة واجدين أنفسهم فجأة محاطين برجال يحملون سيوف وخناجر لتبدأ معركة حامية الوطيس بين رجال الثغر السكندري المسيحيين وبين جنود الحامية الرومانية الذين أظهروا استبسالاً في الدفاع عن "الكبادوكي" الذي أصابه الرعب من حرارة الاستقبال السكندري .

بلغ خبر موقعة المصارع الأبرك إلى قصر الوالي السكندري الذي أمر كل جنوده بالتوجه فوراً إلى مكان القتال ومساعدة إخوانهم الجنود بينما تحرك عددٌ لا يستهان به من الأريوسيين المدججين بالسلاح وجنودهم المرتزقة الذين استأجروهم من بلاد أفريقيا للمشاركة في القتال والتخليق على جموع المسيحيين المقاتلين ، بينما امتنع اليهود والوثنيون عن المشاركة في مثل تلك الأعمال معتبرين أنفسهم ليس لهم ناقة

ولا جمل فيما يحدث متمنين من كل قلبهم أن يفتك الفريقان ببعضهم لتعود الإسكندرية لهم بمفردهم وثنية يهودية .

سالت الدماء أنهارًا مغرقة شوارع وطرقات الثغر السكندري حتى اختلط ماء البحر بالدماء المنسالة وتناثرت الجثث على جوانب الطرق ، ولم يتوان البحر في التهام بعض تلك الجثث التي سقطت فيه .

تفرعت المعارك داخل الحواري والأزقة لتقوم النساء المسيحيات بدورها في سكب الماء المغلي والزيت الحارق على وجوه الآريوسيين وأجسادهم ليركضوا محترقين لا يرون شيئًا أمامهم بالمرّة فيقعوا في مصيدة الأسر بيد المسيحيين ، فقد رأى المصارع أن يحتجز بعضًا منهم للمقايسة على حياة البابا "أثناسيوس" إن لزم الأمر ، وبالفعل قُتل من قُتل وأسرَ من أسرَ حتى بلغ التعب مداه من جميع الأطراف وأنقذت العناية الإلهية ذلك "الكبادوكي" من الموت ذلك اليوم ليسير في حراسة مشددة حتى وصل إلى قصر الوالي السكندري ويظل في عمره بقية لكن نيران الانتقام والغيرة والثأر لم تبرد لدى المصارع وأعوانه السكندريين الذين أعادوا تشكيل أنفسهم بسرعة غريبة ليعتقد من يراهم أنهم رجال حرب مخضرمون محنكون وليسوا متعلمين حديثًا فنون القتال الحربي الذي أجاد المصارع في تدريبهم وتعليمهم ، لكن لن يستطيع أن ينكر أحد أن الضحايا من المصابين والقتلى كان عظيمًا جدًا ليسترح الطرفان فترة من الزمن مستعدين لمعركة فاصلة قريبًا جدًا .

جن جنون "إغريغوريوس الكبادوكي" فدخل إلى كنيسة الإسكندرية وقتل بمساعدة الجنود الرومان خلقًا كثير من الشعب المسيحي السكندري حتى وصل الدم في الكنيسة إلى الركب ونهبوا آنية هيكل الرب وأفسدوا العذارى اللاتي كن فيها ليهرب أناسٌ إلى المغائر في الصحراء من هذا الاضطهاد العظيم الذي عم ربوع مصر ، وانتشر الآريوسيون في كل الأنحاء حتى وصلوا صعيد مصر وكان الأسقف "سراييون" بالصعيد يرسل البابا في مخبئه سارحًا له ما يحدث ليصلي "أثناسيوس" من قلبه إلى الله القوي ليرفع تلك الغمة عن الشعب المسيحي بأكمله في مصر حتى كتب الله لهم ذلك ونجح المصارع مع أعوانه في الفتك "بالكبادوكي" وقتله بالحراب بينما هو خارجًا من الكنيسة بالإسكندرية ، ليصل الأمر إلى الإمبراطور الذي انقلب وقتها على الآريوسيين لاكتشافه خداعهم أمرًا بإعادة البابا "أثناسيوس" من جديد إلى الإسكندرية ، وبالفعل كان يومًا عظيمًا مهيبًا حيث تم استقبال سفينة البابا الإمبراطورية بالترحاب ومن حب الناس قد نزلوا إلى البحر بالقوارب صانعين صفين عظيمين من القوارب المتراصة وراء بعضها وجميع الشمامسة يرتلون الألحان والتماجيد الكنسية الخاصة بقدم البابا سالمًا إلى كرسيه ورسى السفينة على الميناء السكندري ولم يستطع البابا ومن معه النزول إلى الشاطئ حيث كان الناس كالمح المنثور على الشاطئ ، ورويدًا رويدًا حاول أن يسيطر على مشاعرهم الجياشة إلا أنهم صمموا على حمله من أرض الميناء وحتى

الكنيسة ، وبالفعل حدث ولم تمس أقدام البابا الأرض ودموعه تنهمر منه دون إرادته أمام محبة شعبه الفياضة .

سأل "ابن كوزموس" :

- المصارع .. أين ذهب المصارع بعد ذلك ؟

فأجابه المعلم بأنّه اختفى داخل صحراء الإسكندرية مع بعض من أعوانه ولم يظهر بعد ذلك ، وكان كلما يحاول البابا الوصول إليه صده الآخر لشعوره بأنّه غير مستحق للشركة في الكنيسة مرة أخرى لتلوث يده بالدماء ، وانقطعت أخباره وحزن البابا جدًا لذلك .



(٩)



- ذلك لا يجوز يا "مارثا" .

اختلى "سيزار" بأخته في دارهم قائلاً هذا مستغلاً عدم وجود أبويه ليظهر على وجه "مارثا" الحيرة من حديثه هذا ، سائلة إياه عن مقصده فأجاب بخبث شديد قائلاً :

- أنا أعرف كل شيء .

امتقع وجه "مارثا" باللون الأسود وأصابتها غصة خفيفة بحلقها محاولة استجماع قوتها ومسح قطرات عرقها التي ظهرت على جبهتها فجأة قائلة بصوت مرتعش :

- عرفت ماذا يا "سيزار" ؟

ارتشف "سيزار" جرعة من الماء واضعاً الكوب الخشبي في مكانه قائلاً :

- علاقتك مع "أثناسيوس كوزموس" ، فأنا من أعطيته درساً في الآداب واضعاً بصمتي على وجهه هو وأصدقائه .

وقع طبق الطعام من يد "مارثا" متلعثمة ليقترّب منها أخوها هامساً قائلاً :

- ما الذي أربكك هكذا ؟ إنني عرفت أم إنني سأبلغ أبانا بذلك ؟

وضعت "مارثا" يدها على فم أخيها شاعرًا ببرودة أناملها الصغيرة قائلة بارتباك شديد :

- ماذا تريد مني ؟ أنا أحبه .

نزع يدها الباردة من على فمه قائلاً ببرود شديد :

- حب باطل ولا يجوز في النهاية إشهاره لأنك آريوسية

الجنس وهو أرثوذكسي الجنس ، فما الحال الآن يا أختي العزيزة ؟

حاولت "مارثا" التقاط الطعام من على أرضية الدار قائلة :

- أكيد سنجد حلاً لتلك المشكلة .

ابتسم "سيزار" متهمًا قائلاً :

- كيف يا ابنة أبي ؟ أقول لك أنا ، إمّا أن يتحول هو إلى

الآريوسية متبعًا عقيدتنا ووقتها فقط أعرف أنك أخت

صالحة مدبرة ، أو أن تتحولي أنت إلى الأرثوذكسية

فوقتها تكون نهايتك ونهايته على يدي .. أي حل

تختارين يا أختي العزيزة ؟

ابتلعت "مارثا" ريقها بصعوبة بالغة ، لا تجد ما ترد به على

أخيها المستفز الذي أكمل حديثه قائلاً :

- لقد وعدت "مركيان" بأنك ستكونين له زوجة في عيد

القيامة القادم .

ارتعبت "مارثا" خوفًا من سماع ذلك الحديث الثقيل على قلبها

لتقول له بتردد :

- أنا لا أحب ذلك المركيان ، إنه متعجرف وأهوج .
- لكنه يحبك ويريدك ، وأنا أرى أنه أصلح شخص مناسب لك بدلاً من أن أبلغ أبي بما أعرفه .

ترك سيزار "أخته تفكر فيما قاله لها لتزن أمورها بعقلها واضعاً إياها بين خيارين مميتين لنفسها البائسة ، فإما أن توافق على الزواج من "مركيان" أو أن تقبل الفضيحة إذا عرف أبوها الذي لا يعلم سوى الله وحده ما سوف يحدث ، فهو شديد البأس قوى الشكيمة وأفعاله غير محسوبة .

قررت "مارثا" أن تبحث عن "أثناسيوس" سريعاً شارحة له الموقف المعقد الذي وقعت فيه لتكسر حاجز حياتها ذاهبة حيث المدرسة اللاهوتية منتظرة إياه على أبوابها ، وما أن خرج هو حتى رآها والخوف المميت ظاهر على وجهها فأخذها وابتعد بها بقدر الإمكان لمكان منزوٍ لرفضها أن يذهبوا إلى الشاطئ مكان لقائهم المعتاد ، جلس كل منهما قبالة الآخر وهو ممسك بيديها الباردتين المرتعشتين ووجهها قد تحوّل إلى اللون الأصفر الباهت ، ليسألها عن حالها فلم تستطع أن تجيبه في البداية فأخذها في أحضانه مدفناً إياها لتقول له بصوت منخفض مبحوح :

- لقد عرف "سيزار" بأمرنا .
- أخذ "أثناسيوس" نفساً عميقاً مخرجاً إياه على دفعة واحدة قائلاً :

- نعم ، أعرف فهو سبب تورم وجهي الأيام السابقة .
- وَلِمَ لَمْ تُبْلِغْنِي ؟

- ظننت أنه ليس له علاقة بحبنا بل بالتمثيلية الهزلية التي صنعناها من قبل ، لكن يبدو أن ظني كان خطأ .
- وما العمل الآن ؟
- الله يدبر ، لكن قبل كل شيء لم تجيبيني على سؤالي المرة السابقة للقائنا ، أتريدين أن تصبحي أرثوذكسية؟ صمتت "مارثا" لبرهة من الوقت ناظرة إليه بتمعن قائلة :
- وهل ترض بأن تكون أنت آريوسياً ؟
- ظهر الضجر على وجه "أثناسيوس" قائلاً :
- إنَّ بيني وبين الآريوسية عداً يا "مارثا" فأبي قد مات على يد رجل آريوسي في بلدتنا في زمن الاضطهاد الآريوسي لمعشر المسيحيين .
- أتعلم أنَّ أباي قد قتل أناساً أيضاً ؟
- اللعنة على تلك الحياة التي فرقت بين الناس وجعلتهم سافكي دماء ، بالأمس حكى لنا المعلم أنَّ طريق الإسكندرية كان ممتلئاً بالدماء في تلك الأيام الصعبة .
- أنا لا أعرف ماذا أفعل ؟ أنا أحبك يا "أثناسيوس" من كل قلبي .

- لمعت أعين "مارثا" لتسقط دموعها على وجنتيها بينما "أثناسيوس" يمسحها لها بيديه قائلاً :
- لا تبكِ يا حبيبتي فبكائك يمزق قلبي .
- وإن ارتضيت أن أكون أرثوذكسية فكيف سنفعل هذا ؟
- ظهر الاغتراب على وجه "أثناسيوس" قائلاً في لهفة :
- هل تريدين أن تكوني أرثوذكسية من قلبك ، مارثا ؟

أومأت "مارثا" رأسها بالإيجاب قائلة :

- إنَّ والدتي أرثوذكسية وقد تزوجها أبي قبل أن يتحول إلى الآريوسية وولدتني ، أما "سيزار" أخي فهو من زوجته الثانية الآريوسية التي تزوجها بعد اعتناقه الآريوسية مذهباً لكن لم يُكْتَب لها أن تعيش فقد ماتت عند ولادتها أخي الذي ربته أُمي لكن لم تستطع أن تسيطر عليه فهي ما زالت ثابتة على إيمانها القويم لكنها لا تستطيع أن تجاهر بإيمانها أمام أبي خوفاً من البطش بها ، أما "سيزار" فهو لا يحبني .

ربت "أثناسيوس" على رأس "مارثا" متلمساً شعرها الأسود الناعم الذي يصل حتى آخر ظهرها قائلاً :

- لم تقولي لي هذا من قبل .

- وجدت أنه ليس ذو قيمة ، لكن الآن بعد أن حدث ما حدث وقد أشعل حبك قلبي ولا أقدر أن أعيش بدونك ، رأيت أنه من الواجب أن أصارحك ، ألم تشعر بأنني قد أحببتك وأنت أرثوذكسي ؟ ولنا الآن قرابة العام نقابل بعضنا في الخفاء دون أن يعلم أحدٌ من أهلي .

أمسك "أثناسيوس" يد حبيبته مقبلاً إياها قائلاً :

- وأنا أقسم برحمة أبي الشهيد إنني لن أتركك مهما حبيت العمر كله ، فأنا أحبك حتى نهاية العمر .

نظرت "مارثا" بشوق جارف إلى حبيبها قائلة :

- إذن ماذا سنفعل يا حبيب القلب الغالي ؟

أنهى "أثناسيوس" لقاءه مع حبيبته على أنه سيتصرف سريعاً بخصوص أمرهم على أن تعود إلى منزلها وتنتظر منه أخباراً سعيدة .

لم يعرف "أثناسيوس" إلى أين يتوجه في البداية فسار الهوينى على شاطئ الإسكندرية ومشاعر الخوف والفرح تلازمه جنباً إلى جنب ، فالفرح لأنه تأكد من مشاعر الفتاة إليه وأنها ليست نزوة مراهة شبابية لينعم قلبه بالسلام والحب الطاهر ، أما مشاعر الخوف في كيفية تحويل "مارثا" من آريوسية المعتقد إلى أرثوذكسية المعتقد ليجد نفسه أمام دار المعلم الصالح وما هي إلا لحظات حتى جلس كل منهما قبالة الآخر يتحدثان في شتى أطراف المواضيع التي تتعلق بالإسكندرية وشعبها المؤمن والأحوال السياسية ، والمعلم الصالح لديه إحساس دفين أن وراء الشاب شيئاً ما لم ينطق به بعد حتى أنهى "أثناسيوس" كل أحاديثه الجانبية صامتاً لبرهة من الوقت محتسباً قليلاً من الماء ليقول مستفسراً ناظراً إلى لهيب الشمعة التي تضيء المكان :

- يا معلم ، كيف يتحول الإنسان من آريوسي إلى أرثوذكسي ؟

أمسك المعلم بلحيته البيضاء مخرجاً شعرة بيضاء منها واضعاً إياها في لهيب الشمعة لتحترق قائلاً :

- إنَّ "آريوس" كان (أناثيما) بسبب هرطقته وجميع أتباعه هراطقة ، وتبعاً لقوانين مجمع قرطاجنة المنعقد عام مائتان وسبعة وخمسون ميلادي بخصوص قضية

عماد الهرطقة والتي أكَّدها مجمع نيقية فيما بعد
متمثلة في أنَّ مَنْ عُمِدَّ على الإيمان القويم واتبع ملة
الهرطقة وعاد إلى رشدِه لا يعاد تعميده لأن
المعمودية مرة واحدة ، أما مَنْ عُمِدَّ على يد الهرطقة
فهذا هو ما يجب تعميده .

ظهر غم وحزن على وجه الشاب صامتاً لبرهة من الوقت ثم
عاد وقال :

- وما العمل إذا لم تكن هي مُعَمَّدَةٌ على الإيمان القويم
لكن والدتها علَّمتها الفرق بين الإيمان المستقيم
والإيمان الأريوسي المنحرف ؟

تمعن المعلم الصالح في وجه الشاب قائلاً بصوت هادئ
منخفض :
- أعطني ما لديك .

فبدأ "أثناسيوس" يحكي لمعلمه كل شيء من البداية منذ أنَّ
تعرف بمارثا عالماً أنَّها أريوسية المبدأ لكنه عاش على أمل
أنَّ تتغير لمذهبه حيث إنَّها لم تمنع على إقامة علاقة بينهما
عالمه أنَّه من أصحاب المذهب المستقيم الأرثوذكسي ،
ورويداً رويداً نما بينهما الحب الطاهر الجميل متحولاً مع
الأيام إلى علاقة متينة قوية لا يعرفان الهرب منها أو إنهاءها
شاعرين بأن هناك خيط خفي يربط بين مصائرها يريد
توحيدهما بجسد واحد ، وقال الشاب :

- وعندما علم أخوها الأريوسي المتعصب الذي كان يراقبنا طيلة المدة المنصرمة وهو الذي تورم وجهي بسببه ومعني "ابن روفوس" ، واليوم قد هدد أخته بفضح علاقتنا لوالدها الذي هو شخص أريوسي متعصب معروف للجميع في الإسكندرية ، ألا وهو السيد "فابيان" التاجر الثري والمحامي الأول عن الأريوسية بضراوة وله كلمة مسموعة وهيبة وسط أتباعه ومعارفه وعلى صلة بقصر الوالي السكندري ، وما زاد الطين بللاً هو ضغط أخيها عليها لتزويجها من ابن عمها وهي ترفض ذلك من كل قلبها مريدة التحول إلى الأرثوذكسية الأصلية .

أنهى الشاب حديثه حيث لم يأخذ فرصة لالتقاط أنفاسه بل قالها دفعة واحدة ، ومن ثم انتظر ردًا من معلمه الذي نهض من مجلسه بتؤدة شديدة مفضلاً التمشية البطيئة بأركان الغرفة ذهابًا وإيابًا وعلى وجهه ملامح التفكير الجادة والجدية الحازمة واقفًا مواجهًا الشاب مغمضًا عينيه لفترة ممسكًا بلحيته بيده اليمنى ليظل على هذا الحال لمدة لحظات ثم قال :

- بذلك سوف تشعل حربًا لا يعرف أحد من سيكون ضحاياها سوى الله .

ارتعب الشاب لسماعه هذا الحديث من معلمه قائلاً بشفقة :

- ونترك نفساً حية تهلك في الأريوسية التي مصيرها الجحيم ؟

رد عليه المعلم وهو ما يزال مغمض العينين قائلاً :

- وأنت ماذا تريد ؟

أجاب بلهفة :

- أريدها هي ، إنني أحبها وأريد أن تكون لي تحت

وصية الله في الإيمان المستقيم .

- أنت تحبها من كل قلبك ؟

قاطعته الشاب بثقة قائلاً :

- بل أعشقها مفضلاً الموت على غيرها .

أخذ المعلم نفساً عميقاً طارداً إياه على دفعة واحدة فاتحاً عينيه قائلاً :

- هل تعلم أمك بذلك ؟

انتفض الشاب من مجلسه قائلاً :

- لو كانت تعلم ما كنت جئت إليك يا معلمي .

- وما الذي يدور في عقلك الآن بشأنها ؟

صمت الشاب ناظرًا إلى معلمه طالبًا المعونة وحال وجهه يظهره ليقول :

- مساعدتك ومعونتك يا معلم .



- المعلم الصالح لدينا في الحمام العام ، إنه شرف كبير لنا .

قال الشخص المسئول عن الحمام العام حديثه هذا وهو يستقبل بترحاب شديد المعلم ، وهذه عادة هذا الرجل مع المعلم حيث

إنَّ ابنه تلميذ بالمدرسة اللاهوتية ويكُنُّ بالغ التبجيل والاحترام لشخص المعلم الصالح معطيًا إياه اهتمامًا زائدًا يليق بمكانته العلمية الأدبية المعروفة على مستوى الثغر السكندري بل وربوع مصر كلها ، لذا يسرع دائمًا عند حضور المعلم إلى تخصيص غرفة خاصة له بالحمام دون أن يزعجه أحدٌ ويجعل له خادمًا .

طلب المعلم مطلبًا غريبًا لم يفهمه صاحب الحمام في البداية لكنه لا يستطيع أن يرفض للمعلم طلبه ليرشده بنفسه إلى حيث غرفة حمام القائد الرومي الذي يأخذ حمامه في نفس التوقيت ، ثم خلع المعلم ملابسه متشحًا بمنشفة بيضاء داخلًا على القائد الرومي الذي ما علم أن المعلم الصالح يريدُه إلا وصرف من معه بغرفته ليتحدثا على راحتهما .

جلس المعلم محيياً القائد الذي قال في ود وترحاب مصطنع :

- إنَّ اليوم عيد كبير لأنَّ المعلم الصالح قد تذكرني .
ابتسم المعلم في هدوء عارفًا دهاء وخبث ذلك الثعلب الماكر الذي لا يوجد أحدٌ في الإسكندرية لا يعرف حبه للمال ومداهنته جميع الأطراف لمصلحته الشخصية ، لذا استخدم معه نفس أسلوبه قائلاً :

- لك مدة من الزمان لم تعرج لزيارتي بالمدرسة فاستغللت الفرصة وأتيت لأراك ها هنا .

- صدقني أيها المعلم ، إنَّ الأعباء الملقاة على كاهلي كثيرة وقائد حرس الوالي والوالي نفسه يعتمدان عليَّ في تأمين الإسكندرية ولمْ شمل طوائفها المتناحرة .

ابتسم المعلم في هدوء شديد ممسكاً بيده اليمنى لحيته البيضاء متطلعاً إلى القائد الرومي نصف العاري والعرق يغطي جسده بينما المنشفة البيضاء تغطي جزءه السفلي ليقول :

- كان الله في العون أيها القائد المبجل .

صفق القائد بيده فدخل خادمٌ ما مسرعاً ليأمره بأن يأتي لهم بكأسين من الخمر ، فامتنع المعلم بأدب بالغ مكتفياً بكوب من الماء المثلج فذهب الخادم مسرعاً آنياً بالطلبات في لمح البرق ليرتشف القائد خمرته وليتجرع المعلم كأس الماء البارد ليقول القائد مبتسماً :

- وما حال المدرسة ؟ لقد سمعت أن هناك قلاقل بين بعض الطلبة وجماعة شباب من الأريوسيين .

رفع المعلم حاجبيه متمعناً في القائد الداهية قائلاً :

- طيش الشباب وحمية الرجولة المبكرة ، أنت تعلم هذا السن الصعب .

أوماً القائد برأسه بعلامة الإيجاب قائلاً :

- أتمنى أن يكون هكذا ولا يتطور الأمر إلى أكثر من هذا ، فالإسكندرية لا تتحمل أي زعزعة الآن وبالأخص والحال في مجمع القسطنطينية غير معتدل بسبب إرادة الإمبراطور في تقليص حجم كنيسة الإسكندرية ، وهذا مما سيجعل الشعب المصري والسكندري يغضب .

أوما المعلم برأسه بالإيجاب بدوره قائلاً :

- إنَّ الشعب المصري وبالأخص شعب الثغر السكندري قد عرف طريق الدماء ولا سبيل للعودة إلى السلام إلا إذا تفتحت العقول وانتهى عهد الدين السياسي الذي يتحكم فيه البلاط الملكي بأهوائه الشخصية .

ارتشف القائد جرعة من الخمر وقد اكتسى وجهه بملامح الجد قائلاً :

- هل هذا تصريح شخصي أم مطلب شعبي ؟
- أغلق المعلم حاجبه نوعاً ما مستهجنًا هذا التساؤل قائلاً :
- إنَّه حديث ودي لا أكثر ولا أقل بين صديقين ، وسيزيدني شرفاً أن تفدني بخبرتك في هذا الأمر .

اعتدل القائد في مجلسه فارداً ظهره المحني ، قائلاً في غرور وكبرياء عسكري واضح :

- لا بد من القبضة الحديدية أيها المعلم ، فمثلاً عندك في المدرسة إذا تركت الأمور لهواء الطلاب أفسدوا الشأن الدراسي وأوقفوا مسيرة التعليم اللاهوتي ، هكذا حال الإسكندرية بل والعالم المسيحي كله ، يجب أن يُحكَمَ بقبضة حديدية .

عَقَّبَ المعلم قائلاً :

- ولكن للقبضة الحديدية دائماً مساوئ تزيد الأمور تعقيداً كلما تدخلت في الشأن الكنسي بتوحش .
- لكل حرب ضحاياها وأنا كممثل للسلطة الإمبراطورية أؤكد أنَّ حال الكنيسة السكندرية لن يستقيم إلا إذا

رضخت لرغبات الإمبراطور الروماني فقط ولا لأحدٍ غيره .

انتهز المعلم الفرصة ليكيل له بنفس المكيال قائلاً :
 - وهل اعتبر ذلك رأياً شخصياً أم مطلباً شعبياً بعد أنُ
 عرفت توجهات الشعب السكندري بوجه خاص
 والمصري بوجه عام ؟

شعر القائد بالحفرة التي حفرها لنفسه ليقول محاولاً الحفاظ
 على ماء وجهه :

- لا هذا ولا ذاك ، إنَّه لا أكثر ولا أقل من حديث ودي
 بين صديقين .

ابتسم المعلم متجرعاً من كأس الماء البارد قائلاً :

- هل تعرف السيد "فابيان" الأريوسي .
 تجههم القائد نوعاً ما ناظرًا بتمعن إلى المعلم قائلاً :
 - نعم أعرفه تمام المعرفة ، لماذا ؟
 - إذن لي خدمة عندك وستكون مدفوعة الأجر .

صفق المعلم إلى مساعده المرافق ليدخل محملاً بكيسين من
 العملات الذهبية واضعاً إياهما أمام معلمه ثم خرج مسرعاً
 فنظر القائد بشغف إلى الكيسين مصاباً بالذهول ، فهذه أول
 مرة يتعامل فيها مع المعلم بطريقة الخدمات مدفوعة الأجر
 ليسأله عن نوعية الخدمة التي في مقابلها كل هذا المال
 فظهرت ابتسامة على وجه المعلم بهدوء شديد شارحاً له
 مقصده بالضبط فيما يريده منه ، والقائد مصغياً بانتباه إلى ما
 يطلبه المعلم الذي يريد أن لا يبحث عن "مارثا ابنة فابيان"

عند اختفائها لمدة من الوقت ، وإن أمكن فليبحث دائماً في الأماكن البعيدة غير واجدٍ إياها لأنها ستكون قريبة جداً جداً في الثغر السكندري ستكون في دار المعلم الصالح .

أنهى المعلم لقاءه مع القائد الذي وعده بتنفيذ مطلبه على أن يكون الأمر سرّياً بينهم ولا يذاع في المدينة السكندرية ليجزل المعلم العطاء له واعدًا إياه بثلاثة أكياس ذهبية أخرى سيصلونه تبعاً الواحد تلو الآخر ، والأخير يشكره من كل قلبه ، وسار المعلم بطريقه مفكراً فيما يفعله وإلى أي نهاية ستذهب بهم تلك القصة التي بدأت الآن وقد أقدم على ذلك برشوة القائد الرومي لأنّه يعلم تمام العلم أنّه سيعرف مكان الفتاة أجلاً أو عاجلاً بعد أن يبلغ أبوها عن اختفائها الغامض وستقلب الإسكندرية رأساً على عقب "ففايان" ليس شخصية يستهان بها ، فهو من كبار رجال الأريوسيين الذين سيؤرقهم هذا الفعل جداً ولكن لا يوجد حلٌّ آخر لتلك المعضلة إلا أن تختفي الفتاة بدار المعلم لمدة من الوقت حتى تتعلم أمور الإيمان المستقيم وتقبل العماد الصحيح الأرثوذكسي وبعدها يسلمها إلى زوجها "أثناسيوس" .

توقف المعلم أمام البحر الهائج متأملاً إياه مقتنعاً بأنّ حال العالم لا يقل عن منظر البحر بأمواجه العاتية العالية الآن ، متذكراً أيامه السابقة لترق عيناه بالدمع لأن ما يمر به ابنه "أثناسيوس" الآن قد مر به هو من عشرات السنين ، لذا فهو يرى في ذلك الشاب الصغير نفسه مساعدًا إياه في تحقيق ما لم يعرف أن يحققه مع أول حب له في حياته وآخر حب ليدفن

تلك الذكريات الأليمة داخل رمال شاطئ قلبه غير راغب في استرجاعه بأي حال من الأحوال .



- الأحوال ستتعدل يا مركيان لا تقلق ، إنني أسير على هدى خطة محكمة وضعتها بنفسي ولن تفشل ، ثق بي تمامًا .

قال "سيزار" ذلك موجهاً حديثه إلى "مركيان" وهما قابعين داخل أحد الزوارق سابحين به في البحر السكندري ليرد "مركيان" بلهفة قائلاً :

- أشركني معك في خطتك ، أريد أن أساعدك ، إنك لم تفصح لي منذ آخر مرة كنا فيها بالمعبد الوثني عن نواياك وأفكارك .

أغمض "سيزار" عينيه مستمتعاً بهدوء البحر نوعاً ما الذي نادراً ما يهدأ في هذا الوقت من العام منتعشاً قائلاً :

- لا تتعجل يا صديقي ، إنَّ يوم الانتقام قريب جداً ، أقرب مما تتصور ونتائجته ستذهز الإسكندرية كلها قالبة إياها رأساً على عقب .

- وهل سأتزوج "مارثا" ؟

ابتسم "سيزار" قائلاً بثقة :

- خذها كلمة وعد وشرف مني ، إنَّ "مارثا" لن تكون لأحد غيرك يا ابن العم وإذا حدث غير ذلك اقتلها أنت بيدك قبل أن تكون لغيرك .

ارتاحت نفس "مركيان" لكنه لم يفهم المغزى من المقطع الأخير لمقولة ابن عمه لكنه تغاضى الحديث بها قائلاً :
- وماذا ستفعل مع الثلاثة أوغاد الذين سخروا منا فيما مضى .

ظهرت ابتسامة خبيثة على وجه "سيزار" قائلاً :
- سأسخر منهم أنا أيضاً ولكن بطريقتي .

اقترب زورق خشبي آخر من زورق "سيزار" ليعتدل الأخير بمجلسه مشاهداً القادم الذي لم يكن سوى شاباً يافعاً مرتدياً عباءة سوداء وعلى رأسه طاقية سوداء صوفية صغيرة الحجم ولديه شارب خفيف ، بينما يجلس بجانبه رجلٌ كبير في السن نوعاً ما مرتدياً عباءة زرقاء اللون ونفس الطاقية السوداء الصوفية ذو لحية رمادية اللون خفيفة .
ألقى "سيزار" عليهما التحية قائلاً :
- شالوم .

نظر إليه الرجل وابنه بتمعن ولم يتفوه أحدٌ منهم بكلمة واحدة ليضحك "سيزار" بصوت عال بينما "مركيان" تظهر على وجهه أمارات البلاهة والاستغراب من هذا اللقاء ، حتى قال الرجل المسن بهدوء :

- ماذا تريد منا يا "ابن فابيان" ؟

علت ابتسامة صفراء وجه "سيزار" قائلاً :

- كل خير يا سيدي .. كل خير ، أتعلم أنّ لنا عدوًّا مشتركًا في الإسكندرية ؟

نظر الرجل إلى ابنه باستغراب ، ومن ثم تحول نظره إلى "سيزار" قائلاً :

- ليس لنا أعداء .

أشار "سيزار" بأصبعه السبابة بالنفي قائلاً :

- إذا قلت ذلك يا سيدي لا أعتبرك يهودياً .

اغتاظ الرجل من أسلوب الشاب في الحديث ليتدخل ابنه في الحديث قائلاً بلهجة صارمة :

- أعلم أننا لم نأت اليوم سوى بسبب احترامنا لإرادة

الحاخام الأكبر بالإسكندرية الذي طلبت منه مقابلتنا شخصياً .

رد "سيزار" بأدب بالغ قائلاً :

- وهذا شرف لي أيها السادة أشراف القوم ، لذا لن أطيل

عليكم بالانتظار وأنا آسف لاختياري مثل هذا المكان

بعرض البحر حتى لا تصيبنا أعين المتلصقين

والخبثاء .

قُطِبَ حاجبا الابن والأب غير مدركين سبب تلك المقابلة حتى

استطرق "سيزار" إلى صُلُب الموضوع مقنعاً إياهما بأنهما

يجب أن يتحدوا بشكل أو بآخر للقضاء على التوغل المسيحي

لأصحاب المذهب الأرثوذكسي الذين يكرهون اليهود ولا

يريدونهم في الثغر بل وفي مصر كلها لينظر الرجل بتجهم شديد

إلى "سيزار" قائلاً متسائلاً :

- ومن أنت سوى مسيحي أيضاً !

رد "سيزار" قائلاً بثقة :

- أنا مسيحي على الإيمان الأريوسي الذي يحب جميع الناس ويسالم جميع الناس ولا يريد أذية أحد أو طرد أحد من الإسكندرية ، أنا رجلٌ بسيط أحب الخير للجميع .

وظل الشاب الأريوسي يراوغ ويلتف في الحديث مقتنعاً الطرف الآخر أنه يريد أن يمنع عنهم شرّاً عظيماً كان سيقع على رؤوسهم لولا عناية الله وتدخله في الوقت المناسب حتى ضاق صدر الرجل وابنه ليصيح الابن قائلاً :

- علمنا أنك تحبنا وتريد مصلحتنا ، تكلم بالله عليك .

ابتسم "سيزار" لبلوغه مراده في استثارة الرجل وابنه ، وألقى بشبكة صيده عليهم قائلاً :

- ابنتكم "راعوث" يا سادة على علاقة بشاب مسيحي أرثوذكسي .

ضحك الرجل وابنه ضحكاً ساخراً تهكمياً مما أفاض "سيزار" و"مركيان" الذي اندفع قائلاً :

- لِمَ الضحك الآن ونحن نريد إنقاذ ابنتكم من براثن هذا الوحش الغاشم ؟

رد عليه الأب قائلاً :

- إننا نعلم وغايتنا أن نحوله إلى اليهودية .

ضحك "سيزار" مقهقهًا بسخرية واضحة و"مركيان" ينظر إليه ببلاهة لكنه لم يجد مفراً من أن يضحك مثله غير فاهمٍ مغزى هذا الضحك ليقول "سيزار" :

- فعلاً إنكم يهود طيبون تريدون تحويل ابن السيد "روفيوس" إلى اليهودية ، لم يخطئ الكتاب حينما قال : الحمار معلف صاحبه والثور يعرف قانيه ، أما شعبي فلم يعرفني .

اغتاظ الرجل وابنه من أسلوب الحديث الغاشم هذا لينتفض الابن محاولاً مهاجمة زورق "سيزار" فتصدى له "مركيان" ليهدي الطرفان الآخران الوضع المحتدم ويسرع "سيزار" قائلاً :

- آسف على الجملة السابقة ولكن أيها العزيزان ، إن ذلك الشاب ما هو إلا مستهتر يريد أن ينال من شرف ابنتكم ويتركها لكم ملعونة طيلة العمر .

نظر كل من الرجل وابنه إلى "سيزار" بانتباه شديد تلك المرة فعرف الأخير أنه تملك منهم ليصب سمه الزعاف داخل آذانهم ليسري متمكناً من جميع أجسادهم وتتطلق الزوارق عائدة إلى أماكنها ويختفي الجميع داخل جوره تحت جناح الليل .



(١٠)



- الليل قد طال والظلم المبين قد انتشر وسط العباد
واختلط الصالح بالطالح ولم يعد هناك أحد يريد أن
يفكر بل الكل يسمع بدون أن يفهم لتتداخل الحقائق
وتغيب ويسود الجهل بين الجميع في زمنٍ كثرت فيه
رايات العلم والتعليم ليصبح هذا هو التعليم بالجهل .

أغلق المعلم الصالح عينيه جالساً فوق سطح منزله يراقب
البحر تحت القمر الساطع والإسكندرية في سُبَاتٍ عميقٍ
مقتنعاً أن كل ذلك سيزول وما سيبقى هو البحر فقط شاهداً
على هؤلاء البشر الذين يعيشون على أطرافه ساخرًا من
جهلهم العميق .

قطع خلوة المعلم دخول الشابين "أثناسيوس" عليه ليسألهما
عن صديقهما الثالث ، فأخبراه بأنه قد حبسه والده بعد ضربه
مانعاً إياه من الخروج معهما بسبب سهرهم كل ليلة وهو
يريده أن يركز في دراسته .

ظهر المقت على وجه المعلم من تلك المعاملة القاسية التي يلاقيها تلميذه النجيب متخذاً قراره بأنه يجب أن يتدخل لوضع حد لمعاناة ذلك الشاب الصغير .

نظر "ابن كوزموس" إلى المعلم بشغف مريداً أن يعرف ما توصل إليه ، بينما الأخير ناظراً إليه بتمعن حتى كسر حاجز الصمت قائلاً :

- في أي وقت اجلب فتاتك إلى داري .

ظهر الفرح والسرور على وجه الشاب ، بينما صديقه "ابن روففوس" ظهر على وجهه اليأس والحزن فلاحظ المعلم ذلك سائلاً إياه عن حاله ذلك فرد قائلاً :

- إنَّ الآريوسيين في حالة غياب البابا قاموا بالاستيلاء

على نصيب القمح الممنوح من الدولة إلى فقراء

المسيحيين وتحويله إلى فقرائهم هم فقط مما تسبب في

عجز شديد لدى المساكين والأرامل والأيتام .

تطلع المعلم إلى السماء المنيرة بالنجوم المتلألئة قائلاً :

- لا تحزن يا بني ، إن من غطى السماء بنجومها

الساطعة كفيلاً بأن يدبّر الأمور .

رد عليه "ابن روففوس" قائلاً في يأس شديد :

- أحياناً أشعر بأنَّ العالم هذا يدور بطريقة عبثية وأنَّه

لا توجد قوة متحكمة فيه بل بالعكس كل شخص يفعل

ما يريد بدون حكمة أو تدبير واضح ، إنَّ الأمور قد

انقلب نصابها الصحيح .

ابتسم المعلم في هدوء قائلاً :

- إلهنا إله نظام وليس إله تشويش يا بني ، ولا يوجد شيء تحت السماء إلا ويحدث بعلمه وموافقته .

رد "ابن كوزموس" قائلاً :

- ولم كل هذه الشرور والكراهية ، هل الله هو من يدفع الشر في طريقنا ؟

قاطعته المعلم قائلاً :

- حاشا لله أن يكون مجرّب بالشرور ، وإنما هو مجرّب ابن آدم فقط مختبراً مدى محبته ، والحب تأديب .. فمن أحبه الله أدّبه .

تطلع "ابن كوزموس" إلى البحر الساكن قائلاً :

- ولكن أحيانا تأتي التجربة فوق طاقة احتمال الإنسان يا معلم .

أجاب المعلم بثقة قائلاً :

- يجرح ويعصب ، وتأكد أنه يحملك على كفيه في كل تجاربك لأنك بمفردك ضعيف ولا تستطيع أن تحتمل لكن معه لا تخف أبداً .

رد "ابن روفايوس" قائلاً :

- ولكن الخوف دب بقلوبنا يا معلم ، وانكسر ظهرنا من كثرة الأحمال الثقيلة .

أجاب المعلم قائلاً :

- الخطيئة هي التي تسبب الخوف بل والرعب حتى بلوغ اليأس وعدم الرجاء من الإنسان ، ويهوذا أكبر

مثال على ذلك فبعد أن بلغ به اليأس إلى أقصى درجاته ، سلّم نفسه للشيطان طواعية مفضلاً الموت منتحرًا على مواجهة التوبة .

قال "ابن روفيفوس" محتدًا :

- ولكن الحرب شديدة يا معلم ونحن عُزّل بدون حامٍ ، نحن نحارب حربنا منذ زمن بمفردنا وأغلب الضحايا يسقطون من جانبنا .

أمسك المعلم بيده اليمنى لحيته قائلاً :

- وهذا ما سأظل أقوله حتى نهاية عمري على الأرض ، الدماء تجلب المزيد من الدماء ، والعنف يسبب العنف ولا يؤدي سوى إلى التفرقة والدمار والخراب .

قاطعه "ابن روفيفوس" قائلاً :

- ألم يكن البابا "أثناسيوس" يحرص على العنف ؟

نفى المعلم صحة هذه المزاعم معترفًا بأن البابا في جميع كتاباته ورسائله التي وجهها إلى شعب الثغر السكندري لم يحثهم يومًا على رفع السلاح أو إثارة الشغب بل دائمًا ما كان ينصحهم مرشدًا إياهم إلى الصواب ونبذ العنف وعدم إسالة الدماء والتذرع بالصبر واللجوء إلى الصلاة والصوم في مواجهة المصائب والشدائد التي تحيط بهم ، ولكن الشعب السكندري حامي الطباع والمشاعر ، توجّجه نيران الغيرة المقدسة وتحركه محبته الجارفة إلى كنيسته باذلاً الغالي والرخيص في سبيل رفعة كنيسته الرسولية المرقسية .

قال "ابن كوزموس" :

- قل لنا يا معلم ، ماذا حدث بعد موقعة "الكبادوكي" ؟

أخذ المعلم نفساً عميقاً مخرجاً إياه على دفعة واحدة سارداً ما تبقى في حياة البابا "أثناسيوس" حيث عاد إلى كنيسته مبعلاً بعد صراع رهيب دام لأكثر من سبع سنوات ، ولكن يبدو أنَّ القدر على خلاف دائم مع الكنيسة السكندرية ، لينقلب الإمبراطور "قسطنطينوس" من جديد على البابا إذ أنَّ الأريوسيين اتهموا "أثناسيوس" بأنَّه كانت له علاقات مشوبة مع قاتل يدعى "ماجنتيوس" حاول قتل الإمبراطور والاستيلاء على الحكم ، ونجحت الخطة الدنيئة ليصدر "قسطنطينوس" أمره إلى الدوق "سيرانيوس" باعتقال البابا من جديد ، وبينما كنا نصلي بكنيسة القديس "ثيودور" في مساء الثامن من فبراير عام ثلاثمائة وستة وخمسون ، والبابا يترأس صلاة رفع بخور عشية ونحن معه شمامسة وبحضور لفيف من الأساقفة والكهنة كان على الجانب الآخر تتحرك قوات الشر مدججة بسلاح الغدر والخديعة والخيانة واندفع جنود الظلام يسировون في طرقات الإسكندرية ، يقرعون بزيهم العسكري الحديدي ضاربين بسيوفهم دروعهم مزينة الأمر رعباً ورهبة ليختفي أهل الثغر داخل منازلهم متخوفين من هيئة هؤلاء الجنود القادمين من "القسطنطينية" خصيصاً لإتمام تلك المهمة وجانباً منهم ينتمون إلى الحرس الإمبراطوري المعظم حاملين المشاعل النارية ، وعلى حين غرة أحكموا قبضتهم على الكنيسة محيطين إياها بينما ساد الخوف بين جميع

المتواجدين بالكنيسة ، والبابا أخذ يثبت الشعب المسيحي ، وسمع صوتاً جهورياً لم يكن صاحبه سوى الدوق "سيرانيوس" قائلاً :

- باسم الإمبراطور "قسطنطينوس" المعظم إمبراطور القسطنطينية والشرق وبناء على توصيات مجمع أرل ومجمع ميلان ، فإنه قد أمر جلالته بالقبض على "أثناسيوس" بطريرك الثغر السكندري وباقي عموم مصر وعدم إظهار أي مقاومة من الشعب السكندري وإلا تعرضوا لأشد العواقب الوخيمة لمخالفتهم الأمر الإمبراطوري المعظم .

توقيع وختم الإمبراطور المعظم قسطنطينوس

أنهى الدوق منشور الإمبراطور قائلاً بصوت عالٍ :

- على الشعب السكندري القائم داخل كنيسة الله الخروج في سلام وأمان من أجل القبض على البابا "أثناسيوس" ونحن نحاصر الكنيسة بأكملها فلا مجال للهروب أو المقاومة .

لم يعرف الشعب في البداية ماذا يفعل فهم عزل ، ولا يوجد لديهم ما يدافعون به عن أنفسهم لكنهم قرروا أنه بأي حال من الأحوال لن يسمحوا للجمع العسكري القابع خارج الكنيسة بالقبض على البابا مانعين إياه أن يسلم نفسه حقناً للدماء ليقوموا بإطفاء مشاعل الكنيسة جميعها حتى عمّ الظلام المكان بأكمله ، فلاحظ الدوق وجنوده البالغ عددهم الألفين رجل مدججين بالسلاح والدروع الحربية .

ترجل الدوق من على جواده أمرًا بزيادة المشاعل والهجوم فورًا على الكنيسة خوفًا من هروب البابا تحت جناح الظلام ، وبالفعل تم اقتحام الكنيسة ودارت معركة هجومية دفاعية بحثة ، فالجنود الرومان يهاجمون والشعب المسيحي يدافع بكل ما أوتي له من قوة ولكن الغلبة للأقوى والأكثر عددًا فقتلت أنفس كثيرة في ذلك اليوم واغرورقت الكنيسة بالدماء حتى وصل الدوق وجنوده إلى الهيكل فلم يجدوا البابا على كرسيه ، لقد استطعنا أن نهربه قاذفين به من فوق سطح الكنيسة إلى أسطح البنايات المجاورة ومن سطح إلى سطح حتى وصل إلى بر الأمان متخذًا طريقه إلى براري مصر مختبئًا من ذلك الاضطهاد العظيم الذي حل على الكنيسة المصرية بأكملها .

أرسل الإمبراطور دخيلاً بطريركيًا جديدًا يدعى "جرس الكبادوكي" ليتقلد منصب البطريركية مثل سابقه ، ووصل إلى الثغر السكندري واجدًا نفس الاستقبال الحافل الذي أُعِدَّ لسابقه بل وأشد ضراوة لكنه كان مبعوثًا مع فرقتين عسكريتين عددهما يقارب الثلاثة آلاف نفس ، لذا اشتدت المعارك الحامية بين الطرفين وأصبح لون البحر أحمر مخفيًا اللون الأزرق لفترة من الزمن .

أخذ "جرس الكبادوكي" عددًا كبيرًا من الكنائس الأرثوذكسية معطيًا إياها إلى الأريوسيين على مستوى مصر كلها وليس الإسكندرية فقط ، لتنتفض ربوع مصر بشعبها ضد الطغيان الديني الأريوسي الجديد ، ولكي يثبت "جرس"

أنَّه مسيحي ثوري قلب ظهر المجن على الوثنيين آخذًا منهم بالعنوة والقوة عدة معابد محوّلًا إياهم إلى كنائس آريوسية ليتحد الوثنيون في حربهم مع المسيحيين ولأول مرة يصبح العدو صديق ولو مؤقتًا ، متحالفين مع حاملي السلاح من أصحاب الإيمان المستقيم ضد الآريوسيين ، وبالفعل يتم لهم النجاح في الفتك بهذا "الجرس الكبادوكي" وقتله بسبب تعديه عليهم وهتك نسائهم وسرقة أموالهم ، وانتهى العهد الدموي حيث قتل الكثير وقام الآريوسيون وجنود الرومان المرتزقة بالتعدي على أديرة البنات الراهبات وكسر عفتهم واغتصابهن وإمساك الصبيان والشباب المسيحي وإخصائه حتى لا يصلح في أن يتكاثر ، ليطيح الله بالإمبراطور "قسطنطينوس" ويتولى "يوليانوس" الذي أظهر رحمة مع البابا "أثناسيوس" ليعود إلى كرسيه محاولًا إصلاح ما أفسده الآريوسيون مستردًا كنائسه من أيديهم لينقلب "يوليانوس" على الإيمان المسيحي برمته ويجحد المسيح ملقبًا نفسه بالجاحد ، ويعود من جديد الشيطان إلى طرد البابا من منصبه طالبًا من والي الإسكندرية بالأمر المباشر أن يقتل البابا الذي عاد من جديد بنفس بائسة حزينة مترجيًا معونة الله في حفظه للهروب إلى براري مصر الداخلية حيث الرهبان الأتقياء أبناء الأب "أنطونيوس الكبير" ولسان حال قلب البابا يرتل مع "داود" في زمزوره قائلاً :

- إلى متى يا رب تنساني !

ومات "يوليانوس" وأتى بعده "جوفيان" الذي تفهم قانون مجمع نيقية ليعود البابا إلى كرسيه لمدة سنة بسبب موت "جوفيان" فجأة ، وعُيِّن أخوه "فالنص" إمبراطورًا وكان هذا أريوسيًا لا غش فيه ، فأعاد نفي البابا من جديد حتى مات "فالنص" ليعود البابا من جديد ونرى من كل هذا أنَّ البابا قد تم نفيه خمس مرات أثناء مدة رئاسته الكنسية السكندرية التي بلغت ما يقارب الستة والأربعين عامًا ، قضى منهم سبعة عشر عامًا في المنفى ليكون أولهم في عهد الإمبراطور "قسطنطين" بمدينة تريف والثانية في عهد "قسطنطينوس" وذهب إلى روما ، والثالثة في عهد نفس الإمبراطور وهرب إلى براري مصر ، والرابعة في عهد "يوليانوس" الجاحد وهرب إلى براري مصر ، والخامسة في عهد "فالنص" وهرب أيضًا إلى براري مصر .

أنهى البابا حياته التي أفناها في خدمة كنيسته محاربًا الأريوسية ما يقارب النصف قرن ، وهو متحملاً مشقات ومتاعب جسيمة لم يتحملها أحد من البطاركة السكندريين من قبله أو من بعده ليستحق بالفعل لقب الرسولي الذي أطلقه عليه الأساقفة والمسيحيون أجمعين مشبهين إياه بالآباء الرسل لما تحمله من معاناة واضطهاد ونفي حتى انتقل إلى الله وهو يبلغ من العمر السبعة والسبعون عامًا قضاهم في جهاد منذ أن كان شابًا صغيرًا وحتى آخر يوم في عمره يحارب "أريوس" والأريوسية .



أنهى المعلم قصة حياة "أثناسيوس" ليجد كل من الشابين قد أصابه الدهول ، فنطق "ابن كوزموس" قائلاً :

- حياة مريرة جهادية وألم لا يُحتمَل ، أعتقد إنني لو وُضِعْتُ مكانه لهربت من أول ضربة .

رد "ابن روفئوس" قائلاً :

- لكن تخيل الآن حاله وسط القديسين في السماء والنعيم الأبدى الذي له .

قال "ابن كوزموس" :

- أظن أنه لن يأتي أحدٌ آخر في مثل قوة البابا أثناسيوس وشِدته وحزمه وكفاحه المستميت في الوقوف ضد الأريوسيين .

تجرع المعلم بعضاً من الماء قائلاً :

- الله لا يترك كنيسة بلا شاهد ، ومن يدرى فيمكن أن يكون أحدٌ منكم يُعَدُّه الله ليكمل مسيرة البابا أثناسيوس .

نظر الشaban إلى بعضهما البعض مبتسمين ، ليقول "ابن كوزموس" :

- نحن خطاة ولن نسير في طريق البتولية ونهب أنفسنا بل سننزوج نؤسس أسراً مسيحية تعرف الله .

قال المعلم في هدوء :

- صدقوني ، من تزوج فعل حسناً ومن لم يتزوج فعل الأحسن ولكن كلاهما في النهاية سيصعد إلى الفردوس .. يا أبنائي ، حياة الجهاد لا تقتصر على النساك والرهبان فقط بل على الجميع والله يقوي شعبه

ولعل رجلاً متزوجاً يكمل المسيرة وسط الشعب خيرٌ
من أسقف أو رجل دين قابع داخل الكنيسة .
حك "ابن روفوس" مؤخرة رأسه قائلاً :

- استخدم الله جهلاء العالم ليخزي بهم حكماء العالم ،
لا أحد يعرف يا معلم لكن صدقني إنَّ ما تَحَمَّلُهُ البابا
"أثناسيوس" لهو عظيم ويفوق كل احتمال بشري .
تطلع المعلم إلى السماء ناظرًا إلى النجوم قائلاً :
- إنَّ البابا "أثناسيوس" يتطلع إلينا من سماءه منتظرًا أن
يخرج من وسطكم من يكمل مسيرته ويدافع عن
الإيمان المستقيم متصديًا للإيمان الأريوسي .

انتقل "ابن كوزموس" بالحديث إلى حال "مارثا" حبيبته
ليطمئنه المعلم بأنَّ خطتهم تسير على ما يرام ، وأنَّه من الغد
يمكن أن يأتي بها إلى داره لترتاح نفس "ابن كوزموس"
وتظهر على وجهه علامات الاغتراب والسرور .



غادر الشابان مسكن المعلم ليسيرا الهوينى على شاطئ بحر
الإسكندرية وهم لا يتحدثان لفترة حتى قطع "ابن روفوس"
الصمت قائلاً :

- هل تثق بالله يا صديقي ؟

شعر "ابن كوزموس" بلفحة هواء باردة تتخلل عظامه نافرة
إياها ليتندثر جيّدًا بملابسه وبخار الهواء خارجًا من فمه وأنفه
قائلاً :

- هناك أوقات أفقد الثقة في الله بالفعل شاعرًا بأنّه لا يشعر بنا .

أوماً "ابن روفئوس" برأسه وبخار الهواء خارجًا من فمه قائلاً :

- أنا مثلك ولكني أكثر منك في الإحساس فأنت تذكر أنك في بعض الأحيان تشعر بهذا ، أما أنا فلا أشعر به تمامًا في كل الأوقات .

نظر "ابن كوزموس" إلى صديقه بتمعن قائلاً :

- لماذا لا تشعر به ؟

- أنا أذهب مع أبي كثيرًا إلى الناحية الشرقية للبلدة حيث حي الفقراء ، وهناك يا صديقي سترى الإسكندرية الحقيقية التي ينساها الجميع حيث المرض والجهل والخطيئة التي تمكنت من الكثيرين من الفقراء هناك وهي ملجأ خصب للآريوسيين الذين يستغلون الفرص لشراء ذمم هؤلاء ضعاف النفوس وضمهم إلى مذهبهم هناك فقط ستعرف أن الله لا يعيش في الإسكندرية .

استاءت نفسية "ابن كوزموس" مما سمعه من صديقه قائلاً :

- لذي في بلدتي "هرموبوليس" نفس الحي الفقير الذي أغلب سكانه من المسيحيين حتى أنني فيما مضى قبل أن آتي إلى الإسكندرية شعرت أن المسيحية لم تأت سوى للفقراء والعبيد فقط تاركة أبناء الطبقة الميسورة بلا معين .

- أو أنَّ الطبقة الميسورة لا تريد الإهانة والشقاء والتعب الذي وعد به السيد أولاده في هذا العالم الحاضر .
- وبما أنَّهم لا يثقون سوى في الملموس فقط ، لذا لن يصدقوا الغيبيات بأنَّ هناك ما هو أحسن وأفضل فيما بعد بالعالم السمائي .
- أنظن يا صديقي أننا يمكن أن ندخل السماء ؟
- أنا لا أشك .. أنا أثق أن السماء ليست لنا بأعمالنا القبيحة تلك ، فنحن نكفُّ الكره لمن حولنا ولا نستطيع إحلال السلام الذي دعى إليه المسيح على الجبل بكفر ناحوم في عظته الشهيرة ، إنَّ حياتنا اصطبغت باللون الأحمر القاني وأصبحت قلوبنا قبورًا مبيضة ، لقد تفوقنا على الكتبة والفريسيين في المراءى والخديعة وتضليل النفوس ، كثير من رجال الدين ابتعدوا عن طريق الحق ذاهبين إلى الجانب الأريوسي المضلل أخذين معهم شعبًا كبيرًا .
- والسبب معلوم ، المناصب القيادية والجاه والمال والسلطة البحتة .. هذا حال من ينضم للأريوسيين .
- أوتعلم لماذا ؟ لأنَّنا نقتل المواهب الحارة ، فلن يعود البابا "ألكسندروس" ليكتشف الطفل الصغير أثناسيوس وهو يلهو مع أصدقائه على شاطئ الإسكندرية ، يمثلون طريقة عماد الأطفال المسيحيين وعندما وقعت أعين البابا على الطفل الذي يجيد دور الكاهن بجدارة أخذه محتضنًا إياه على الفور معلمًا إياه كل الكتب

الروحية حتى بلغ الخامسة والعشرين ليصبح بطل مجمع نيقية .. أين ذلك الحال الآن ؟ لا يوجد يا صديقي .

- أصبت .. لا يوجد ، لا يوجد بالمرّة أي أحد الآن بهذه المواصفات ، يا صديقي العزيز إنني أشعر بالوحدة في ذلك العالم الممتلئ من حولنا .

نظر "ابن كوزموس" إلى صديقه مستغرباً من منطقته هذا قائلاً :

- تشعر بالوحدة وأنا بجانبك ؟
- الوحدة التي أقصدها هي وحدة الروح ، إنني أشعر أنّ روحي خاوية لا يوجد ما يملؤها ، أحاول البحث يميناً ويساراً لكنني لا أجد ما يملأ روحي فالصراعات التي تدور من حولنا صعبة ومتوحشة ، فمن جانب تجد الأريوسيين ومن جانب آخر تجد الوثنيين واليهود حتى أنني لا أعرف حقيقة شعوري تجاه تلك الفتاة اليهودية التي ألقاها منذ عام تقريباً .
- إنني كنت أريد أن أتكلم معك في هذا الشأن منذ زمن .

قاطعه صديقه قائلاً :

- بسبب أنّها يهودية وأنا مسيحي ، أتصدقني عندما أقول لك إنني لم أجد من تحبني لشخصي في المسيحية ؟
- توقف "ابن كوزموس" منتبهاً إلى كلام صديقه العجيب هذا ليرى على وجهه علامات الاندهاش بينما أكمل الآخر قائلاً :

- لا تتعجب ، فكل الفتيات المسيحيات ينظرن إليَّ على أنَّني ابن السيد روفئوس الثري لا أكثر ولا أقل ، ابن أحد أثرياء الإسكندرية الذي الاقتران به يعني راحة نفسية عميقة لبعض الناس أصحاب الأموال مثل أبي .
 - ولكن ليس من المفترض أن يُنظرَ إليك الجميع مثلك تلك النظرة ، أنا مقدر مكانتك ومكانة أبيك وسط الثغر السكندري ولكن يمكن أن تختار فتاة فقيرة .
 - حدث ، أحببت فتاة فقيرة قبل أن ألتحق بالمدرسة اللاهوتية ولكن ما أن علم والدي بتلك العلاقة عن طريقي حتى هاج وماج شاجبًا مثل تلك النوعيات من العلاقات غير المتكافئة اجتماعيًا من وجهة نظره ، فكيف أنا ابن ثري المدينة السكندرية أتزوج بفتاة أبيها إسكافي فقير .
 - ألم يكن أول الداخلين إلى المسيحية بالإسكندرية هو أنيانوس الإسكافي ؟ الذي أصبح فيما بعد أول أسقف .
- ابتسم "ابن روفئوس" ابتسامة تهكمية قائلاً :
- الإسكافي يدخل أول شخص إلى المسيحية يجوز لكن ابنة الإسكافي لا يجوز أن تدخل بيت السيد روفئوس !
 - وماذا حدث بعد ذلك ؟
 - امتنع أبي عن مخاطبتي لمدة من الوقت حتى قطعت علاقتي بهذه الفتاة التي كانت أول حب لي في حياتي وما أن قاطعتها حتى نقت على الثروة والجاه والحسب والنسب مخدوعًا في كل ما تعلمته بالكنيسة

من رجال الدين الذين ينادون بالمساواة بين الجميع حتى أن أب اعترافي انضم إلى أبي في فكره ، يا صديقي نحن نغافل الله في وصاياه وتعاليمه لأهوائنا الشخصية .

- وتلك الفتاة اليهودية ما حالها ؟
- نقمة مني على الحياة ورفض أبي لرغبتني وإعلان العصيان على التقاليد والوصايا .
- لكن في هذا كسر لعهدك مع الله والاختلاط بمن صلبوا السيد .
- كم من مرة خالفنا الله يا صديقي ، كم مرة تلوثت أيدي أهل الثغر السكندري بالدماء .

هبت رياح عاتية قادمة من البحر كادت أن تطير بالصديقين من مكانهما ، واندلع البرق والرعد في سماء الإسكندرية وما زال "ابن روفئوس" يتكلم وصوته بدأ يعلو ليحاكي صوت الرعد مكملًا حديثه قائلاً :

- إنَّ الله خلقنا لنتعذب في هذا العالم ، فإذا طلبت مالا أعطاك فقرًا ، وإذا طلبت صحة أعطاك مرضًا ، وإذا طلبت راحة بال وسلام حلت عليك اللعنة من السماء . أي إله هذا الذي يحارب أبناءه محاولًا الانتصار عليهم باسم قتل الشهوات والنزوات والخطايا ؟!

يا صديقي تذكر ما قاله العلامة "أوريغانوس" عندما وضع فرضية توبة الشيطان ووقف يومها أمامه كل علماء وأساتذة المدرسة اللاهوتية بل والبابا وقتها

حارماً إياه ، لأنه ببساطة شديدة إذا تاب الشيطان أصبح الله بلا عمل .

ارتفع صوت الرعد وأنار البرق سماء الثغر وبدأت الأمطار في الهطول ليقول "ابن كوزموس" :

- هل جنت ؟ ماذا تقول ؟ هذا لا يمكن أن يحدث .
- لن يحدث لأنه لو حدث لعادت جنة عدن إلى الأرض ولكن اختفاؤها ما هو إلا لتذكير الإنسان بالذل والعبودية في الأرض التي تنبت شوكة وحسكاً ، إنَّ أمطار سماء الإسكندرية لا تستطيع أن تغسلني فأبيض أكثر من الثلج حتى داود النبي في عز مجده وجبروته أخطأ وذهب إلى السماء .
- لكنه قدم توبة يا صديقي .
- التوبة التي قدمها نحن قدمنا أقسى منها في الثغر السكندري وما زلنا نقدم ، فأنا من شارك في حرق كنيسة الأريوسيين .

وضع "ابن كوزموس" يده على فم صديقه قائلاً :

- أصمت بالله عليك حتى لا يسمعك أحد منهم .

أزاح "ابن روفوس" يد صديقه قائلاً منتهراً إياه :

- فليسمعوني ، إنهم يعلمون كل شيء ، وبالمقابل قتلوا العشرات منا لأنهم لا يستطيعون مع ابن روفوس لقوة أبيه ومكانته وعلاقته بالوالي ، أنا كان يجب أن أموت منذ زمن ، منذ أن زرع أبي بداخلي الكراهية

تجاه الوثنيين واليهود والأريوسيين وعندما ذهبت إلى رجال الدين طالبًا العلم قالوا لي سالم جميع الناس إن أمكن وحب جميع الناس والمسيح غفر لصالبيه ، بالله عليك أين هذا مما نقوم به الآن من تخريب وتدمير وقتل منذ عهد البابا "أثناسيوس" وحتى الآن ، جاوبني يا صديقي ، كيف نطبق الوصية في بلادنا التي كسرت الإنسان قبل أن تكسر الوصية ؟!

شعر "ابن كوزموس" بانسحاق نفسي رهيب فحديث صديقه صحيح ، فالإسكندرية بشعبها تغلي وكأنها قدر على آتون من نار لا ينطفئ ، نكس رأسه وقد اغرورق من المطر حتى ملابسه قد التصقت على جسده غير واجد سوى كلمتين قائلاً :
- هذا قدرنا .

رفع "ابن روفوس" رأس صديقه بيده قائلاً :

- عدنى يا أخي المحبوب بأنه إذا وانتك الفرصة ستترك الثغر السكندري .. اهرب بحياتك من ها هنا .
- وإلى أين أذهب ؟ إن العالم كله أصبح إما آريوسي أو أرثوذكسي وقلة وثنية أو يهودية .

- اهرب بحياتك من هذا الجحيم ، صدقني إنني لم أكن أريد أن ألتحق بالمدرسة اللاهوتية ، كانت أحلامي أن أصبح بحارًا أرتاد بقاع المسكونة كلها باحثًا عن الحق والفضيلة ولكن في النهاية رضخت لمشينة أبي في الالتحاق بالمدرسة حيث ستعلمني الحق والفضيلة وما زاد عن ذلك التعاليم والقوانين المسيحية ، ولن أكذب

فقد تعلمت كل شيء فعلاً ، لكن هناك شيء واحد لم أتعلمه .

نظر "ابن كوزموس" ومياه الأمطار تكاد تجعله يغلق عينيه محاولاً فتحهما بصعوبة ليشاهد على وجه صاحبه أسمى آيات الحزن واليأس مكملاً حديثه قائلاً :

- لم أتعلم أن أكون مسيحياً ، عرفت كل شيء عن المسيح ولكني لم أعرف أن أحب من حولي صانعاً السلام ، لقد تربيت على كراهية الأريوسيين والوثنيين واليهود ، لا أعلم ماذا سوف يَظْهَرُ غداً بعد رجوع البابا من مجمع القسطنطينية وانتشار هرطقة جديدة لأكره تابعيها .

صمت "ابن روفوس" لتتهمر دموعه عن إرادته شاعراً بمرارة نفس تلك الليلة ولا يعلم لماذا ، هل من الضعف النفسي الواقع تحت تأثيره ؟ أم لأنه شعر بالملل من كل ما يدور حوله من شذائد وأهوال وضيقات ، أم سبباً آخر لم يظهر بعد لكن الشيء الوحيد الذي هو واثق منه الآن أن نفسه حزينة جداً حتى الموت .



(١١)



- موت الصليب هو موت العار في العهد القديم ، وتبدد كل هذا بعد صلب المسيح وتحولت علامة العار إلى علامة المجد بالمسيح ابن الله ، هل هذا مفهوم يا "مارثا" ؟

أومأت "مارثا" رأسها بعلامة الإيجاب و"أثناسيوس" يوجه إليها حديثه هذا معلماً إياها بعض العادات والتقاليد الأرثوذكسية عن ابن الله المسيح الذي لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين وهي تنصت إليه بشغف وانتباه شديد ليتفقا أن يقابلها في الليل عند الباب الشرقي للمدينة آخذاً إياها إلى دار المعلم الصالح ، فأذعنت إلى حديثه مبلغة إياه أنها ستتخرج في الليل وتطلب من أبيها أن تذهب لتزور ابنة خالتها التي بالقرب منهم وعندها يمكن أن تأتي إليه ، وليكن الله في عونهما عند اكتشاف أبيها وأخيها ذلك الأمر .



- الأمر الآن في يدك يا "أنطونيوس" ولكني لن أستطيع أن أراك بعد الآن .
- اكتأب "أنطونيوس" وظهر على وجهه الحزن الدفين والبؤس مما تقوله الراهبة الوثنية مستفسراً عن تبدل الحال هكذا والليل ما زال في أوله لتقول له بدون اكتراث :
- فلتكن تلك هي ليلتنا الأخيرة مستمتعاً بي ، وبعد ذلك أرجو منك أن لا تأتِ إلى هنا للسؤال عني لأنني لن أقابلك مجدداً .
- هتف الشاب قائلاً في توسل :
- لماذا ؟ هل صنعت شيئاً أغضبك يا ربة الحسن والجمال .
- لا لم تفعل شيئاً يغضبني بل لم تفعل شيئاً بالمرّة .
- تعجب "أنطونيوس" من ذلك اللغز الكلامي قائلاً :
- أرجوكِ وضحي أكثر ، أنا لا أفهم شيئاً .
- ولن تفهم يا حبيبي "أنطونيوس" سابقاً .
- صاح الشاب قائلاً في توتر :
- لمَ كل هذا ؟ فكل ما تطالبه تأخذه وأريد على طلبك .
- نعم ولكن لا أشعر أنك لي وحدى فغداً تتركني شئت أم أبيت ، وتذهب إلى زوجة مسيحية تغنيك عني وعن عطفي وحبّي لك وأنا لا أريد أن ينكسر قلبي لفراقك .
- لكنك لا تحبينني أنا فقط ، فأنتِ راهبة لكل من يريدك .

- ولكن لي قلب يشعر وينبض ويحب هاتفاً باسمك ،
وأنت لن تتغير إلى عبادة الإله سيرابيس لكي أكون لك
وحدك تحت سقف دارنا الصغير .

لمعت أعين الشاب مما تقوله فهو يحبها بعد طيلة العشرة التي
دامت بينهما حيث إنها هي الوحيدة التي تعطف عليه وسط
كل ما يمر به من مأسٍ على يد أبيه لكن لم يفكر من قبل في
الاقتران بها والتحول من المسيحية إلى الوثنية ، ليحاول
التحذلق عليها قائلاً :

- و ما المانع في أن تتحولي أنتِ إلى المسيحية ؟
ابتسمت الراهبة ابتسامة تهكمية خبيثة وهي تدور حوله شبه
عارية وهو واقف في منتصف حجرتها حتى خلعت من عليه
الشال الصوفي الذي على عباءته قائلة له :

- لقد عرفنتي وأحببتني وأنا راهبة للإلهة سيرابيس
العظيمة الحانية التي تجرعت أنت منها عن طريقي
العطف والعناية الإلهية والرعاية وفوق كل ذلك الحب
الساخن المدفئ للقلوب ، وكم تمددت على هذا الفراش
ناهلاً من نهر الحب العظيم الذي قدمته لك كل المدة
السابقة لمعرفتنا وأنا راهبة لإلهتي ولست مسيحية ،
لذا لا تأتِ الآن لتقول أن أتحول إليها .

رمقها "أنطونيوس" ببصره وهي تجلس أمامه على مقعدها
المريح الوثير المصنوع من ريش النعام والمغطى بالحرير
متدلة ليقول لها :

- إذن لمَ تريدان أن أتحول أنا إلى الوثنية لنبقى على حالنا ؟

أشارت بأصبعها نافية قائلة :

- ليس بيدي يا حبيبي الصغير فأنا يمكن أن أعيش معك هكذا العمر كله لكن رئيسة الكهنة العظيمة هي التي طلبت مني ذلك أو بمعنى آخر أمرتني لأن هناك ثري كبير عظيم عابد للإلهة سيرابيس يريد أن يتزوجني أخذًا إياي معه إلى فينيقية .

ارتمى "أنطونيوس" بلهفة تحت أقدام الراهبة قائلاً في خوف ممسكاً بأقدامها :

- لا وألف لا يا حبيبتي إنني مستعد لأن أفعل أي شيء في سبيل أن لا تذهبي ، أنا أريد أن أمضي معك بقية العمر أيتها المحبوبة الغالية .

ربت الراهبة بيدها على رأس "أنطونيوس" قائلة :

- دعك من مزاح الأطفال هذا فما بيننا يجب أن ينتهي ، ففي النهاية أنا لست لك وأنت لست لي بأي حال من الأحوال ويكفيك المتعة التي حصلت عليها مني طيلة المدة السابقة .

تشبث الشاب بأقدامها قائلاً :

- لا ، لن أتركك .

ضحكت ضحكة ماجنة قائلة وهي تخلعه عباءته ليصبح شبه عارٍ ما عدا ما يستر العورة :

- وماذا ستفعل مع أبيك ، هل سيوافق على علاقتنا ؟

رد "أنطونيوس" بثقة شديدة قائلاً :

- ليذهب إلى الجحيم ، إنني مستعد أن أقتله متخلصاً منه
من أجلك يا حبيبتي .

وهنا فقط خرج شخصٌ من خلف الستار حيث كان مختبئاً منذ
أول الحديث ، لم ينتبه "أنطونيوس" في البداية ولكن ما أن
لمحه مدققاً النظر حتى عرفه على الفور ، إنه أبوه فاننفذ
جسده الضعيف وأصابه الخوف العظيم ليشعر ببرودة عظيمة
تكتنفه ، وأبوه يقترب منه قائلاً :

- اللعنة عليك وعلى اليوم الذي قذفتك فيه أمك إلى
العالم.

وبدأ الأب ينهال على ابنه بالضرب في جميع مواضع جسده
ثم خلع زنار عباءته الجلدي الذي يربطه حول وسطه ضارباً
به الشاب الذي ظل يئن تحت قوة بطش أبيه محاولاً الهروب
شبه عار ، والآخر يكيل له غير تارك له فرصة لأن يرتدي
ملابسه قاذفاً إياه بأقصى أنواع الشتائم والسباب لاعناً إياه حتى
استطاع "أنطونيوس" أن يفتح باب الغرفة راكضاً متخبطاً
وسط كل الحاضرين المتكدسين وأبوه وراءه مكماً عليه حتى
تفتحت جراحات ظهر الصغير مجدداً نازفاً متألماً باكياً دموعاً
حارة متوجعاً وألم الخزي والعار يلحق به مع ضحكات
الزواني والماجنات والفاجرات والعاهرات ورجال الأوثان
الخطاة وأبوه صارخاً صائحاً قائلاً :

- اللعنة عليك، وأنا من كنت أظن أنك ستكون رجل دين أو قديسًا أو ناسكًا ، أصبحت فاسقًا ماجنًا داعرًا ، تريد قتلي من أجل غانية وثنية .

خرج الشاب من المبنى وخلفه أبوه واجدين "سيزار" و"مركيان" وعصبة من شباب الأريوسيين يرونهم مبتسمين مقهقهين ليفهم على الفور "أنطونيوس" من وراء كل هذا ، وفي غمرة تلك الأحداث أشاح "سيزار" إلى بعض الصبية والأطفال الذين ركضوا وراء "أنطونيوس" قاذفين إياه بالحجارة الصغيرة المدببة منادين قائلين :

- النجس ، النجس ، أنطونيوس الدنس .

وما كان من "أنطونيوس" إلا أن غطى وجهه ناظرًا ناحية المبنى الوثني ليجد حبيبته تضحك وتقهقه على ما يحدث له ، فأغمض عينيه لفترة متذكرًا كل المتعة التي كان يأخذها منها غير متخيل أن تكون النهاية بتلك البشاعة والقسوة ، لقد تم فضحه داخل الثغر السكندري وها هم الأطفال يصيحون عليه قائلين :

- هذا هو النجس الدنس .
- أنطونيوس الهبيل .
- أنطونيوس الزاني حبيب الأوثان .

تدخل "سيزار" أخذًا السيد "غاليس" في أحضانه حيث أنهكه التعب من كثرة ضرب ابنه ليركض "أنطونيوس" تحت ستار الليل الذي تحول إلى نهار فجأة من وجهة نظره من كثرة

صياح الأطفال الذين يتابعونه حيثما يذهب ، وأناسٌ يتابعونه بأبصارهم غير مصدقين ما يحدث متسائلين كيف أنَّ "أنطونيوس" الشاب المسيحي الطالب بالمدرسة اللاهوتية يركض هكذا شبه عارٍ في شوارع الإسكندرية في قسوة البرد هارباً من بيت العهر الوثني للإلهة سيرابيس .

خرج "أنطونيوس" خارج المحلة من الباب الغربي حيث توقفت الأطفال وقتها عن الصياح واللهث وراءه وعاد سكون الليل وهدوؤه مرة أخرى من حول الشاب الذي نظر إلى السماء المزدانة بالنجوم قائلاً :

- أنت يا من زينت السماء بالنجوم وعريتني ، ألم تستطع أن تستر عليّ في ظلام الليل الحالك ؟ أنا أعلم أنك لم تحبني أو تريدني منذ زمن طويل ، منذ أن رزقتني بأب قاسٍ مثل أبي جعلني أكره العالم وما فيه هو من دفعني بقسوته وجبروته إلى طريق الخطيئة .

حاول الشاب التحكم في أنفاسه ودقات قلبه المتسارعة ليشعر أنَّ قلبه سيقفز خارجاً من صدره شاعراً بظماً رهيب مكملاً حديثه إلى السماء قائلاً :

- ليتني مت قبل أن أرى هذا اليوم الملعون ، كيف أعود إلى داري وأبي وأمي وأصدقائي وإسكندريتي ؟ كيف أمشي في شوارع المدينة رافعاً رأسي من جديد ؟ كيف أعود إلى حالتي الأولى ؟ ولكن ما هي حالتي الأولى .. ما أنا إلا جبان رعديد خائف من أبي ،

ضاعت كرامتي منذ زمن بعيد وليس لي رجاء ،
طلبت الرحمة ولم أجدها في هذا العالم ، لم أجد
الرحمة ، أنت أيها الرحيم لم ترحمني أو تجعل أبي
يرحمني ، لذا فأنا لا أريد شيئاً آخر من هذا العالم وما
أنا مززع أن أفعله سأفعله سريعاً .



خرج الصباح على الإسكندرية بكارنتين كبيرتين حيث
اكتشف أحد رعاة الغنم بينما هو أخذاً غنمه راعياً إياهم عند
مزارع الباب الغربي جثة شاب شبه عارية معلقة على أحد
فروع الأشجار فدقق فيه راعي الغنم غير عارفٍ إياه ليلبغ
السلطات الرومانية وتستيقظ الإسكندرية على نواح وعويل
انتحار "أنطونيوس" ابن الثري "غاليوس" مشنوقاً بحبل على
فرع شجرة متأرجحاً في الهواء مختاراً أن ينهي حياته بيده .
وبالطرف الآخر من الإسكندرية حيث دار السيد "فابيان"
انطلقت الصرخات من حنجرة الأم زوجة "فابيان" ومعها
بعض النسوة الأقارب والمعارف والجيران بسبب ضياع
ابنتهم "مارثا" واختفائها منذ ليلة أمس ليدب الشك في قلب
"سيزار" بأن يكون "أثناسيوس كوزموس" هو الفاعل ، فذهب
إلى بيت السيد "روفيوس" محاولاً أن يعرف من الأخير فلم
يجده أو يجد "ابن روفيو" اللذان انطلقا إلى حيث جثمان
صديقهم "أنطونيوس" .

خيم الصمت على كل من "ابن روفايوس" و "ابن كوزموس" وهم ينظران إلى صديقهما المسجى داخل التابوت حيث قامت السلطات الرومانية عند اكتشاف الجثمان بالتعرف عليه واستدعاء والده واضعين الشاب بالنعش ليستلمه ذاهباً إلى دفنه ، ولم يتجه "غاليوس" سوى إلى كنيسة "بوكاليا" للصلاة على الشاب منتظرين وصول الكاهن المسئول عن صلاة الجناز .

تسمر الشبان بأماكنهما غير مصدقين ما حدث مناجين صديقهما الراقد أمامهما سائلين عن حقيقة ما حدث ولكنهما لم يجدا إجابة منه فقرر أن يعرفا الحقيقة من أبيه ، كيف عرف أنه يذهب إلى المعبد لمقابلة راهبة زانية من راهبات معبد سيرابيس ؟

جاء الكاهن على عجل منفرداً بالسيد "غاليوس" لبرهة من الوقت وقد توافد عدد قليل لمواساة "غاليوس" والباقي امتنع لأسباب كثيرة منها طريقة الموت التي ذهب بها "أنطونيوس" من العالم ، وحال أمه بشعاً جداً فترأف عليها الشبان محاولين مساعدتها في تمالك أعصابها حتى سُمع صوت "غاليوس" يزعم ويصيح حيث يحاول الكاهن تهدأته بينما الآخر يسب ويلعن خارجاً من مكنه مع الكاهن مواجهاً الشعب الحاضر قائلاً :

- لقد أفنيت عمري في خدمة الكنيسة السكندرية التي ولدت ونشأت على إيمانها القويم طيلة حياتي حتى وقتنا الحاضر ولم أبخل عليها بمجهودي وعرقي

ومالي حتى ابني أردت له أن يصبح رجل دين لكن الله لم يرد ، والآن يريدون إقامة الحد على ولدي الحبيب الذي راح مني بسبب عدم اعتناء الكنيسة به .

لم يقدر أحد أن يتفوه بكلمة مع "غالوس" بسبب التهاب الموقف ، فقد رفض الكاهن أن يجري مراسم صلاة الجناز العام على الشاب "أنطونيوس" لسببين جوهريين ، الأول : وهو أن الشاب الشماس المسيحي "أنطونيوس غالوس" قد مارس الزنا مع وثنية وتلك من الكبائر ولم يسعفه الوقت أن يقدم توبة ومات في الخطيئة ، وإذا تغاضينا عن تلك النقطة الخطيرة داخل معتقدات الإيمان القويم وأسسها نأتي إلى الطامة الكبرى التي لن يجوز فيها حل أو غفران أو حتى شفاعة ألا وهي ثانيًا : الموت بالانتحار الذي ترفضه تعاليم الكنيسة المسيحية القوية نظرًا لأن الروح ليست ملك الإنسان بل ملك الله الديان وهو الوحيد الذي له حق أخذها في أي وقت كما أعطاها لك ، لذا فإن رأي آباء الكنيسة الأوائل اختلف ما اختلف ولكن اتفقوا في النهاية على أنه يجب أن لا يُصَلَّى على ميت منتحر بالكنيسة مثل الهرطوقي المحروم من فم الثالوث القدوس ، وعليه فإن حالة "أنطونيوس" لا يجوز الصلاة عليها في الكنيسة الأرثوذكسية .

غضب السيد "غالوس" لأعنا عمره الذي ضاع منه في خدمة الكنيسة الأم التي طردت ابنه شر طرده من حضرتها معتبرين إياه ابنًا للهلاك وليس ابنًا للنعمة ، ولأول مرة بينما

"غاليوس" يصيح ويطيح في كل من أمامه حتى خرجت زوجته عن صمتها ودموعها الحارة تعبر عن حالتها اليائسة قائلة :

- أنت السبب يا غاليوس ، قساوة قلبك وشدتك وعنفك المتزايد هي التي وضعت ابنك في تلك الحالة أمامك ، أنت مَنْ أرسلته إلى الجحيم ، أنت من أسئت إلى سمعتك في الإسكندرية عندما لم تسمع من ابنك ، أنت لست أبًا ، أنت وحش ، خذ ابنك الآن وادفنه بلا كرامة ، أما أنا فلن أعود معك بعد اليوم إلى الدار ، إنني أترك لك بيتك خرابًا .

خرجت أم "أنطونيوس" من الكنيسة مع بعض من النسوة الباقيات بينما دلف "سيزار" ومعه عصبته الآريوسية ، فصارت همهمة بين الحاضرين واشترأت الأعناق وتجمدت النظرات عليهم لمعرفة سبب مجيئهم حتى مال "سيزار" على "غاليوس" مقدماً واجب العزاء قائلاً في هدوء وخبت الحيات:

- قلبي معك يا عمي غاليوس في محنتك هذه ، ولا تحزن مما حدث معك الآن بالكنيسة .

نظر "غاليوس" بتمعن إلى "سيزار" لا يعرف بماذا يرد عليه ليكمل الآخر قائلاً :

- إننا على أتم الاستعداد الآن أن نقوم أنا وأصدقائي القادمين لتقديم واجب العزاء في أخينا "أنطونيوس" بحمله بوقار واحترام والتوجه به إلى كنيستنا التي في

وسط المدينة للصلاة عليه ، والكاهن المقدس في انتظارنا .

انغلق حاجبا "غالْيوس" لا يدري هل يذهب معهم وهو من أصحاب الإيمان القويم تاركًا كنيسته ذاهبًا إلى كنيسة الأعداء الأريوسيين الذي ظل طيلة حياته يحاربهم حتى وجد "سيزار" يكمل حديثه في دهاء شديد قائلاً :

- أنا أعلم ما يدور بعقلك الآن ، عمي "غالْيوس" أنسَ ما فات ولنبدأ صفحة جديدة الآن ، حفاظًا على ماء وجهك وسط الثغر السكندري كله حتى يقولوا أنَّ السيد "غالْيوس" دفن ابنه بعد أن صلى عليه ، حتى الوثنيين يصلون على موتاهم ، لا وقت للتفكير ورب هنا هو رب عندنا يا عمي العزيز ، لا تقلق أبي قد جهز جنازة فخمة مهيبة ستزف عريس السماء "أنطونيوس" من كنيستنا حتى المقابر على أجراس الكنيسة يتقدمه حملة الشموع والشمامسة مرتلين الألحان .. هيا يا عمي لا تضيع اليوم كله .

نظر "غالْيوس" بتمعن إلى الجميع ومن ثم إلى الهيكل المغلق أمام نعش ابنه ناقلًا بصره بين الكاهن الواقف خالي الوفاض و"سيزار" الذي يبدو عليه التأثر والحزن ليأخذ "غالْيوس" قراره بأخذ النعش والتوجه إلى الكنيسة اللأريوسية للصلاة عليه أخذًا عهدًا على نفسه وهو خارج من الكنيسة حيث وقف عند الباب الخشبي الكبير ملتفًا مواجهًا الكنيسة من الداخل والباب الخارجي ناحية ظهره صائحًا بأعلى صوته قائلاً :

- لا سلام ولا كلام بيني وبينك يا كنيسة الإيمان القويم
مرة أخرى حيث حرمت عليّ وحرمت عليك
ولا يوجد بيننا الآن أي رباط والتراب الذي علق
بنعلي أتركه لكم .

خلع "غالوس" نعليه نافضاً إياهم من التراب على باب
الكنيسة ليغادرها بلا رجعة ، وابتسامة خبيثة ظاهرة على
وجه "سيزار" الذي مال عليه "مركيان" في طريقهم إلى
الكنيسة سائلاً إياه قائلاً :

- كيف عرفت ليلة أمس أنّ والد "أنطونيوس" مختبئ
عند الراهبة ؟
- لأنني أنا من وجهته عن طريق مخطوط بعثت به إليه
عندما تأكدت من ذهاب "أنطونيوس" إلى هناك .
- إنك داهية يا أخي "سيزار" !
- الأهم الآن أنّ نجد أختي التي اختفت .
- أنا أشك في "أثناسيوس كوزموس" .
- وأنا معك ، لكن ليس هناك دليل ولا سيما أنّه يسير
وراءنا متبعاً إيانا لحضور الصلاة على صديقه .



وصل النعش والوفد المرافق له إلى الكنيسة الأريوسية
بوسط الإسكندرية ليجد "غالوس" السيد "فابيان" في انتظاره
ودموع التماسيح تغرق وجهه الحزين ، فهو حزين على ابنته
وحزين على ابن "غالوس" الذي ما أنّ علم بما حدث له من

فقدان لابنته حتى واساه بحرارة شديدة مطمئناً إياه أنه لا بد وأن يجدوها في النهاية .

بدأت مراسم صلاة الجناز بينما امتنع الشابان "أثناسيوس" عن الدخول مكتفين بتتبعهم النعش حتى وصل إلى الكنيسة منتظرين بالخارج حتى انتهاء الصلاة ، فهم لا يريدون دخول كنيسة أريوسية حتى لا يراهم أحدٌ ويخبر فهم من طلاب المدرسة اللاهوتية من جهة ومن جهة أخرى فإن آباء الكنيسة ومعلميها قد منعوا دخول مسيحيي الإيمان القويم إلى كنائس الأريوسيين ، محرمين ذلك الفعل واضعين أشد وأغلظ القوانين الروحية لكسر تلك الوصية .

خرج "سيزار" وبعينيه شرر الغضب الجامح ليقترّب من "أثناسيوس كوزموس" قائلاً :

- أعلم جيداً أيها الرعديد أنني لو عرفت إنك وراء اختفاء أختي "مارثا" ، فتأكد تماماً أنه سيكون آخر يوم في عمرك .

تدخل ابن "روفيوس" محتدّاً مدافعاً عن صديقه قائلاً في تهكم:

- فتش عنها في أحمالنا لعلك تجدها ، تكلم بأدب وإلا تصدّيت لك أنا شخصياً .

ابتسم "سيزار" ابتسامة صفراء قائلاً :

- لك يوم قريب جداً يا عزيزي "ابن روفيو" ، ووقتها لن ينفعلك شيء لا في السماء ولا على الأرض .

تدخل ابن "كوزموس" لتهدئة الأوضاع قائلاً :

- أهدأ يا "سيزار" نحن ليس لنا علاقة بأي شيء ، وإذا ظهرت أختك تأكد إنني أول من سيأتي بها إلى منزلكم.
- ربت "سيزار" على كتف ابن "كوزموس" بقوة قائلاً :
- لن أتركك أبداً يا صديقي .

انتهت صلاة الجناز ليخرج الموكب متجهاً إلى المدافن ، فرافق الصديقان نعش صديقهم حتى توارى في رمال الشاطئ السكندري حيث المدافن تقع شرق المدينة والجميع ينظرون لبعضهم البعض نظرات حادة نارية قاسية .



- اجتمع كل من السيد "فابيان" والقائد الرومي في منزل الأول لمناقشة آخر التطورات في قضية البحث عن "مارثا" ليقول القائد الرومي في عطف وشفقة :
- قلبي معك يا صديقي الحميم ، إن جميع القوات الرومانية بالإسكندرية تبحث عنها بلا كلل أو ملل أو تعب ، وسنجدها بإذن الله تلك العروس الصغيرة .
- ارتشف "فابيان" من كأس الخمر الذي أمامه قائلاً :
- وإذا كانت خارج نطاق الإسكندرية ؟
- لا تقلق ، لقد وزعت نشرة بأوصافها على جميع الحملات الرومانية التي على الطرق الخارجية ، وإذا عثروا عليها سيبلغونني فوراً .
- وما الحال إذا كانت أخذت مركب أو تم اختطافها ؟

ارتشف القائد جرعة كبيرة من الخمر واضعاً كأسه مربتاً على يد صديقه قائلاً :

- أهدأ يا سيد "فابيان" إنَّ الأمر لم يفت عليه الآن سوى ثلاثة أيام ، وإذا كان هناك حادث اختطاف بشأن طلب فدية للخاطفين لكانوا بعثوا بمطلبهم ، وأنا أستبعد الرأي الأول إنَّها ركبت مركب هاربة ، إنَّ "مارثا" فتاة عاقلة متزنة ويكفي إنَّها تربيتك الحكيمة .
- إذن دبرني بالله عليك ، أين هي ابنتي الغالية ؟
- لربما أرادت أنْ تقضي بضعة أيام عند أحد أقاربها خارج الإسكندرية .
- بدون علمي ؟ مستحيل حدوث هذا بالمرّة فهي منذ صغرها لا تخرج من الدار سوى بإذن مني ، الحقيقة أيها القائد العزيز ...

سكت "فابيان" عن الحديث ونظرة قلق وشك ظاهرة على وجهه ليلاحظها القائد واضعاً كأس الخمر على المنضدة قائلاً :

- ما هي الحقيقة ؟ صارحني بما في دخيلتك حتى نستطيع أنْ نصل إلى الفتاة .
- أنا أشك أنْ أكون قد قلت لها كلمة جارحة جعلتها تهرب من المنزل ، فقد فعلت هذا مرة واحدة منذ خمس سنوات لكن وجدناها في نفس اليوم بعد أنْ هربت إلى منزل خالتها .
- وأين منزل خالتها هذا ؟

- إنه يبعد عنا ببنايتين .

أظهر القائد اهتمامه وألمه لفقدان الفتاة مقنعًا "فابيان" بأنه سيبدل أقصى ما عنده ليستأذن راحلاً ، فودعه "فابيان" داخلاً إلى داره وزوجته تقف تسمع كل ذلك في صمت ، وقلبها يرقص فرحاً وحال وجهها الحزن العظيم .

ظهر "سيزار" أمام القائد قائلاً :

- عفوا يا سيدي القائد، هل لي بكلمة معك على انفراد؟
أبدى القائد ترحاباً شديداً مستمعاً إلى الشاب الغالي الذي صرح له أنه يشك أن يكون وراء اختفاء أخته الطالب "أثناسيوس كوزموس" والطالب "أثناسيوس روفوس" من طلبة المدرسة اللاهوتية ، فسأله القائد عن الداعي لذلك ، فتردد "سيزار" في البداية في التحدث حتى ضغط عليه القائد ليصارحه بأنه عرف أن لأخته علاقة "بأثناسيوس كوزموس" وأنه يشك أن الأخير يعرف مكانها ، فأظهر القائد جدية صارمة في أنه سيأخذ تلك المعلومات على محمل الجدية البالغة وسيعمل على تتبع "أثناسيوس روفوس" و "أثناسيوس كوزموس" .



(١٢)



- "أثناسيوس كوزموس" على باب الدار يا سيدي .
- نظر المعلم من خلال ضوء الشمعة المنيرة إلى الخادم بتمعن شديد قائلاً في هدوء :
- هل لاحظت إذا كان يراقبه أحد .
- أجاب الخادم في ثقة قائلاً :
- الطريق مؤمن جيداً يا سيدي .
- إذن أدخله .
- لم تمض لحظات حتى وقف "أثناسيوس كوزموس" في حضرة المعلم الصالح الذي ظهر على وجهه الضيق الشديد من زيارة تلميذه له ، فهو قد شدد عليه ونبه أنه غير مستحب بالمرة زيارته له في المنزل حتى لا يلفت الأنظار ، ليقول المعلم وهو ممسكٌ بلحيته البيضاء بيده اليمنى :
- ألم أحذرك من الزيارات المفاجئة لمنزلي ؟
- أوما الشاب برأسه بعلامة الإيجاب قائلاً :
- أنا آسف يا معلم لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي عن رؤيتها .
- وما الحال الآن إذا كان يتعقبك أخوها العنيد ؟

- لا تقلق ، إنه مشغول الآن مع عصبته في كنيستهم لإرسال منشورات إلى رجالهم بالقسطنطينية بصدد تدعيم رجالهم هناك ضد البابا السكندري .
أطلق المعلم نفساً عميقاً :

- إنَّ الأوضاع في القسطنطينية غير جيدة بالمرة ،
فالبابا "تيموثاوس" يحارب في عدة اتجاهات عديدة ،
الله ينصره على أعدائه ، تعالَ معي في هدوء .

تتبع الشاب معلمه حيث فتح باباً خشبياً يؤدي إلى قبو قديم أسفل الدار منيراً بالشموع بأكمله ، فوجد حبيبته منكبة على منضدة تقرأ العديد من المخطوطات التي أمامها بنهم شديد وما أن لاحظتهما حتى رفعت وجهها مبتسمة ليراها الشاب قد ازدادت جمالاً ورونقاً على ضوء الشموع النارية التي تضيء المكان معتقداً في مخيلته أنه إذا اطفأت تلك الأنوار لأضاءت حبيبته المكان بأكمله بل الثغر السكندري برمته محولة الليل إلى نهار .

لاحظ المعلم الحديث الخفي بينهما عن طريق النظرات والهمسات ليبتسم بهدوء شديد قائلاً :

- لا تطيل المكوث ها هنا فهي لديها العديد من الأعمال لتنتهيها حتى تصبح جاهزة في أقرب فرصة لنوال سر العماد المقدس .

همس الشاب قائلاً :

- أَعَدَّكَ يَا مُعَلِّمٌ ، إِنَّنِي لَنْ أَطِيلَ الْمَكُوثَ فَأَنَا كُلُّ مَا أُرَدَّتُهُ هُوَ الْإِطْمِنَانُ عَلَيْهَا فَقَطْ .
- دَخَلَ الْخَادِمُ مُسْرِعًا قَائِلًا فِي تَوْتَرٍ :
- الْقَائِدُ الرُّومِيُّ يَطْلُبُ الْمَقَابِلَةَ يَا مُعَلِّمٌ .
- انْتَفَضَ الْجَمِيعُ خَوْفًا بِمَا فِيهِمُ الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَتِمَّاكَ رِبَاطَةً جَاشَهُ قَائِلًا :
- لَا تَصْدُرُوا أَصْوَاتًا حَتَّى أَرَى مَا يَرِيدُ هَذَا الثَّعْلَبُ الْمَاكِرُ .
- صَعَدَ الْمُعَلِّمُ الدَّرَجَاتَ الْحَجَرِيَّةَ خَارِجًا تَارِكًا "أَنْثَاسِيُوسَ" وَ"مَارثَا" بِمُفْرَدِهِمَا لِيَقْتَرِبَ الشَّابُّ مَاسِكًا يَدَ الْفَتَاةِ الدَّافِئَةِ قَائِلًا :
- لَقَدْ اشْتَقَقْتُ إِلَيْكَ أَيَّتُهَا الْمَحْبُوبَةُ .
- تَوَرَدَتْ وَجَنَّتَا الْفَتَاةِ حَمْرَةً مِنَ الْخَجَلِ قَائِلَةً :
- وَأَنْتِ أَيْضًا ، مَا حَالُ الثَّغْرِ السَّكَنْدَرِيِّ وَأَبِي وَأَخِي وَآمِي ؟

حَكَى لَهَا الشَّابُّ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ عَنْ كُلِّ مَا يَدُورُ بِالْخَارِجِ مِنْ صَرَاعَاتٍ وَمَنَاوَشَاتٍ وَتَدْبِيرِ الْمَكَائِدِ بَيْنَ الْآرْيُوسِيِّينَ وَالْيَهُودِ وَالْوَثْنِيِّينَ مِنْ جِهَةٍ وَبَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْقَوِيمِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، وَأَنَّ عَائِلَتَهَا مِنْذُ اخْتِفَائِهَا لَمْ تَكُلْ أَوْ تَمَلْ فِي الْبَحْثِ عَنْهَا وَبِسَبَبِ ذَلِكَ يَشُنُّ الْآرْيُوسِيُّونَ غَارَاتٍ مُنْتَظِمَةً عَلَى أَهْلِ الْآرْثُودُكْسِ مُقْتَنِعِينَ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ يَدٌ بِشَكْلِ أَوْ بَآخِرٍ وَرَاءَ اخْتِفَائِهَا وَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَقَعَ أَمَامَ أَخِيهَا كُلِّ يَوْمٍ لِيَهْدِيهِ الْأَخِيرَ بِأَنَّهُ سَيَقْتُلُهُ إِذَا عَرَفَ أَنَّهُ لَهُ عِلَاقَةٌ وَرَاءَ اخْتِفَائِهَا .

انزعجت الفتاة من سيرة القتل هذه طالبة من حبيبها أن لا يتعرض لأخيها أو أبيها من قريب أو من بعيد ، فهي تعلم مدى شراستهم وعنفهم الدموي في بعض الأحيان وأنهم ممكن أن يفعلوا أي شيء لاستردادها ، فأبوها ليس بالشخص الهين وسط معشر الآريوسيين وأن تختفي ابنته هكذا بدون أي أثر لهو خزي وعار أمام أهل الثغر ، والحمد لله أنها قد نالت بركة أمها على ما تفعله .

طمأنها الشاب بأنّه لن يحتك بهما بل بالعكس هو يحاول تهدئة الوضع بأي شكل كان ، ويساعده صديقه "ابن روفئوس" الذي لا يبخل عليه بالمساعدة أبداً شاكرًا الله على مثل هذا الأخ الذي يناصره .

اقترب "أثناسيوس" من حبيبته أكثر وأكثر ليرى ما تقرأه من مخطوطات موضوعة أمامها على المنضدة ملاحظاً أنها تقرأ الكتب الدفاعية والعقائدية التي خطها البابا "أثناسيوس" ضد الوثنيين والآريوسيين ، وها هو مخطوط "تجسد الكلمة" الذي يشرح ألوهية الابن وتجسده غير مفرق بينه وبين الأب مثلما يفعل الآريوسيون ، ومن ثم مخطوط آخر يضم ثلاثة مقالات موجهة للآريوسيين يشرح لهم فيها العقيدة المسيحية الحقّة ويرد على افتراءاتهم وادعاءاتهم وبدعهم ضد الابن الكلمة ، ومخطوط ثالث يضم قوانين مجمع "نيقية" ، وآخر عن الرسائل التعليمية عن موضوع التجسد وبعض الكتابات الجدلية ضد الآريوسيين والإمبراطور "قسطنطينوس"

الآريوسي ، ومخطوط هام عن تاريخ آريوس والآريوسيين ،
نظر الشاب إلى "مارثا" قائلاً :

- إنك الآن تدرسين ما ندرسه في المدرسة اللاهوتية
بالضبط ، وبالقليل يمكن أن تصيري طالبة معنا .
ابتسمت الفتاة قائلة في وداعة :

- إنَّ كتابات البابا "أثناسيوس" تشرح أنَّ عمل الدين
ليس بالضغط بل بالإقناع ، وليس كما يفعل معشر
الآريوسيين .

وافق الشاب على رأيها هذا قائلاً هامساً :

- إنَّ من عظمة كتابات البابا "أثناسيوس" أنها تجعلك إذا
لم يكن لديك ورقاً لتنسخيه فمن الأفضل أن تنسخيه
على قلبك لينير لك الطريق ، طريق الحق والمعرفة .
- حقاً إنني نادمة على العمر الضائع الذي قضيته في
الآريوسية متبعة التعاليم المضلة الهرطوقية .

- لا تحزني يا حبيبتي ، فكل شيء تحت السماء وقت ،
ونحمد الله أنه أرسل المعلم الصالح في الوقت المناسب
ليقدم لنا يد العون في إنقاذك وإنقاذ حبنا .

غابت الفتاة بفكرها شاردة ناظرة إلى نيران الشمعة الموقدة
التي أمامها للحظات ليلاحظ ذلك الشاب قاطعاً شرودها سائلاً
عن سببه فلم يكن منها سوى أن قالت وقد ظهر الهمُّ الحزين
على وجهها الجميل :

- إنني أشفق على والدتي التي تحفظ الإيمان القويم بقلبها ولا تستطيع أن تجاهر به أمام زوجها والناس مفضلة أن تصمت إلى الأبد .
- إن الله يعطي التجربة ومعها المنفذ يا حبيبتي الغالية ولربما أنتِ المنفذ لوالدتك حيث إنها قامت بزراعة بذرة الإيمان القويم بداخلك داخل بيت آريوسي ، إن هذا لهو أعظم دليل على قوة تلك المرأة وشجاعتها . قاطعته "مارثا" قائلة :
- ولكن أبي وأخي ما زالا تحت النير الآريوسي .
- دعي الله يعمل وسنرى في النهاية يد الله تمتد لتحول العالم كله إلى الإيمان القويم وليس أبوك وأخيك فقط ، صدقيني .
- إنني أصدقك لكن أنت لا تعرف ما يخططون له مع عصبتهم الآريوسية ، إنهم ممتلئون حقداً وكراهية وبغضاً إلى معشر الإيمان القويم ودائماً ما سمعتم يريدون الاستيلاء على الكرسي السكندري بأي طريقة كانت وبأي ثمن سوف يدفع ، إنهم وحشيون لا أمان لهم يا حبيبي الغالي .

جلس الشاب واضعاً يده اليسرى على خده مواجهاً حبيبته قائلاً بشجن :

- أعلم كل هذا وعانيت منه بنفسني ، ورأيت من عانوا مثلي ، لكن لدي إيمان أن من غير الطبيعة الوحشية "الشاول الطرسوسي" ليصبح من بعدها

"بولس الرسول" معلم الأمم يمكن أن يمد يده محولاً هؤلاء الآريوسيين إلى صوابهم ويرد إياهم إلى حظيرة الإيمان المستقيم .

- لا أدري يا أثناسيوس إن كان هذا الفعل مستطاع لأنه يبدو أنهم قد تشبعوا بتعاليمهم وتقاليدهم الخاطئة مستخدمين جميع الأساليب لاجتذاب النفوس الضعيفة إلى صفهم ليزدادوا يوماً بعد يوم بالعشرات والمئات والآلاف في جميع ربوع مصر ، لتظهر قوتهم في اتحادهم فالبعض يشترونه بالمال والآخر بالمناصب القيادية وآخرين بسد احتياجاتهم الدنيوية مثل الفقراء والمعوزين حتى يصبحوا رجالاً ونساءً مخلصين في جيشهم الآريوسي المُعظَّم الذي يسعى إلى غزو العالم المسيحي بأكمله .

صمت الشاب لبرهة من الوقت ثم قال :

- ما هو ليس بمستطاع عند الناس مستطاع عند الله ، ولا نعرف حكمة الله في انتشار مثل تلك البدعة حتى الآن ، وهو وحده يعلم إلى متى ستستمر .

قاطعتَه بحدة قائلة :

- ولكن الضحايا كثيرون مثل أبي وأخي ، إلى أين سينتهى بهم المطاف ؟

- نحن نصلي من قلوبنا في الكنيسة والمدرسة أن يرفع الله تلك الغمة عن الشعب السكندري والمسيحي بوجه عام ولا تنسي أن ما يطلبه اثنان أو ثلاثة باسم الله

سوف يحقق لهم إذا كان في صالحهم ، والكنيسة كلها
تصلي .

- بعد أن قرأت الكثير من كتابات البابا "أثناسيوس"
وكتابات العلامة "أوريغانوس" شعرت أن المسيحية
تقوم على بساطة الإيمان ونقاوة القلب ولكن نحن الآن
من نحاول تعقيد الأمور مثل ما يحدث في بيت أبي
لينطبق قول السيد علينا الآن لن ندع الداخلون يدخلون
ملكوت الله ، فكما يضرب الآريوسيون بيد من حديد
وبقوة باطشة هكذا يرد عليهم جانب معشر الإيمان
القويم مستخدمين سلاح القوة فجميع الثورات والدماء
التي سفكت تكفي لأن تملأ بحر النهر السكندري
جاعلة من الدماء لون حياة .

- أعلم هذا جيداً وأنبذ العنف بجميع أشكاله من جميع
الأطراف محاولاً أن أسالم جميع الناس إن أمكن
لكن ...

صمت الشاب قليلاً لا يجد ما يبرر به ما يحدث إلى حبيبته
ليقول في النهاية بحسرة :

- سنقدم دينونة عن كل هذا إلى الله في اليوم الأخير ،
أتعلمين يا "مارثا" ، أحيانا يأتيني هاتف بأن آخذك من
ها هنا بعد عمادك وزواجنا لنترك النهر السكندري
بأكمله متجهين إلى البعيد ، البعيد جداً .

- تمعنت الفتاة في حبيبها باندھاش قائلة :
- وأين هذا البعيد يا حبيبي ؟ لم يعد العالم كله بعيد بعد ، لقد أصبح العالم قرية رومانية إما تدين بالمسيحية أو اليهودية أو بقايا الوثنية .
 - وهذا ما يحيرني واضعاً عقلي أمام أمواج البحر الهائجة فاتكة به ملقية إياي صريعاً على شاطئ الحياة .. أين هو البعيد ؟
 - البعيد هو السماء يا حبيبي أثناسيوس ، يجب أن نعيش حياتنا ونربي أولادنا على أن يكونوا دائماً على استعداد للقاء عريسهم السماوي .

ابتسم "أثناسيوس" من منطق محبوبته الذي أفحمه لتطابق التعاليم الإنجيلية ألا وهي : من أين أهرب من وجهك يا الله ؟ فرح الشاب بإيمان حبيبته العظيم مقوياً إياها في وسط كل هذه المتاعب والأحزان ، مذكرة إياه بوالدته الحنون العجوز التي تركها وراءه ببلدتهم لتقدمه هبة إلى الله متبعة الوصية بأن كل بكر فاتح رحم هو الله ، ولم تبخل على الله بابنها وحيدها قرة عينها ناصحة إياه دائماً بأن طريق الله الضيق هو أقرب الطرق إلى الملكوت .

- حاول الشاب إخراج حبيبته من هذا الحوار الذي لن ينتهي أبداً إذا تم التناقش فيه ليحول دفة الحديث قائلاً في حبور :
- وبمناسبة ذكر أولادنا ، ماذا تريدان .. فتى أم فتاة ؟
- توردت وجنتاها باللون الأحمر الجميل الذي يُظهرُ براءتها الأنثوية قائلة في همس :

- أنت ماذا تريد يا حبيبي ؟
- ابتسم "أثناسيوس" قائلاً في ثقة :
- أريد فتاة وأسميها "مارثا" .
- ظهر الخجل والحياء على وجه "مارثا" قائلة :
- وأنا أريد فتى أسميه أثناسيوس الصغير ، لأنك أنت الكبير .

لم يتمالك "أثناسيوس" دمعة سقطت خلسة من عينه ليقترّب أكثر وأكثر حتى أصبح وجهه ملاصقاً لوجه حبيبته شاعراً بحرارة أنفاسها وهي تسمع دقات قلبه المتسارعة ليطلع قبلة على جبينها حتى فُتِحَ باب القبر فجأة داخلاً المعلم الصالح لينتفض الشاب عائدًا مسرعًا إلى مكانه ، بينما نظرت الفتاة إلى مخطوطاتها مصطنعة القراءة بنهم ، والمعلم ينظر إليهما بتمعن شديد رافعًا حاجبه الأيسر ناظرًا إلى الشاب بينما ظهر على الأخير القلق قائلاً :

- ماذا كان يريد القائد الرومي يا معلم ؟
- أجاب المعلم بهدوء قائلاً :
- يريد منك الرحيل وعدم العودة إلا بإذني .
- ابتلع الشاب ريقه بصعوبة وسرت برودة في أوصاله قائلاً :
- هل علم أنني هنا الآن ؟
- ابتسم المعلم قائلاً :

- الزيارة انتهت أيها الطالب النجيب ، اذهب لاستذكار دروسك فالاختبارات قريباً ولا أريدك أن ترسب حتى لا أسلمك للفائد الرومي ، هيا اذهب .

تنفس الشاب الصعداء متقبلاً مزاح المعلم بصدر رحب مغادراً ، وبقي الأخير مع الفتاة شارحاً لها ما كتب في المخطوطات حيث أخرج لها ما كتبه البابا "أثناسيوس" عن حياة أبي الرهبنة المصرية الأب "أنطونيوس" الكبير ليحكي لها قصته كما دونها البابا فانبهرت الفتاة من سيرة هذا الشيخ الروحاني الجليل الذي باع كل ماله ومضى وحيداً إلى البرية وحروب الشياطين التي نزلت على رأسه كأمطار الثغر السكندري التي تغرق شعب الإسكندرية ، ومن ثم جهاده لخلاص نفسه ومن حوله ، وحربه ضد "أريوس" والأريوسيين في بداية انتشارهم والوثنية من قبلهم ومؤازرته لصديقه وبطرکه "أثناسيوس" حتى تنجح بسلام مؤسساً لمن بعده من أبنائه الرهبان نظام الرهبنة الذي لم يكن معروفاً من قبله لتسأل الفتاة المعلم قائلة :

- إذن يا معلم ، أظن أن حياة البتولية أفضل بكثير من حياة الزواج .

ابتسم المعلم من تفكير الفتاة البسيط التلقائي نظير سماعها قصة هذا المكافح الشيخ الروحاني ضد الشيطان وألعيه الخبيثة قائلاً لها :

- يا ابنتي ، اعلمي أنّ الرهبة طريق من طرق السماء ، ولا أخفي عليك أنّها طريق ورع محفوف بالمشقات والمخاطر والصعاب ، والزواج هو سر مقدس من الأسرار السبعة للكنيسة التي بها يحل الروح القدس على الاثنان ليصيروا واحدًا في الرب ، إذن الطريقان يؤديان إلى الرب .
- لكن طريق الزواج صعب فأنا أرى معاملة أبي القاسية لأمي وتحملها كل ذلك بصدر رحب ، أما في بعض الأحيان تنكسر نفسها لتنزوي باكية متحسرة على حياتها مع أبي الآريوسي الإيمان .
- وطريق الرهبة أيضا صعب وليس كل راهب يخلص يا ابنتي ، وكثير من الرهبان بعد سيامتهم يكتشفون ألم هذا الطريق فيفضلون بالحرى أن يعودوا إلى طريق العالم متزوجين منشئين عائلات . أعلمي يا ابنتي أنّ الله عندما خلق الإنسان خلقه كائنًا عاقلًا مفكرًا يعرف كيفية التمييز بين الخير والشر ، ولا يوجد إنسان بلا عذر على وجه الأرض لأنّ الله سيصل إليك حتى وإن كنت في بطن الحوت أو آتون النار أو جب الأسود ، وهو أيضًا الذي سمح لك بأن تجوزي وسط معصرة الألم معينًا إياك ، الطريق طويل والباب ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم !

شعرت الفتاة بسلام داخلي وقوة روحية منتعشة على أثر هذا الكلام الرائع الذي قاله المعلم الآن لتعرف أنَّ الرهبنة لا تختلف عن طريق الزواج في شيء ما دام كلاهما لمجد الله القدوس ، وأنَّ لا ينتقص من هذا أو من ذاك شيء بل بالعكس إنَّهم يكملون بعضهم البعض في الرب .



ترك المعلم الفتاة تستريح بعد عناء يوم كامل من القراءة والاطلاع والتفسير والشرح لتتنال قسطاً من الراحة منفرداً بنفسه على سطح منزله ناظراً إلى السماء الملبدة بالغيوم حاجبة ضوء القمر والنجوم والبحر هائج .

تمعن الشيخ في كل ما يحدث حوله ليصيبه القلق الشديد على أثر زيارة القائد الرومي الذي لم يكن قادماً سوى من أجل نفحة أخرى من المال وابتزاز المعلم ولكن لا مفر أو نجاة من سماجة القائد ، وانتمان شره أفضل وسيلة للحفاظ على "مارثا" لديه بداره فالجميع الآن وعلى رأسهم أبيها وأخيها فقدوا الأمل في أنَّها داخل الثغر السكندري مقتنعين أنَّها تركت المدينة إلى حيثما لا يعلمون بالمرّة ، والقائد يؤكد لهم تلك الهواجس والظنون حتى أنَّه بالغ في أن تكون الفتاة قد ابتلعتها أمواج البحر محبباً همتهم ونشاطهم في البحث ، ومع أنَّ عائلتها غير مقتنعة بتلك الفرضية إلا أنَّهم وضعوها في الحساب لكن ما يجب أن يحسبوا له حساب هو قلق القائد أن يتحرك الأريوسيون لشن رد فعل مباغت قوي نظير اختفاء

تلك الفتاة ، محوّلين الأمر إلى فتنة طائفية وحرب أهلية لا تنتهي بين أهالي الإسكندرية ولا سيما بعد أن تحول السيد "غالْيوس" إلى الآريوسية ، مما كان له أثره الموجه في قلوب أصحاب الإيمان القويم معتبرين إياها ضربه موجعة لما حدث من ملابسات يشكون في تدبيرها بهذا الإلتقان حتى يكتشف "غالْيوس" خيانة ابنه مع الراهبة الزانية وتتبعه له واختبائه داخل غرفتها وظهور "سيزار" المفاجئ ، كل ذلك ترك كمًا من التساؤلات غير المجاب عليها في عقول الكثير من قيادات أصحاب الإيمان القويم ، أما من حزن عليه المعلم فهو الضحية "أنطونيوس" تلميذه الذي لم يجد فرصة لإنقاذه ، وما زاد الأمور سخافة هو تراجع شعبية المدرسة وسط أهل الثغر حيث قام بعض أولياء الأمور بإخراج أبنائهم من المدرسة خوفًا عليهم حتى لا يصيبهم مثلما أصاب صاحبهم مفضلين إرسالهم إلى بلاد اليونان للتعلم بالمدرسة اللاهوتية هناك .

إنَّ ما يخشاه المعلم أن تتراكم كل تلك الحوادث فوق بعضها البعض صانعة شعلة نارية عظيمة ليغلي البحر السكندري حارقًا الجميع داخل قدر الانقسام الطائفي ، ولا أحد يعلم ما الذي يخبئه القدر في جعبته من مصائب يمكن أن تضاف إلى القائمة مؤكدًا أنَّ الإسكندرية بأهلها على شفا حفرة عميقة يمكن أن تؤدي إلى الهلاك ، والوالى السكندري لا يعرف ماذا يفعل أو من يرضي فإذا جاء في صف أبناء الإيمان المستقيم وجد مقاومة وعنادًا من الآريوسيين ، وإذا انتقل إليهم هاج

عليه أبناء الكنيسة الأم معتبرين إياه خائنًا ، ليقف اليهود والوثنيون أمام جميع هؤلاء رافضين أي قرار يناصر فريق على الآخر معتبرين أن في تفرقهم مكسب عظيم لهم لذا من حين لآخر يرسلون الشكاوى الموقعة والمختومة من كبار قومهم إلى الإمبراطور يشكون من سوء معاملتهم وعدم احترامهم وحمايتهم في الدولة الرومانية التي تكفل حرية الأديان والعقيدة ليجد الإمبراطور نفسه محاصرًا بوال خانع وشعب ثائر فيقوم بناءً على ذلك بعزل الوالي والإتيان بآخر ، لذا يسعى كل والي قادم على كرسي الإسكندرية إلى أن يداهن جميع الأطراف بخبث ودهاء حتى تطول فترة إقامته على أهم مدينة ليست بمصر فقط بل في العالم كله ، فالإسكندرية مهد العلم والحضارة والفلسفة بجميع طوائفها واتجاهاتها وأي قلق أو زعزعة أو اضطرابات أو قلاقل يمكن أن تؤثر على المملكة الرومانية بأكملها ، وعليه فإن حكم الإسكندرية في يد الإمبراطور الروماني بنفسه وما الوالي إلا أداة لتنفيذ رغبات الذات الإمبراطورية ، وخوف القائد الرومي أنه إذا تفاقمت أصوات الثورة إلى الكرسي الإمبراطوري يصبح الأمر سيئًا بتدخله الشخصي وهنا لا يعرف أحد أو يقدر أن يخمن ماذا ستكون سوء العاقبة وعلى رأس من ستسقط المطرقة الداهسة .

أخرج المعلم نفسًا عميقًا شاعرًا بزيادة الرطوبة في الهواء من حوله لتعطى للجو ثقلًا غير طبيعي يجعله يلتقط أنفاسه ببطء

وصعوبة ولكن أي صعب يحتمل أمام العاصفة القادمة من البحر .



- البحر أماننا والسماك المشوي جاهز للالتهام ، اجلس يا صديقي العزيز .

جلس "ابن كوزموس" أمام صديقه "ابن روففوس" أمام شعلة النيران التي أشعلها على شاطئ البحر شاوياً السمك الذي اصطاده ، اقترب "ابن كوزموس" من النيران متدفناً وصديقه يهتم بشواء السمك البحري قائلاً :

- لم نتقابل منذ واقعة "أنطونيوس" صديقنا الراحل .
تطلع "ابن كوزموس" إليه وعلى وجهه أمارات الحزن واليأس قائلاً :

- لا أريد التحدث في هذا الشأن .
ابتسم صديقه متهمكاً :

- وإذا لم نتكلم في هذا الشأن ، فمن سيتكلم فيه ، جلالة الإمبراطور مثلاً ؟

لم يرد "ابن كوزموس" على مثل تلك الدعاية التهمكية ، فاستكمل صديقه قائلاً :

- أتتذكر حديثنا عن العبثية القدرية الإلهية ؟ أنا واثق الآن أنها تتحقق معنا ، وأول عبثها ضياع صديقنا المسكين ضحية القهر الأبوي والخيانة الوثنية والمكيدة الآريوسية .

- ولمَ نظرية المؤامرة هذه ؟ "أنطونيوس" كان يفعل الخطأ وتم اكتشافه .

أخذ "ابن روفئوس" نفساً عميقاً مخرجاً إياه على دفعة واحدة وهو يقلب السمك على النار حتى لا يحترق قاطعاً بسكينه جزء منه متذوقاً إياه ناظراً بعدها إلى صديقه قائلاً :

- أصبت يا صديقي ، إنها نظرية المؤامرة التي اخترعتها من خيالي ، تباً لك وللمؤامرة ، أنت الآن تصنع من نفسك إلهاً يحكم على صديقه بالموت ، كان خاطئاً وتم اكتشافه .. أي خطيئة التي تتكلم عنها أيها الصديق ، من منكم بلا خطيئة فليرجمها أولاً .

لاحظ "ابن كوزموس" احتداد صديقه عليه ليحاول تهدئته قائلاً :

- أنا لم أقصد أن أنصب نفسي إلهاً أو حاكماً أو أدين الآخرين ، فأنا واقع تحت نير الخطيئة لكن ...

انتصب "ابن روفئوس" من مجلسه فجأة قائلاً في ثورة عارمة مقاطعاً صديقه :

- لكن كلنا خطاة مستوجبين حكم الموت مثل أنطونيوس الذي لم يجد رحمة أو شفقة في هذا الدين القويم أو بين أصدقائه فذهب إلى بيوت الزواني العاهرات عابدات الأوثان ، نحن السبب في ضياع أنطونيوس ، نحن من قدناه إلى الهلاك يا صديقي .

قام "ابن كوزموس" مواجهًا صديقه مُليماً إياه على تعنيفه وتحميلهم ذنب موت صديقهم قائلاً :

- لا تحملنا يا صاحبي أكثر من طاقتنا ، نحن لم نتسبب في موت أحد ، هو من انتحر بإرادته .
صفق "ابن روفوريوس" بيده صائحاً قائلاً والهواء يضرب وجهه بل جسده كله :

- بإرادته ، أهذا ما علموك إياه في المدرسة اللاهوتية العظيمة يا رجل الله ؟ نحن من قتلنا صديقنا ولن أسامح نفسي أبداً على هذا الفعل الشائن أبداً .
كيف قتلناه ؟

- ألسنا نحن أعضاء في جسد المسيح الواحد ؟ وإن تألم عضو فيجب أن تساعد جميع الأعضاء حتى يشفى في جسد الله ، أليس كذلك يا صاحب ؟

تفتق ذهن "ابن كوزموس" في الحال لمنطق صديقه فانغلق حاجباه وظهر الوجوم على وجهه فأكمل صديقه حديثه منفعلًا مشوحًا بيده قائلاً :

- ومن هو ومن نحن في الله ، كلنا أعضاء في جسد المسيح وقد صرح لنا "أنطونيوس" بأنه يتألم من جراء عنف أبيه معه ونحن لم نتحرك لنجدة العضو الذي بجسد المسيح ، إذن نحن من قتلناه .

اقترب "ابن روفوريوس" من صاحبه حتى أصبح ملاصقًا له وجهًا لوجه ماسكًا إياه من تلاييب عباة قائلاً :

- وإذا كان ثمن الخطيئة الموت ، فيجب أن نموت جميعاً
لأننا كلنا خطاة ، كلاب ، عبيد للشهوة ، لم يموت
أنطونيوس بمفرده منتحراً ؟

برقت أعين "ابن روفئوس" بينما ابتلع "ابن كوزموس" ريقه
لا يعرف بماذا يرد ليكمل الآخر قائلاً :

- إن كل ما كان يطلبه "أنطونيوس" هو المساعدة
والرحمة ، ونحن لم نرحمه أو نساعد على إيجاد
الرحمة فوجدها لدى الراهبة الوثنية بطريقة ما
واستغل الدهاء الأريوسي الشيطاني تلك الكبوة لتصبح
خاتمة ملعونة ، إذن لن توجد لنا رحمة نحن الآخرين
ثِقْ في هذا يا "أثناسيوس" .

قال "ابن كوزموس" وهو واضعاً رأسه بالأرض قائلاً :
- وما العمل ؟ فما حدث قد حدث .

ترك "ابن روفئوس" صديقه ناظرًا إلى السمك الذي احترق
كاملاً ولم يعد يصلح للأكل بعد قائلاً :

- سنصبح مثل هذا السمك محترقين كلنا بنار التجربة ،
ستبدأ لعنه أنطونيوس السكندري ولن تنتهي حتى تنهي
علينا ، سوف يُترك لنا بيتنا خراباً ولن يقوم هناك
حجر على حجر .

- هل ستهدم الإسكندرية ؟

نظر "ابن روفئوس" بآلم وحسرة إلى صديقه وحلقه به غصة
المرارة قائلاً :

- نحن الإسكندرية يا صديقي ، ولأنَّك لست من مدينتنا بل أتيت من الصعيد فلا تشعر بما نشعر به ، أنا قد تربيت على هذا الشاطئ ، أحصيت رماله أكثر من مرة ، سبحت في مياهه المالحة متجرعاً منها ، لكني لم أتجرع مراراً مثل الآن وحزناً وكمدًا أقسى بكثير من المياه المالحة الحلوة المذاق مقارنة بما يحدث ، نحن ملعونون يا صديقي ، لقد أصابت الإسكندرية اللعنة ولن تنتهي ، لن تنتهي .

اقترب من صاحبه أكثر وأكثر هامساً في أذنه قائلاً :

- هل ترى أمواج البحر الثائرة ؟ هكذا سنثور ، هل ترى تخبطها وانكسارها على الشاطئ ؟ هكذا سننكسر ، ما زال الانقسام الحقيقي لم يحدث بعد ، لقد خُلِقَتْ المسيحية للانقسام والتفرق يا صديقي .

صاح "ابن روفئوس" بأعلى صوته ليُسمع أهل الثغر السكندري جميعهم في منتصف الليل والرياح حملت صوته بعيداً ناحية البحر وهو يقول :

- أستمعني أيها المعلم الصالح ، إنَّ الله جبلنا لتتفرق في الأرض مثل برج بابل ، وحتى الآن المسيحية تنقسم بأيدينا .. أيها "البابا أثناسيوس" يا حامي الإيمان ، تلك المرة ليس عدونا اليهود أو الوثنيون أو الآريوسيون بل نحن أعداء أنفسنا ، قمنا وانتصبنا وانقسمنا على إلها ، فلنتحمل الغضب العارم الآتي ، لقد تلوثت

أيدينا بالدماء وعلى ثيابه اقترعنا وقسمنا ، ما لم يفعله
صالبوك نحن فعلناه ، شققنا الثوب .

ركض "ابن روفئوس" ناحية البحر ، واضعاً يديه في الماء
غاسلاً إياها ، قائلاً مواجهاً البحر العاتي :

- إنني بريء من دم هذا البار .

صمت لبرهة غير مقتنع بما يحدث ، فنزل إلى الماء بملابسه
حتى دخل وراءه "ابن كوزموس" إلى العمق ساحباً إياه حتى
لا يثقل ويغرق في اليم ، والآخر يقول صائحاً مناجياً
السماء :

- اغسلني فأبيض أكثر من الثلج ، اغسلني كثيراً من

إثمي ، ومن خطيئتي ، طهرني .. أنا من قتلت

"أنطونيوس" البريء .

شد "ابن كوزموس" صديقه المبتل من رأسه حتى أخص
قدمه جالساً به على الشاطئ و"ابن روفئوس" يبكي بحرقة
قائلاً في ألم شديد :

- على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا عندما تذكرنا

صهيون .

مد "ابن كوزموس" يده إلى صديقه محتضناً إياه بقوة شديدة ،
باكياً معه غير محتمل أن يرى مثل تلك المعاناة الرهيبة
والعذاب النفسي ، بينما من بعيد وقف شاب آريوسى يدعى
"سيزار" يسمع ويرى ما يحدث .



(١٣)



- ما يحدث الآن بالإسكندرية لا يريح القلب أو العقل وإنما يشعل النفوس ويوقظ الأرواح الشريرة من مكامنها لتنتطلق من مخارج الأرض منكبة على فرائسها فاتكة بها قاضية عليها تاركة وراءها أشلاء وجثث تكاد تملأ البحر السكندري محولة إياه إلى مقبرة مائية ، وكل يوم يمر لا يكون أحسن حالاً من سابقه بل أسوأ وأسوأ .

أنهى المعلم الصالح تأمله هذا وهو واقفاً بشرفة مكتبه بالمدرسة متطلعاً إلى البحر الهادئ نسبياً وحركة الميناء السكندري كالمعتاد لا جديد بها ، سفن قادمة وسفن ذاهبة ، وبضائع بعضها محمل على الأكتاف والآخر ما زال على رصيف الميناء ينتظر التحميل ، دخل أحد العاملين بالمدرسة مخاطباً المعلم بأن هناك كاهن يريد مقابلته .

جلس كل من المعلم والكاهن "ثاؤفيلس" بعد أن حيا بعضهما البعض بالتحية المسيحية ، استفسر "ثاؤفيلس" عن سبب استدعاء المعلم له على وجه السرعة في منتصف النهار حيث

لديه من الأعمال بالكنيسة الكثير والكثير ، ولاحظ المعلم هذا فتطرق إلى صُلب الموضوع مباشرة قائلاً :

- أيها الكاهن العزيز ، أنا لي من العمر معك الكثير منذ أن تتلمذنا على يد البابا "أثناسيوس" ولك لدي معزة خاصة بالقلب وأريد أن أستودعك سرّاً لم أر سواك أميناً عليه من وسط كل أبناء كنيسة الإسكندرية .
ظهر القلق والتوتر على وجه الكاهن فلم يجعل المعلم له وقتاً للتعجب سائلاً إياه :

- هل سمعت عن الفتاة الأريوسية المدعوة "مارثا" المختفية منذ وقت قريب ، ابنة السيد فابيان الأريوسي.
اتسعت أعين الكاهن قائلاً في هدوء :

- نعم ، سمعت بها فلا يوجد أحد بالشعر السكندري لم يسمع بها أيها المعلم .
- إذن اسمعني جيداً .. إنّ الفتاة لم تختف خارج الإسكندرية أو غرقت في البحر كما زعم البعض ، إنّها لدي في داري .

قطب الكاهن حاجبيه مستغرباً مما يقوله المعلم الذي أكمل حديثه حاكياً القصة كلها إلى أخيه الذي بدت على وجهه علامات التركيز الشديد والانتباه لكل ما يقال مستوعباً إياه ، يطلب منه المعلم في النهاية أن يقوم بتعميد الفتاة في الكتمان بعد أن أشرف بنفسه شخصياً على تعليمها التعاليم المسيحية للإيمان المستقيم ، وقد تقبلت الفتاة نعمة الإيمان الأرثوذكسي

وهي مستعدة لنوال سر العماد ، ومن ثم تزويجها بالطالب الشاب الملتحق بالمدرسة اللاهوتية .
ظهرت ملامح التفاؤل والانسجام على وجه "ثاؤفيلس" سائلاً صديقه قائلاً :

- وبعد هذا ماذا سيحدث إذا تم اكتشاف الأمر ؟ "فابيان" مجنون ويمكن أن يشعل الإسكندرية جحيماً ويشن حرباً علينا .

أمسك المعلم لحيته بيده اليمنى قائلاً :

- وما رأيك أنت يا صديقي العزيز ؟
- أنا أرى أنَّ الله يريد هذا ، ولتكن إرادة الله للفتاة والشاب لكن نتائج تلك القصة إذا عرفت ... لا نعرف ماذا سيحدث وقتها ، لذا فليبقَ كل شيء في السر ويستحسن يا صديقي أنَّ لا يبقوا في الإسكندرية ، ليرحلوا بعيداً .

- هذا ما فكرت فيه أنا أيضاً .
- وهل لديك خطة لخروجهم من الإسكندرية ؟
- نعم ، لا تشغل عقلك بذلك أيها الكاهن العزيز ، المهم أنَّ ترتب لنا أمر العماد في الكتمان ، فماذا تقترح ؟
- أتتذكر المعمودية الموجودة أسفل الأرض عند مخارج المدينة ، التي كنا نستخدمها لتعميد المؤمنين الجدد إبان العهد الوثني .

قطب المعلم حاجبيه محاولاً تذكرها حتى فلق مشيداً بصديقه على اختياره ذلك المكان الخفي الذي لربما نسيه المسيحيون

أنفسهم ، واتفق الاثنان أن يكون العماد أولاً يعقبه الزواج ثانياً على أن يستعد الكاهن بأدواته منتظراً إشارة البدء من المعلم ، فنهض الكاهن محيياً المعلم منصرفاً ليستوقفه الأخير سائلاً إياه عن "كيرلس" ابن اخته فأعلمه الكاهن أنه بخير نامياً في الحياة الروحية والفضل كله يرجع إلى معلمه المعلم الصالح ، فهو من تلاميذه بالمدرسة ، فأرسل المعلم السلام إليه مترجياً أن يراه في القريب العاجل .



- في القريب العاجل ، في القريب العاجل ، هذا هو ما نسمعه منك منذ زمن يا سيد "روفيوس" ، لقد مات "أنطونيوس" وذهب أبوه إلى الأريوسيين ولم نأخذ أي خطوة للتأثر من تلك العاهرة الوثنية .

قال أحد الصيادين الثائرين المجتمعين داخل دار "روفيوس" الجالس منهمكاً في التفكير حزيناً متألماً لما يحدث ، فأجابت امرأة أخرى قائلة :

- ألم يصبح بعد في الشجر السكندري رجال ؟ إذن دعوا النساء تأخذ الثأر ، وأنا أقولها إننا لجديرات بها .

خرج "روفيوس" عن صمته قائلاً بحدة موجهاً كلامه إلى الجمع المحتشد من طائفة الصيادين :

- ما هذا اللغو الفارغ الذي أسمع ، إن رجال الإسكندرية أشداء وبخير حال لكن ما المطلوب فعله هو الأهم .

صرخ أحد الرجال قائلاً :

- نقتل الراهبة العاهرة ونحرق المعبد عن بكرة أبيه ،
معبد الشياطين هذا النجس الدنس ، فهم السبب في كل
ما حدث للمسكين "أنطونيوس" وضياع السيد
"غاليلوس" منا .

اغتم "روفيوس" عند ذكر ضياع صديقه من حظيرة الإيمان
القيوم لينتفض قائلاً :

- إذن يا رجال ، بعد القداس الإلهي الذي سنحضره
سويًا غدًا سنخرج بالمشاعل ونحرق معبد الشر ، معبد
الإلهة سيرابيس محولين إياه إلى كومة من الرماد
ليكون عبرة لمن لا يعتبر ، منقذين شبابنا منه ورحم
الله الشاب المسكين "أنطونيوس" .

صاح جميع الحاضرين بحياة السيد "روفيوس" متفرقين كل
واحد إلى حاله على أمل اللقاء غدًا لتدمير المعبد .

وصل القائد الرومي مشاهدًا خروج الجميع من دار
"روفيوس" الذي ما أن وقعت عيناه عليه حتى حيّاه بأحسن
تحية ليدخل القائد إلى الدار ويأمر صاحب الدار بإحضار
أفخم أنواع الخمر ، فاحتسى القائد طالبًا من "روفيوس" أن
يتحدثا على انفراد دون أن يكون أحد معهما أو يسمعهما ،
فظهرت علامات التعجب على وجهه أخذًا القائد صاعدًا به
إلى سطح المنزل جالسين في وضوح النهار تحت التكمعية
المليئة بالعنب ، وما أن سكن الاثنان بمفردهم حتى تكلم القائد
بصوت منخفض يدل على الاهتمام الشديد والسرية قائلاً :

- هل تسمع بعائلة يهودية تدعى "عائلة مناخم" .
- نظر "روفيوس" بجميع الاتجاهات في السطح حتى تطلع إلى البحر ليطلق بأصبعه الغليظ قائلاً :
- نعم ، سمعت عنهم ، أليسوا هؤلاء المرابون اليهود ؟
- أوماً القائد برأسه بعلامة الإيجاب حتى أكمل "روفيوس" قائلاً بتقرز :
- إنهم مرابون وأنا لا أتعامل مع مثل تلك العينات من الحيوانات .. أنا لا أعتبرهم بشراً بأي حال من الأحوال ، ليس بشراً من يستغل ضعف أخيه الإنسان في مقابل المال .
- لا يهم في ماذا يعملون ولكن الأهم ما سأقوله لك الآن ، إنَّ هذه العائلة لديها ابنة تدعى أنَّها حامل من ابنك "أثناسيوس" .

سقط كوب الخمر من يد "روفيوس" بينما أكمل القائد حديثه عن أنَّ هذه الأخبار منتشرة بين أعضاء الجالية اليهودية داخل الإسكندرية ، وقد انتقلت إلى المسيحيين ويجب السيطرة على هذا الأمر حتى لا يستفحل بشكل كبير ملتهماً الأخضر واليابس من أمامه ، فخير مثل هذه الفضيحة يمكن أن يؤدي إلى نتائج دموية بين الفريقين وأعوان كل منهما إذا ثبت صحتها ، مع أنَّ القائد يشك فيها إلا أنَّه متأكد من شيء واحد ألا وهو أنَّه كانت وما زالت توجد علاقة بين الشاب الصغير "أثناسيوس" و"ابنة مناخم اليهودي" لكن إلى أي مدى وصلت لا يعلم فهو في النهاية القائد الرومي وأي شيء يخص أمن

أصدقائه وعائلتهم يعتبر من اختصاصات عمله ، طالبًا من "روفيوس" سرعة التدخل والتحدث مع ابنه والوقوف على حقيقة الأمر ، وأمّا من ناحيته هو سوف يقوم بتدبير لقاء مع هذا "المناحم" ليكون اجتماعًا ثلاثيًا بينهم لمناقشة هذا الأمر الهام الخطير محاولين تفادي أضراره لأنه بالطبيعة لن يكون له فوائد البتة .

رحل القائد الرومي تاركًا "روفيوس" مراقبًا إياه من سطح داره وعقله يكاد يطير من مكمنه شاعرًا بطعنة خنجر تخترق قلبه ، فهو لم يتوقع أبدًا أن تأتي الضربة الخائنة من ابنه قرّة عينه ، مناديًا عليه بأعلى صوته صائحًا فلم يجده ، أتى أحد الخدم مخبرًا السيد أن ابنه بالخارج بعد فانتظره "روفيوس" ولم يخرج من داره طيلة اليوم منتظرًا حضور الشبل الصغير لأنّه سيتعلم درسًا قاسيًا .



دخل "أثناسيوس" إلى الدار محاولًا أن لا يصدر عنه صوت حيث تأخر الوقت ليلًا ولا يريد أن يسبب إزعاجًا لمن هم نائمون فوجد شبحًا يتحرك في الظلام فتسمر الشاب في مكانه حتى ظهر ذلك الشبح على أثر ضوء الشمعة الضخمة التي تنير ساحة الدار ولم يكن سوى أباه فاندesh الابن من استيقاظ أبيه حتى الآن ، فهو يعلم أنّه يذهب إلى النوم مبكرًا لأنّه يستيقظ مع انبثاق أول ضوء للفجر ذاهبًا للصيد مع أسطوله من الزوارق البحرية .

اقترب الأب من ابنه وعلى وجهه علامات القنوط والغضب الجارف الذي سيطيح بالصغير الآن ، وبالفعل ما أن أصبح الاثنان ملاصقان لبعضهما البعض مواجهين بعضهما وجهًا لوجه إذ بالأب على غفلة ودون سابق إنذار يرفع يده في الهواء هالويًا بها على وجه الشاب الذي أخذ الصفعة عائدًا إلى الوراء بضع خطوات من قوتها ، وخيط رفيع من الدماء يسيل من فمه ناظرًا إلى أبيه بفضول غريب مما يفعله الآن ، فهو لم يضربه منذ زمن بعيد منذ أن كان طفلًا صغيرًا ، والتساؤل الآن الذي على لسان الشاب قائلاً :

- لماذا يا أبي ، ماذا فعلت لكل هذا ؟

نظر الأب إلى ابنه بغضب صائحًا قائلاً :

- ألا تعرف ما الذي فعلته أيها الابن العاق ؟

لم يأتِ على بال "أثناسيوس" أن أباه قد علم شيئًا عن الفتاة اليهودية ليستيقظ كل أهل الدار والخدم ، وأيضًا "ابن كوزموس" الذي يعيش بدار صغيرة تابعة للسيد "روفيوس" بجانب داره الأساسية ، ركض "ابن كوزموس" على صوت صياح "روفيوس" في منتصف الليل ليجد باب الدار مفتوحًا وصديقه يقول لأبيه :

- ما الذي فعلته لكل هذا ؟

هاج الأب بشدة قائلاً :

- أتبيع اسم أبيك بالرخيص واضعًا إياه في الوحل ؟

أذهب وتتجاسر لتحب واحدة من القوم صالبي السيد ؟

أستضع يدك في يد الذين دم السيد عليهم وعلى
أبنائهم ؟ هل جننت أم فقدت عقلك أيها الابن المعتوه ؟

تصعب الابن عرقًا لا يدري بماذا يواجه أباه ، واجدًا نفسه
يقول فجأة :

- كيف عرفت يا أبي ؟

ظهرت ابتسامة تهكمية على وجه الأب صائحًا قائلاً :

- ما يهمك من أين عرفت ؟!

أحب أن أعرفك أيها العاشق الولهان أن نصف شعب
الإسكندرية قد عرف ، والنصف الآخر في طريقه
لكشف سر ك القدر .

نظر الابن بفضول إلى أبيه عند ذكر كلمة "السر" تلك ليقول
محاولًا امتصاص غضب أبيه :

- إنها علاقة عابرة يا أبي وليس بها أي أسرار .

صرخ "روفيوس" في وجه ابنه قائلاً :

- أما زلت تكذب أيها الفاجر الملعون ؟ إنها تقول أنها
تحمل طفلك !

نزلت صاعقة من السماء على رأس "أثناسيوس بن كوزموس"
عندما سمع هذا الاتهام على صديقه الذي بدأ يدافع عن نفسه
قائلاً :

- هذا كذب وافتراء ، أتصدق بني اليهود يا أبي ؟

جلس "روفيوس" شاعرًا بجسده يكاد يحترق من الغيظ
والغضب ، قائلاً محاولًا تهدئة نفسه :

- ولم تفكر أنت من قبل عندما ذهبت إلى بني اليهود الأنجاس المرابين لتحب ابنتهم من وراء أبيك .
- ضرب الابن يده على المنضدة بقوة مسقطاً الأكواب الفارغة من فوقها قائلاً :
- إنني أعترف بأنني كنت على علاقة بتلك الفتاة اليهودية لكن لم أقترب منها إلى حد أن أجعلها حبلتي .
- نظر الأب بتمعن وقد تبللت جبهته بالعرق قائلاً :
- ولماذا تكون لك علاقة بفتاة يهودية وأنت ابن روفوس حامي كنيسة الإيمان المستقيم الذي يعيش على شرفه وولائه لله العلي؟!

صمت الشاب لا يعرف بما يجيب واضحاً نظره في الأرض غير قادر على رؤية أبيه فأكمل الأخير قائلاً :

- أجبنني ، انظر إلي وأجبنني .. لِمَ تركت جميع بنات المسيحيين ذاهباً إلى اليهودية ؟ لِمَ أنزلت بشييتي إلى الهاوية متشبهاً بـ "عيسو بن إسحق" ذاهباً إلى بنات كنعان أيها الأحمق ؟ ألا تعلم أن بهم موت ونسلك يباد متى اختلطت بهم ؟

رفع الابن رأسه قائلاً في حدة :

- أقسم لك برحمة أمي .. إنني لم أمس تلك الفتاة ، إنها علاقة عابرة لا أكثر أو أقل .

رمى الأب ابنه قائلاً :

- وما فائدة القسم الآن ، فإذا أتت بطفل كيف سنواجه شعب الإسكندرية الذي يثق فينا ؟

- فلتأتِ بقبالة ونجعلها تفحصها ، وإذا ثبت أنها عذراء أكون أنا بريء .
- أوتظن أنَّ أبويها سيجعلوننا نجري فحص القبالة هكذا بكل سهولة ؟ أنت واهم ، وإذا حدث فما المانع أنَّ يخرقوا هم بكوريته لإثبات العلاقة ؟
- إذن من أين سيأتون بالطفل ؟
- من أي شخص غيرك أيها الغبي ، إنَّ اليهود خبثاء الفكر والعقيدة ، لم يعرفوا الله في السيد المسيح فكيف سيعرفونك أنت !

صمت الشاب محاولاً التفكير في مخرج من هذا المأزق العنيف ليجد أباه ينهض من مجلسه متجهاً إليه ماسكاً إياه من كتفيه قائلاً في قوة :

- ما الذي لم أفعله لك حتى تفعل هذا وتذهب مقيماً علاقة شيطانية مع فتاة يهودية ؟
- ابتسم الشاب قائلاً :

- لم أجدك يوماً بجانبني يا أبي ، فمذ رحيل أمي من هذا العالم وأنا لم أجدك بجانبني ، لم أشعر أنَّ لدي أب يحبني ويهتم بي ، أنت اهتمت بالكنيسة ومشاكل المؤمنين وتركت ابنك وحيدك ، أنت مثل عالي الكاهن اهتم بالله وأهمل في تربية أبنائه فماذا كانت النتيجة .

لم يحتمل "روفيوس" حديث ابنه الممتلئ بالتقريع فصفعه واجداً ابنه يخلت توازنه ساقطاً ثم ينهض مسرعاً ودموعه تتجرف على خديه حافرة تجاعيد عميقة ، ليمسك بقميصه ويشقه نصفين ماسكاً خنجره موجهاً إياه لصدرة قائلاً لأبيه صائحاً :

- خذ ، أمسك هذا الخنجر وأكمل عملك واقتلني يا أبي ،
- اقتلني واسترح مني ومن عاري الذي جلبته على رأسك ، أنت لم تفكر في يوماً ما بل أنت مهتم بتضخيم ثروتك من أسطول الصيد الخاص بك صانعاً مجدك الأرضي واضعاً نفسك بين أعلیاء القوم تاركاً إياي دون حب واهتمام ويوم أن فكرت أحب منعنتي باسم الطبقية .
- لقد أعطيتك كل شيء المال والجاه والاسم العريق ، من مثلك في الإسكندرية في مجدك و ثرائك وتعليمك .
- من مثلي في بؤسي وشقائي وتعاستي ، كل هذا المجد بدون حب أو عناية بلا فائدة يا أبي ، ليس المال هو من يصنع الرجال بل الرجال من يصنعون الحياة وأنت صنعت ما لا كثيراً لكن لم تصنع حياة ابنك بل دمرتها .
- ليس صحيح ، فأنا قد ألحقتك بالمدرسة اللاهوتية لتكون شيئاً كبيراً في المستقبل .
- أنت الذي ألحقتني بها لأصبح رجل دين ولست أنا من اخترتها ، أنا لا أصلح لأكون رجل دين لكن أنت يا

أبي من أرغمتني ، أنت من تريد أن تجعل مني ما لم تفعله أنت عندما كنت في سني .
وضع الأب نظره في الأرض قائلاً :

- وما المانع ؟

صاح الشاب قائلاً :

- المانع هو .. أنا لست أنت ، أنت أردت أن تكون رجل دين قديس وليس أنا .

- ولكن هذا لا يعطيك الحق أن تحب فتاة يهودية .

- تمردت على حالي الذي لا أريده ، أنا أعلم أن علاقتنا كانت ستنتهي بالفشل لأنه أيسر أن يمر جمل من ثقب الإبرة على أن يؤمن يهودي بالمسيحية ، لكني رأيت أن أعاندك فيما اخترته لي طيلة حياتي ولم يكن لي رأي بل أنت من كنت ترسم لي الطريق في كل شيء ، افعل هذا ولا تفعل تلك وأنا أجيب بالموافقة ، كل هذا ولا تأكل تلك وأنا أقول حاضر ، أرتد هذا ولا ترتد تلك فهذا لا يليق بمجد أولاد الله وأنا أقدم فروض الطاعة ، ادخل المدرسة اللاهوتية فسمعت ونفذت ، كان لا بد من أن أفعل شيئاً لا تفرضه على رغبتك .

- ولكن يا بني كل ما أملك هو لك من بعدي .

- لا أريده ، لا أريده ، أريد أن أكون أنا ولست ابن السيد روفئوس الثري الذي كلما حل بمكان ذكرت سيرة والده وكفاح والده وثناء والده وحبه للكنيسة ودفاعه عنها وأنا لست سوى ابن أبي ، حتى أنك

قد أشركتني في أعمالك التخريبية والتدميرية ضد
الآريوسيين .

رفع "روفوس" بصره إلى ابنه قائلاً بحزم :

- ولكن هذا كفاح مقدس !
- الكفاح المقدس ليس بالدم والنار يا أبي ، اقرأ الوصايا
المسيحية التي قالت إذا جاء إليك عدوك فأطعمه وليس
تهلكه ، هذا ما علموه إيانا بالمدرسة .
- ولكنهم يفعلون بنا هذا أيضاً .
- هم يفعلون لأنهم أبناء العالم أما نحن فأبناء الله ،
ألا تتذكر ؟ نحن السراج المنير الذي يضيء للعالم ،
نحن ملح الأرض الذي إذا فسد فبماذا يملح ، ولسنا
سيفاً على رقاب العباد أو منجلاً يحصد الأرواح .

لم يجب "روفوس" ليظهر على وجهه علامات الخجل فلا
يستطيع أن ينكر هو أو أي أحد ممن يستمع الآن إلى منطق
ابنه السليم ، إنه ليس من تعاليم الكتاب المقدس بل هو من
عمق التعاليم الكتابية ليكمل الشاب صائحاً قائلاً :

- لو ثنت يدي بالدماء وجعلت نفسي خربة من الداخل ،
إنني أرى في نفسي شخصين متناقضين بسببك ،
شخص طالب علم في المدرسة متعلماً كل تعاليم
المحبة والتسامح والغفران وبذل الذات من أجل
الجميع ، وشخص معك مختلف تمام الاختلاف يكره
الوثنيين واليهود والآريوسيين مدمراً إياهم .

- أي ازدواجية صنعتها داخلي باسم الدين الذي تحارب عنه ، اعلم يا أبي أن إله الدين المسيحي هو من يحارب عنه ولست أنت وأتباعك .
- إنَّ ما أفعله هو الغضب المقدس الذي يسيطر على كل أصحاب الإيمان القويم الشرفاء .
- ابتسم الشاب متهكمًا قائلاً :
- هذا ليس غضبًا مقدسًا ، إنه تدمير مدنس ، كلنا أئمة يا أبي ، نحن وهم منذ ارتضينا أن نسلك نفس طريقهم في التدمير والتخريب .
- نحن ندافع عن أنفسنا .
- سمَّها كما شئت ، لكن الله لا يبارك شيئًا مما نفعله خطأ ، وثق أننا سنقدم حساب وكالتنا ، هذا الحساب العسير لأننا لم نسلك حسب وصايا الله .
- انتفض "روفيوس" من مجلسه قائلاً بحدة شديدة :
- انتهى الحديث ، وما أراه صوابًا سأفعله حتى آخر عمري ، وأنت ستخضع إما هو لمصلحتك ولن تخرج بعد اليوم من الدار حتى أصل إلى حل في تلك المسألة ، أسمعت ؟
- خرَّ الشاب راكعًا باكيًا قائلاً :
- سمعت، سمعت، تكلم يا أبي فإن عبدك سامع وسينفذ .
- نظر "روفيوس" حوله واجدًا خدمه ينظرون إليه في رعب فصاح فيهم قائلاً :
- ما بالكم تشاهدون ؟ ليرجع كل منكم إلى مكانه .

خرج "روفيوس" مغلقاً باب داره خلفه موصداً إياه ليسير الهوينى على شاطئ الإسكندرية واجداً "ابن كوزموس" في أثره فالتفت إليه قائلاً له بحزم :

- أكنت تعلم بهذه العلاقة ؟

ردّ عليه الشاب محاولاً كسب عطفه قائلاً :

- أقسم لك بشرفك يا سيدي أنّها كانت علاقة عابرة ، ولم تصل إلى حد الحميمة أبداً .

ضرب "روفيوس" بقدمه رمال الشاطئ صائحاً قائلاً :

- حتى أنت كنت تعرف ولم تقل لي ، وأنا قد اعتبرتك مثل ابني محتضناً إياك كفرد من عائلتي في مسكني ، حتى أنت ؟!

- أتوسل إليك يا سيدي لا تفعل بابنك سوءاً فهو لم يخطئ مع تلك اليهودية قط ، لم يتعد الحدود مطلقاً معها .

صمت "روفيوس" لبرهة متأملاً البحر الهائج بأمواجه العاتية قائلاً محاولاً اصطناع الهدوء :

- حدود ، أي حدود التي تذكرها الآن ، أنتم أبناء هذا الجيل قد تخطيتم كل الحدود باسم الحرية ، تريدون أن تتحرروا من آبائكم وعشيرتكم ، فبالأمس القريب كان "أنطونيوس" لدى الراهبة الوثنية ، والآن ابني وحيدى مع فتاة يهودية ، أخشى ما أخشى أن تكون أنت مع أريوسية لتكتمل منظومة الفساد والانحلال التي تعتبرونها حدوداً .

- بلع الشاب ريقه بصعوبة شاعرًا بغصة في حلقة لا يعرف بما
يجيب مكملاً "روفيوس" قائلاً :
- غداً سنشعل معبد الإلهة سيرابيس ، أستشترك معنا أم
ستتخاذل مثل صديقك ؟
 - يا سيدي ما أخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ .
 - وهذا قدرنا ولن نتركه لأنّه لن يتركنا ، فإذا شئت تعالَ
معنا وإذا امتنعت فأرجو أن تبعد تلك المدة عن ابني
حتى أستطيع أن أصلح ما أفسده بغبائه ، أفهمت ؟
- أوما الشاب برأسه بعلامة الإيجاب ليتركه "روفيوس" مكملاً
مسيرته على الشاطئ بمفرده بينما ظل الشاب واقفاً مكانه
لمدة من الوقت حزيناً على ما يحدث منتظراً شروق الشمس
بفارغ الصبر .



- الصبر يا بنيّتي هو من أهم صفات المؤمن المسيحي
كمثال أيوب البار الذي صبر على جميع المصائب
التي حلت على رأسه دفعة واحدة .
- أقبل الصباح على الثغر السكندري والمعلم الصالح يعطي
ابنته وتلميذته درساً عن الصبر المسيحي حتى اقتحم الدرس
"ابن كوزموس" طالباً الانفراد بالمعلم ، ووجهه يبدو شاحباً
أصفر اللون حتى أنّ "مارثا" اقتنعت أنّ حبيبها لم ترَ عيونه
النوم ليلة أمس حتى أنّه حياها تحية باردة ليس بها ود أو حياة
كمثل عاداته .

انفرد "ابن كوزموس" بالمعلم حاكياً له كل شيء حدث ليلة أمس فامتقع وجه المعلم شاعراً بمطرقة هوت على رأسه صادمة إياها بعنف بالغ ، ناظراً إلى الشاب وهو يحكي بكل أحاسيسه وجوارحه ، وعلى وجهه علامات تجهم وخيبة أمل جراء تلك الأحداث الأخيرة المرعبة فخبير مثل هذا بالطبع إذا انتشر في ربوع الإسكندرية كلها ومن ثم انتقل إلى أرجاء القطر المصري بالطبع سيؤثر على سمعة المدرسة اللاهوتية مغيراً من نظرة الشعب المسيحي تجاه مستوى الطلاب وحالتهم ، فإذا كان طلاب المدرسة بهذا الشكل فبالحري ماذا سيكون شكل المسيحي العادي ؟

والكل يعلم مدى غيرة المصريين على كنيستهم وتأثرهم بكل الأحداث التي تحدث من حولهم بسبب طبيعتهم العاطفية المتعصبة وهذا حالهم منذ قديم الأزل إذا أحبوا شيئاً واقتنعوا به أصبحوا طائفة متعاطفة متعصبة لا يمكن السيطرة عليها بسهولة لتدور أيضاً العديد من الهواجس والأفكار الأخرى داخل مخيلة المعلم عما سيفعله السيد "روفيوس" بابنه ، وأيضاً أمام تلك المعضلة وأمام أهل الثغر السكندري لأنّ "روفيوس" ذو صيت واسع وشهرة عريضة لمحبيه ودفاعه عن الكنيسة ، والكل يشهد بذلك من أكبر شخص إلى أصغر شخص بالإسكندرية .

وضع المعلم وجهه بين راحتيه مفكراً فيما يمكن أن يفعله غير واجد أي شيء في الفترة الحالية لإنقاذ طالبيه النجيب ، أخرج نفساً عميقاً قائلاً إلى "ابن كوزموس" :

- وأين السيد "روفيوس" الآن ؟
- في طريقه لحرق معبد الإلهة سيرابيس انتقاماً لما حدث مع "أنطونيوس" .
- ظهر الاستياء الشديد على وجه المعلم قائلاً :
- لن تهدأ الإسكندرية تلك المدينة المجنونة ، يجب أن أقابل "روفيوس" محاولاً تهدئته والسيطرة على مشاعره الجامحة .
- لا أظنك ستستطيع الآن يا معلمي فهو في قمة الغضب والحنق .

انطلق صوت صراخ وعويل أناس تجري في الشوارع ليخرج المعلم وتلميذه ليروا ما الأمر حتى وجدوا الناس تهتف قائلة :

- احترق معبد الإلهة سيرابيس ، والفضل لـ "روفيوس" الرجل القديس .

نظر المعلم إلى تلميذه بحسرة شديدة مما يحدث ، فقد احترق المعبد وما أدرانا من احترق بداخله ؟ وأصبح السيد "روفيوس" في نظر المسيحيين رجلاً قديساً لقضائه على بيوت الأوثان والعاهرات ولا يوجد رجاء .



(١٤)



- الرجاء ، أننا لم نفقد الرجاء مطلقاً في خلاص إنسان ما دام قد بقي له أن يعيش ولو إلى نسمة واحدة ، لو أن الله لا يرتجي خلاصه فلماذا يُبقي على هذه النسمة ؟

وجه المعلم الصالح حديثه إلى طلابه برواقه الخاص به معلماً إياهم التعاليم المسيحية ، وقد التف حوله طلابه في شكل شبه دائري وقد تعدى عددهم الأربعين طالباً ليكمل حديثه عن أنه يجب نبذ العنف الذي يؤدي إلى هلاك الأنفس وعدم رجوعها إلى الله الذي يريد جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون ، مد طالب يده إلى الأمام طالباً السماح له بالتحدث فأعطاه المعلم الإذن بالحديث ، فقال الطالب في أدب بالغ :

- وهل ينطبق هذا الحديث على الوثنيين واليهود والأيوسيين يا معلم ؟

تمعن المعلم ناظراً في وجه تلاميذه قائلاً :

- الله يحب جميع البشر دون استثناء ، وتذكروا أن الله قد أتى من أجل المتعبين وثقيلي الأحمال وليس الأصحاء.

مد طالب آخر يده إلى الأمام طالبًا الإذن بالحديث ، فأشار له المعلم ، فقال الطالب :

- إذن يا معلم ، هل أنت ضد حرق المعابد الوثنية أم مؤيد لهذا الفعل ؟

- أنا ضد العنف وضد التخريب والقتل .

نظر الطالب بغیظ وضيق إلى المعلم طالبًا إكمال الحوار فأعطى المعلم له الفرصة :

- يا معلم ، يجب أن نرد عليهم وعلى تعنتهم وغلاظة قلوبهم ، إنَّ الوثنيين ما زالوا يقدمون قرابينًا بشرية في هيكل سيرابيوم ويمارسون الرجاسات والنجاسات العهرية في هيكل دارس الخاص بإله الخمر باخوس ، كيف نسمح بأن نطلق على أنفسنا مسيحيين ونحن نسمع بمثل هذه الانتهاكات التي تقام على أرضنا المقدسة ، أرض الثغر السكندري نحن أبناء الله وكنيسة الله على الأرض ، نحن شعب الله المختار .

ألهب ذلك الحديث مشاعر الطلاب حيث إنَّهم صفقوا بحرارة متحمسين جدًا لكلام صديقهم العزيز ناظرين إليه بفخر واعتزاز حتى رفع المعلم يده طالبًا من الطلبة التوقف عن التصفيق والتزام الهدوء ، فامتثل الطلاب ليقول المعلم في هدوء شديد :

- ولكن ليس الحل أن نقابل العنف الموجه منهم بالعنف فهناك جهات متخصصة لإبلاغها لإتخاذ الإجراءات

الأمنية لمكافحة مثل هذه الأنواع من الانتهاكات الصارخة .

ابتسم نفس الطالب ابتسامة تهكمية فلاحظ المعلم ذلك قائلاً :
- الله محبة ، بذلك أنهى محاضرتي ، والمجد لله دائماً .

طلب المعلم أن يبقى الطالب الذي نال استحسان زملائه الطلاب ، فأذعن الأخير .. أخذ المعلم إلى مكتبه منفرداً به قائلاً :

- من هو أب اعترافك يا فتى ؟

- الكاهن ثاؤفيلس .

أطلق المعلم زفيراً عميقاً قائلاً :

- وهل تناقشت معه فيما ذكرته منذ قليل بالرواق الدراسي ؟

- إنني قد تعلمته منه يا معلمي .

نظر المعلم حوله يميناً ويساراً ليجد أنه لا فائدة في التهاور مع الطالب تاركاً إياه يرحل إلى حال سبيله على أن يناقش حاله مع أب اعترافه الكاهن ثاؤفيلس صديقه .



- صديقي السيد "روفيوس" والد الشاب "أثناسيوس" يا سيد "مناحم" ، أرجو أن تجدا حلاً لمشكلتكما .

نظر "روفيوس" بغضب شديد وتجهم مغلقاً حاجبيه بينما "مناحم" على وجهه ابتسامة تهكمية ، وبجانبه ابنه ذو اللحية

الخفيفة وكلاهما يرتدي القبة الصوفية الصغيرة بينما وقف القائد الرومي في المنتصف بينهم قائلاً ما قال منتظراً أن يرد "روفيوس" تبعاً ، ولكن ظل الصمت هو الراعي لاجتماعهم هذا بالمنطقة النائية على مداخل الإسكندرية بعيداً عن أعين الناظرين من الأهل والعشيرة من كلا الجانبين ليبدأ السيد "مناحم" في فرض سياسة السماجة ووجهه يبدو عليه البرودة الشديدة والاحتقار لمقابلة "روفيوس" ليقول :

- لماذا لم تأت بولدك معك يا سيد "روفيوس" ؟

رمق "روفيوس" الآخر بنظرات نارية حادة يكاد يفتك به محاولاً اصطناع الهدوء قائلاً :

- مثلما أنت لم تأت بابنتك يا سيد "مناحم" !

بدا على "مناحم" التأثير الشديد قائلاً :

- المسكينة ، أتريد مني أن آتي بابنتي الوحيدة إلى هذا

المكان المهجور بحالتها تلك ، أنا في البداية والنهاية

أب رحيم يريد الحفاظ على ابنته .

رد "روفيوس" مقاطعاً :

- فلندخل مباشرة إلى الموضوع ، أنا لا أصدق ما تدعيه

أنت وابنتك على ابني .

تظاهر "مناحم" بالبكاء فقلده ابنه باكيًا هو الآخر و"روفيوس"

واثق أنها دموع التماسيح ليتدخل القائد قائلاً :

- الهدوء يا سادة لإنهاء الموضوع ، تمالك أعصابك أيها

السيد مناحم ، ولا تنس أن السيد روفوس لم يأت اليوم

سوى لإنهاء الوضع برمته ودرء الفضيحة .

قال "مناحم" في حزن مصطنع :

- ألا ترى أيها القائد شدته معنا ونحن المصابون في شرفنا ؟

رد القائد قائلاً :

- ما قد انكسر يا سادة يمكن إصلاحه .

علق "روفيوس" قائلاً :

- إلا هذا يا سادة ، لا يمكن إصلاحه .

قاطعته "مناحم" قائلاً :

- أرايتم أيها الحاضرون ؟ اشهد أيها القائد الرومي

العادل ، إنه لا يريد أن يصلح خطأ ابنه ، إذن لماذا

أتيت ؟ لتنزل بشييتي إلى الهاوية ؟!

قاطعته "روفيوس" وقد ظهر على وجهه علامات الضجر من

هذا اللغو الفارغ والتمثيل المصطنع ليقول محاولاً إنهاء ذلك

اللقاء الثقيل على قلبه :

- اسمع أيها اليهودي المرابي ، إنني لا أثق في معشر

اليهود وأنت من الضمن لذا اسمع شروطي إذا أردت

إنهاء هذا الوضع بسلام ، إذا أردت أن تثبت العلاقة

التي بين ابنتك وابني فيجب أن تسمح للقابلة التي

سأبعث بها للكشف على ابنتك وإذا لم نجدها عذراء

نتحدث مرة أخرى لنتنظر تسعة أشهر الوضع ونرى

ماذا سيأتي به القدر لنا ، فلعل وعسى يموت الطفل

ابن الزنا وننتهي .

بدا التوتر والقلق الشديد على وجه "مناحم" وولده ليقول مصطنعًا التأثير مما قيل :

- إنَّ بنات اليهود ليس لهن ثمن ، تعاملونهن معاملة الحيوانات ، وإنَّما إذا كانت ابنة من بنات المسيحيين لكانت انقلبت الإسكندرية رأسًا على عقب .

رد "روفيوس" بقوة ودهاء قائلاً :

- إنَّ بنات المسيحيين لا يفعلن هكذا أيُّها المحترم اليهودي ، لقد انتهى الحوار .

التفت "مناحم" إلى "روفيوس" في خبث شديد قائلاً :

- لا ، لم ينتهِ أيُّها السيد المحترم المسيحي ، فأنا قد استمعت إلى شروطك ولم أقل شروطي بعد .

حاول القائد تهدئة الوضع المحتقن قائلاً :

- وما هي شروطك أيُّها السيد "مناحم" ؟

نظر "مناحم" بخبث شديد إلى وجوه جميع الحاضرين قائلاً :

- إذا ثبت أنَّ ابنتي حبلَى من ولدك ووضعت مولودها

فسوف يعتنق ابنك اليهودية ويشهر علاقته بابنتي

متزوجًا ، وأنت أيُّها السيد "روفيوس" ستتكفل بكل

مصاريف الزواج وتهدي ابنتي ألف مركب صيد مما

تملكهم تعويضًا معنويًا عن ما حدث ورد شرف

واعتبار لاسم عائلتنا .

قهقهه "روفيوس" محاولًا إخفاء غيظه من خبث ودهاء ذلك

الثعلب الماكر "مناحم" قائلاً في سخرية :

- إنها ليست زيجة ، إنها صفقة ولكن القابلة المسيحية أولاً تكشف على ابنتك لتتأكد من صحة مزاعمكم .
- قال "مناحم" بتلائم قائلاً :
- في خلال شهر من الآن سأبعث لك لترسل قابلتك تلك .
- سأل "روفيوس" متعجباً :
- ولمَ شهر يا سيد "مناحم" ؟!
- رد الأخير في مكر قائلاً :
- يجب أن أمهد لفتاتي الصغيرة أولاً فهي ما زالت صغيرة ضعيفة واهنة .
- اشتم "روفيوس" رائحة غدر وخسة في لهجة "مناحم" قائلاً بثقة متناهية :
- إذن من الآن يجب أن تخرج الفتاة من دارك لتمكث في قصر الوالي وسط عائلته ويشرف على نقلها القائد الرومي ، وأنا سأعلم الوالي بذلك ولن يرفض لي طلباً .
- نظر الجميع إلى بعضهم في دهاء شاعرين بأن حيلتهم لم تخيل على "روفيوس" ذلك الرجل المحنك ، وتحت إلحاح وضغط القائد لإنهاء القضية واعدًا "مناحم" بأن ابنته ستعامل أفضل معاملة في قصر الوالي وكأنها إحدى بناته ولا خوف عليها حتى يتم بقية الاتفاق المبرم بين الطرفين ، فرضخ "مناحم" وهو لا يدري إلى أين سينتهي بهم المطاف في تلك الكذبة التي أوقعهم بها الأريوسي الغبي "سيزار فابيان" كحد تفكير "مناحم" .

- "مناحم" شخص يهودي لئيم ومتحایل ، وكلنا يعلم هذا أيها الكاهن الموقر الجليل "ثاؤفيلس" .

قال "روفيوس" قوله هذا إلى الكاهن أب اعتراف "أثناسيوس روففيوس" الذي لا يصدق حتى الآن كل تلك القصة المختلفة من وجهة نظره ، عالمًا أنَّ معشر اليهود ليس لهم أمان بالمرة فهو قد عاشهم بالثغر السكندري منذ نعومة أظافره ودائمًا ما كان يحذره البابا "أثناسيوس" منهم ، ويكفيه أنَّهم صالبو المسيح ودينونتهم عظيمة ، ليتمعن النظر والتدقيق في السيد "روفيوس" الجالس أمامه بكنيسة بوكاليا ، قائلاً في هدوء متزن :

- أنا مشفق على الشاب الصغير جدًا ، يمكن أن يكون قد أقام علاقة عابرة مع الفتاة كما شهد صديقه ، ولكن ما أنا متأكد منه أنَّه لا يمكن أن يكون قد أقام معها علاقة حميمة .

أوماً "روفيوس" برأسه بعلامة الإيجاب ليكمل الآخر حديثه قائلاً :

- أين ابنك الآن ؟
- إنني قد أعطيته أمرًا بأن لا يغادر الدار وزيادة في الاحتياط جعلت الخدم يراقبونه ووضعت بعضًا من الصيادين خاصتي ليراقبوا الدار ليل نهار .

أطلق الكاهن زفيرًا عميقًا ناظرًا إلى لوحة الراعي الصالح المرسومة على أحد حوائط الكنيسة بالألوان الزاهية مكتوبًا تحتها بالقبطية (أنا هو الراعي الصالح) ، قال الكاهن :

- اسمع يا سيد "روفيوس" ، يجب أن لا نُشعرُ الشاب أنَّ ما فعله هو جرم عظيم حتى لا يصيبه اليأس مثلما أصاب صاحبه ليموت منتحراً ، أخرج لي واثنتي به وأنا سأجعله تحت مراقبتي ونظري مسلماً إياه إلى ابن أختي الشماس كيرلس وهو شاب ورع تقي سيحافظ على ابنك مصححاً مساره الإيماني .

ظهر الحبور نوعاً ما على وجه "روفيوس" وانتعش بالسلام الداخلي قائلاً :

- كلنا نعلم في كنيسة الله مدى نقاوة سيرة ابن أختك الشماس كيرلس وقوته الروحية ودفاعه المجيد ضد الهرطقة ، إنني موافق على هذا الحل حتى نرى ماذا ستسفر عنه معركتنا مع "مناحم" اليهودي .

- كل خير ، لا تقلق ، ففي النهاية لن يسمح الله بالنشر وسيظهر الحق المبين وتبرأ ذمة ابننا "أثناسيوس" الصغير ، فأنا أب اعترافه وأعرفه جيداً منذ الصغر .
أخفض "روفيوس" رأسه ناظراً إلى الأرض قائلاً في صوت منخفض :

- ولكن ماذا لو كان ما يدعيه "مناحم" صحيحاً أو أنه تلاعب مع ابنته للوقوع بابني في مكيدتهم مشهرين به داخل الثغر السكندري .

أغلق الكاهن حاجبيه وظهر الجمود على وجهه قائلاً بتحدٍ :

- وقتها فقط سيكون هناك فعل آخر وإن أدى الأمر إلى استخدام القوة .



- القوة الإيمانية يا ابنتي هي مسامحة الأعداء ، فبذلك تضعين على رأسهم جمر نار مدى الحياة .
- انتبهت "مارثا" إلى كلام المعلم الصالح ، لتسأله قائلة في شغف :
 - هل موت "أريوس" بطريقة بشعة يعتبر انتقام من الله؟
 فطن المعلم إلى سؤال "مارثا" قائلاً بوداعة :
 - اعلمي يا ابنتي إنَّ الله هو الذي له سلطان الانتقام لأنَّه هو الذي له النعمة هو يجازي ، والمسيح بعد أن بدأ عهدًا جديدًا مع البشر وضع لهم خريطة السلام الداخلي والخارجي منهاجًا لهم يسيرون على دربه حيث تلخصت تعاليمه في المحبة والرحمة والغفران والسلام ، ومهما أحاطوا بك الأعداء سلمي أمرك إلى الله ولسان حالك يقول الله أعطى ، الله أخذ ، فليكن اسم الله مباركًا .

ظهر الاقتناع على وجه الفتاة فأكمل المعلم حديثه عن موت "أريوس" الشنيع الذي لا يقدر أن ينكر أحد أنَّ الله قد انتقم نعمة عظيمة حيث إنَّ "أريوس" بعد أن فشلت جميع مساعيه للعودة مرة أخرى إلى رتبته الكهنوتية في كنيسة الله بالثغر

السكندري في عهد البابا "أثناسيوس" ولم تفلح جميع الوسائط التي من طرفه من أساقفة وكهنة ورجال البلاط الملكي ، وعلى رأسهم الإمبراطور "قسطنطينوس" الأريوسى ابن "قسطنطين" الكبير .

جن جنون "أريوس" وذهب إلى الإمبراطور الذي بناءً على رغبته الملحة للعودة إلى سلك الكهنوت ، بعث به إلى الأسقف "إسكندر" بطريرك القسطنطينية وقتها بمنشور ملكي موقع من قِبَلِه أمرًا الأسقف بأن يقبل "أريوس" في شركة كنيسة الله بالقسطنطينية ، وبالفعل ذهب "أريوس" بمجد عظيم مع أتباعه وعند علم الأسقف "إسكندر" بذلك ساءت حالته النفسية والروحية طالبًا من الله أن يرفع تلك الغمة والنكبة عن كنيسته لأنه كان رجلًا فاضلاً متبعًا لقوانين مجمع نيقية موقعًا عليها محبًا للبابا "أثناسيوس" معتكفًا في بيت الرب مصليًا ، بينما شريكه في الخدمة الرسولية الأسقف "مار يعقوب" أسقف نصيبين المتبع لقوانين نيقية عندما وصله هذا الخبر اغتم كثيرًا فارضًا صيام سبعة أيام على الشعب المسيحي بمدينة ليزيل الله تلك النكسة عن الكنيسة ، وفي اليوم الموعد خرجت الطائفة الأريوسية وعلى رأسها "أريوس" متحليًا بأبهى الملابس وأفخرها التي تشابه ملابس الملوك العظماء ليسير الموكب من قصر الوالي متجهًا إلى البطريركية العظيمة بمدينة القسطنطينية ليضع الأسقف "إسكندر" يده على "أريوس" ويصبح أسقفًا ، فانطلقت زغاريد النساء وصياح الرجال بالفرح واندلعت الألحان الكنسية والترانيم

التي وضعها "أريوس" تشدو وتصدح من فم أتباعه ، وكل لحظة يقتربون أكثر وأكثر من الكاتدرائية ونفس الأسقف مرة جدًا فلا مفر أمامه من قبول "أريوس" خوفًا من بطش الإمبراطور الذي يعلم الجميع ميوله الأريوسية وتعاطفه مع "أريوس" الذي ما أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من دخول كنيسة الله حتى فاجأه ألم رهيبٌ باحشائه فاستاذن الجمع منفردًا بنفسه في الخلاء مليبًا نداء الطبيعة وما أن شرع حتى خرجت أحشاؤه جميعها أمام عينيه ليسقط مختلطًا بها غارقًا في دمائه وقد اكتشفه أتباعه مذهولين غير مصدقين ما حدث آخذين جثمانه دافنين إياه ليصمتوا لفترة من الزمن غير مستوعبين تلك الميتة الشنيعة التي تعرض لها سيدهم ومعلمهم "أريوس" .

ظهر المقت والبشاعة على وجه الفتاة الصغيرة من ذكر تلك الميتة المرعبة ممجدة الله على أفعاله وأنه بالفعل هو الوحيد الذي له النعمة ، ومهما أحاط بها الأعداء فيجب أن يمد الله يده في الوقت المناسب منجياً إياها محيطًا حولها بسياج من الملائكة ، لتجد نفسها تسأل مستفسرة عن بقاء أتباع "أريوس" سالكين على دربه بعد أن رأوا بأعينهم فشل جميع خطته كما أبطل الله مشورة "أخيتوفل" ، وأيضًا مشاهدين ميتته البشعة تلك ، ألم يردعهم هذا عن الاقتداء به والتوقف تمامًا ورجوعهم إلى صوابهم إلى الإيمان المستقيم ؟

أمسك المعلم لحيته البيضاء بيمينه مبتسمًا من سؤال الفتاة الجميل مجيبًا عليها بوضوح شديد :

- إنَّ "يهودا الإسخريوطي" تلميذ "المسيح" الذي عاين جميع معجزاته وأفعاله العجيبة ، وبعد أن حذره السيد من جراء الخيانة التي سيقوم بها حتى أنَّه لعنه ذاكراً أنَّه ملعون اليوم الذي ولد فيه ، كل هذا لم يردع التلميذ الخائن حتى يوم الفصح وإشارة "المسيح" له خصيصاً بأنَّ من سيمد يده في الصفحة هو من سيسلمه واجداً "يهودا" نفسه هو الخائن الواضع يده في الصفحة ، ليدخل قلبه الشيطان مسلماً السيد مقابل ثلاثين من الفضة .

هكذا حال الأريوسيين الذين دخل في قلبهم الشيطان ليقسموا الكنيسة على ذاتها خائنين العهد المقدس الذي وضعه المسيح ، وقد حاول البابا "أثناسيوس" منذ شبابه في نصحهم وإرشادهم باللين والفهم والمشورة الحكيمة باعثاً إلى "أريوس" رسائل عدة لهدايته وطلب رجوعه إلى الإيمان المستقيم إلا أنَّه أبى ورفض بشدة مغلقاً عقله وقلبه ليسير أتباعه على نفس النهج طالبين المجد الأرضي وليس السمائي باحثين عن المناصب القيادية في الكنيسة واختلاطهم برجال البلاط الملكي والتأثير عليهم ، لقد اختاروا أن يكون كنزهم في الأرض حيث يفسد ويصدأ ويلتهمه السوس رافضين بالحري الكنز السمائي مثل معلمهم ، وأصبحوا الآن بالآلاف يملؤون الثغر السكندري وربوع مصر كلها .

ظهر الأسى والحسرة على وجه الفتاة متسائلة :

- لِمَ قد سمح الله بذلك من البداية ؟ ولم أعطي
"لأريوس" سلطان غواية البشر ليتبعه قوم مضلاً
إياهم بتعاليمه وهرطقته ويكون مصيرهم في النهاية
الجحيم مع الشيطان ؟

أعجب المعلم بفطنة وفصاحة الفتاة ، ذاكراً لها أنَّ "أريوس"
كان رجلاً فصيحاً ماهراً عالماً في الكتب المسيحية لكنه
يُحرِّفها على طريقته لاغياً أقنوم الابن كما درست في الأيام
السابقة ، أما عن معرفة مشيئة الله تلك فعجز عن إجابتها
مكتئفاً فقط بإظهار قوة الله لكن سبب حكمته فلن يقدر أن
يستوعبها بعقله المحدود لأن الله غير محدود .

دخل الخادم مسرعاً مبلغاً المعلم أنَّ الكاهن "ثاؤفيلس" يريد
مقابلته ، فترك المعلم الفتاة منكبة على أمور القراءة الروحية
في الكتب المقدسة صاعداً من قبوه محيياً الكاهن منفرداً به
على سطح منزله للتحدث حيث ذكر "ثاؤفيلس" أنَّ كل شيء
قد تم ترتيبه بلياقة روحية من أجل أن تنال الفتاة الآريوسية
سر العماد ومن بعده يعقدون إكليلاً على الشاب "أثناسيوس"
لتظهر معالم الابتهاج على وجه المعلم ، ومن ثم استطرق
قائلاً :

- أيها الكاهن العزيز ، ألا ترى أنَّ العنف لا يولد سوى
العنف ؟

ابتسم الكاهن ابتسامة هادئة عذبة فاهماً مقصد المعلم ، فهو يعرف أنَّ الأخير ينبذ العنف بل ولا يحبذه بالمرّة ليرد عليه في وداعة روحانية قائلاً :

- بالطبع العنف يولد العنف ولكن في بلادٍ ليس بها عنف أما إذا بدأوا هم بالعنف يجب أن نكون لهم صناديد .
- ولكن لن ينتج عنه سوى الدماء .
- أحياناً إراقة الدماء تدعو إلى التطهير وتخليص النفس من آثامها .
- هذا هو المسيح ، ونحن لسنا المسيح .
- نحن هياكل الله ، والله ساكن فينا .
- ولكن لم يدعونا إلى العنف والإبادة .
- كان يجب أن تباد سدوم وعمورة وأن تخرّب أورشليم ولا يترك بها حجر على حجر .
- بوعود إلهية .
- وأنا معى وعد إلهي ، ألا تذكر قول البابا "أثناسيوس" لي ؟

أخذ المعلم نفساً عميقاً راجعاً بذاكرته إلى الوراء بعيداً جداً حيث كان الجميع في ريعان الشباب ظاهراً عليهم ملامح الفتية والقوة ، ملتبهة مشاعرهم بالإيمان المستقيم وبينهم البابا "أثناسيوس" حيث قال موجّها حديثه إلى الشاب "ثاؤفيلس" الشماس قائلاً :

- إنَّك يا "ثاؤفيلس" ستكون مطرقة قوية لهدم معبد الوثنيين .

عاد المعلم سريعاً من الماضي إلى الحاضر ناظرًا بتمعن إلى الكاهن الجالس أمامه قائلاً :

- أنت المطرقة ، ولكن اعلم أنّ الهدم أسهل بكثير من البناء .

- ولكن في النهاية سنقضي على الوثنيين بأي الطرق .
- هذا بالنسبة للوثنيين وبالنسبة للآريوسيين .

- من لا يعود ويرتدع إلى الإيمان القويم فدمه على رأسه وها أنت ترى أنّ الإسكندرية تلتهب من داخلها ممتلئ جسدها بصديد يدعى الآريوسيين والوثنيين ويجب أن يتم تطهير الجرح مرة واحدة وإلى الأبد .

- وأنت يا عزيزي من سيطهر الجرح .
- إنّ شاء الله وعشنا فيكفينا انتهاكات صارخة منهم ولا

يوجد من يقف أمامهم ، ولعلك تذكر بالأمس القريب السيد غاليوس وما حدث معه وخسارتنا له كمؤمن غيور على الإيمان القويم ، إنهم يستخدمون أقذر الأساليب ويجب أن يكون هناك درع الردع والصمود.

- لكنني أعلمك أنّه سيكون من الضحايا الكثير من جميع الأطراف .

طرق الكاهن بيده على المنضدة الخشبية الجالسين حولها قائلاً :

- مصر قدمت في عهد الوثنية شهداء بالآلاف يفوق عددهم ما قدمه العالم المسيحي أجمعه ، وأنا أظن أنّ

باب الاستشهاد ما زال مفتوحًا ، والسماء تنتظر بالأكاليل .

أخفض المعلم رأسه عالمًا أنَّ الحوار لن يفيد مع الكاهن "ثاؤفيلس" صلب الرأي ، قوي الشكيمة ، الذي أخذ على عاتقه زرع بذرة العنف ضد الوثنيين والآريوسيين داخل شعبه المسيحي ويبدو أنَّ المعركة الفاصلة قادمة شئنا أم أبينا وليكن الله في عون الجميع .



- جميع الخطايا مغفورة يا عزيزي "أثناسيوس" ويكتفيك فخرًا أنَّك على اسم حامي الإيمان .

هكذا نطق الشماس "كيرلس" بتلك الكلمات موجهاً حديثه إلى "أثناسيوس روفوريوس" حيث أودعه أبوه أمانة في يد الكاهن "ثاؤفيلس" الذي بدوره أحاله إلى ابن أخته الغيور على الإيمان القويم المدعو "كيرلس" وهو شاب قوي البنية عيناه سوداء واسعة تشعر عند النظر إليهما بقوة روحية نابغة منها مخترقة قلب من أمامه ، وحينما يتكلم يصمت الجميع لحكمته اللاهوتية وثقافته الكنسية الغزيرة لإطلاعه منذ الصغر على الكتب والمخطوطات الدينية ليقول مكملًا حديثه إلى الشاب الواضع رأسه بالأرض من الخجل :

- ويكفيني إنني خريج المدرسة اللاهوتية مثلك ، أي أننا إخوة في المسيح وتلاميذ من نفس المدرسة العريقة ، أليس كذلك ؟

أوما الشاب برأسه بعلامة الإيجاب ليكمل الآخر رافعاً رأس "أثناسيوس" براحة يده قائلاً :

- لا تسقط رأسك ، ارفعها بفخر وعزة فأنت ابن الله العلي ، أنت ابن ملك الملوك العظيم .

ظهرت ابتسامة حزينة على وجه الشاب مواجهاً "كيرلس" قائلاً :

- أنا نادم .

ربت "كيرلس" على كتفي "أثناسيوس" قائلاً :

- الشعور بالندم هو بداية التوبة النقية ، وأنا واثق أنك لم تفعل شيئاً مما يدعوه عليك هؤلاء الكفرة الزنادقة اليهود ، ولكل حصان كبوة لكن الابن الشاطر هو الذي يعود سريعاً إلى أبيه قائلاً له أخطأت يا أبتاه إلى السماء وقدامك ، وأنت ابن شاطر فالح .

أدمنت أعين الشاب الصغير ليأخذه "كيرلس" في أحضانه قائلاً :

- ودموع أيضاً لتغسلك من الداخل ، أنت بالحقيقة ابناً لله العلي ، فدموع وندم يعني توبة حقيقية ، اهدأ يا صديقي فإنَّ غداً أفضل وإنني أرى فيك قوة التوبة لذا

فلنسرع إلى الخدمة الروحية عابرين وادي اليأس والخطيئة ، وادي الموت .

وهكذا شرع "كيرلس" يدرّب الشاب "أثناسيوس" على علوم الفضيلة والخدمة الروحية شاركًا إياه في خدمة الأرامل والأيتام والمعوزين والمحتاجين والمرضى والعجزة ، والذين ليس لهم من يسأل عليهم أحد وسط هذا العالم الممتلئ بالناس وانخرط الشاب بهمة وجد وتعب متنقلًا من خدمة إلى أخرى ظاهرًا القامة الروحية سريعًا حتى حاز على إعجاب "كيرلس" الذي تعلق به كثيرًا لفصاحته وحيويته ناقلًا إلى خاله تلك الصورة العظيمة التي رسمها الشاب "أثناسيوس" روفوس" بألوان الإيمان بسرعة شديدة في زمن قياسي موضحًا له أنّ الفتى لم يجد من يدلّه على الطريق ، تاركين إياه يتخبط في ظلمات الإسكندرية فليس المهمّ التعليم المسيحي فقط وإنما الفعل المسيحي أيضًا لأنّ الإيمان بدون الأعمال ميت وها هو الشاب يصنع أعمالًا رائعة مظهرًا للأيتام محبة عظيمة الذين تعلقوا به معتبرين إياه أبًا حنونًا حتى أنّ "كيرلس" اقترح على خاله أن يتم تزويج الفتى سريعًا بعد أن تنتهي محنته تلك لأنّه سيصبح أبًا مسيحيًا ناجحًا مؤسسًا عائلة إيمانية مرتبطة بالله ارتباطًا وثيقًا ، فحسن هذا الكلام في مسامع "ثاؤفيلس" مستبشرًا خيرًا بما يحدث شاكرًا الروح القدس على صنيع عمله داخل الشاب الذي كان يعلم في دخيلة قلبه أنّه لا يمكن أن يترك الإيمان المستقيم من أجل فتاة يهودية وهو الآن داخل حظيرة الإيمان المستقيم مقررًا أن

يتدخل بشخصه من أجل إنقاذ ابنه بأي وسيلة من المكيده التي وقع فيها على يد المرابي اليهودي "مناحم" .



- يا سيد "مناحم" ، لا تقلق لن يحدث شيئاً .

ألقى "سيزار" كلماته بضجر موجهاً حديثه من داخل زورقه الصغير الذي يقوده "مركيان" إلى السيد "مناحم" القابع بداخل زورقه الذي يقوده ابنه في وسط البحر حيث يلتقون دائماً ليرد "مناحم" عليه وعلى وجهه ملامح التوتر والعصبية الشديدة قائلاً :

- كيف لن يحدث شيء والشهر المهلة قد قارب على الإنفاذ ؟!

ابتسم "سيزار" قائلاً بتهكم :

- وما المانع في أن تجعل ابنتك تحبل من أي فتى يهودي ؟!

اغتاظ "مناحم" من هذا اللغو الفارغ المهين ، فابنته ليست عاهرة ليقل هذا الشاب الوقح من وجهة نظره مثل هذا الحديث ، فقال وجسده كله يهتز من الغيظ حيث جعل الزورق يتأرجح في الماء :

- أنت شاب وقح لم يحسن أبواك تربيته .

امتع لون وجه "مركيان" عند سماعه هذا الحديث الجارح منتفضاً تاركاً المجاديف مريداً أن يؤدب الرجل حتى أوقفه "سيزار" مانعاً إياه قائلاً :

- أنا أسامحك على ما قلته الآن ، فأنا أشعر بك تماماً .

صاح "مناحم" قائلاً :

- وما الحل يا من تشعر بي ؟ فأنا لن أضع مستقبل ابنتي وحياتها على المحك رهناً لخطتك السخيفة التي فشلت .

قال "سيزار" ببرود شديد :

- ومن قال أنها فشلت ، بالعكس إنها تسير في الدرب الصحيح وبإتقان شديد .

ظهر الغباء وعدم الفهم على ملامح الأب وابنه ، ليكمل "سيزار" وقد لاحت على وجهه ملامح الخبث والدهاء قائلاً :

- يجب أن يحدث حادث جلل في كل الثغر السكندري على أثره يختفي السيد "روفيوس" من على وجه الأرض .

قطب الأب حاجبيه غير مستوعب هذا الحديث قائلاً :

- ليس هذا وقت الألغاز ، أعطني ما لديك سريعاً ، فأنا أريد الرجوع قبل حلول الظلام .

نظر "سيزار" بتمعن شديد إلى حليفه اليهودي شارحاً له خطته التي ستحدث في خلال أيام وعلى أثرها ستهتز جوانب الإسكندرية وتحدث مشاجرة عظيمة ستتحول إلى معركة على أثرها سيتدخل "روفيوس" بشخصه لأنها ستمسه ، وهنا يكون الوقت المناسب لإنهاء الأمر برمته دفعة واحدة وإلى الأبد

وبعدها يمكن أن يسيطروا على الابن "أثناسيوس" بطريقة سهلة .

لمعت أعين "مناحم" من الابتهاج ، فهو كان في حال وأصبح في حال لتتبدل طريقة حديثه مع "سيزار" مستفسراً عما إذا كان هناك ما يجب عليه فعله فيما سيحدث ، فأمره الشاب الأريوسي بأن يلزم داره ولا يتحرك خطوة واحدة إلا بعد أن ينتهوا من خطتهم ويكتب لها النجاح وهو واثق تمام الثقة بأنها ستنتج نجاحاً عظيماً جداً .

رجع الجميع إلى الثغر السكندري ليسأل "مركيان" ابن عمه عن سبب مساعدته "لمناحم" اليهودي ، فذكر له أنه لا بد من أن يساعده حتى لا يفقد اليهودي صوابه ويتكلم عليهما كاشفاً الخطة المدبرة من قبلهم ، وأنه قد جاء الوقت لتلقين عائلة "روفيوس" درساً قاسياً ليتطرق "سيزار" في الحديث عن أحوال مراقبة "ابن كوزموس" فذكر له "مركيان" أنه يراقبه شبه ليل نهار ومعه عصبته من الأريوسيين ، ولا تتعدى خطواته إلا بين المدرسة التي تخرج فيها في الأيام القليلة الماضية وزياراته المتكررة العشوائية إلى دار المعلم الصالح ولا يوجد أي دليل قاطع على يقين أن "ابن كوزموس" من قريب أو من بعيد له علاقة باختفاء أخته الصغيرة ، ولكن ليس باليد حيلة .



(١٥)



- حيلة الآريوسيين معروفة منذ ظهور زعيمهم أريوس على الساحة الدينية ، إنَّهم لا يريدون سوى الاستيلاء على كنيسة الإسكندرية العدو اللدود لهم ومن ثم ينطلقون للسيطرة على جميع كنائس العالم المسيحي ، لا يهمهم إنْ تعاونوا مع الوثنيين أو اليهود أو حتى الشيطان نفسه الذي هو أبوهم كلهم .

استمع "ابن كوزموس" إلى الكاهن "ثاوفيلس" بشغف شديد فهو يعلم تمام العلم أنَّ الكاهن الخمسيني العمر الذي كان يومًا ما كاتم أسرار البابا "أثناسيوس" هو من أعمدة الكنيسة السكندرية الغيورة على الإيمان القويم ورفعة شأن الكنيسة في العالم المسيحي بأجمعه وقد قابله أكثر من مرة لكنه لم يفرد به مثل الآن متمتعًا بحكمته وخبرته العميقة شاكراً إياه من أعماق قلبه على عظيم صنعه الآن وكيف أنَّه هربَ من مراقبة الآريوسيين حيث خدعهم خدعة لطيفة إذ دخل "ابن كوزموس" إلى كنيسة بوكاليا لحضور صلاة العشية ولكنه لم يخرج هو بل خرج واحد آخر في نفس مواصفات جسم الشاب مبدلاً ثيابه معه ليتبعه الآريوسيون وهو ملثم الوجه إلى

داره بينما خرج الكاهن والشاب من باب آخر منتقلين إلى المكان المتفق عليه لعماد الفتاة "مارثا" .

علق "أثناسيوس" على حديث الكاهن قائلاً :

- ولكن يا سيدي ، إنَّ ما يحدث بالشجر الآن من اضطرابات وقلاقل ، لا أظن أنَّها ستنتهي على أحد بل ستزيد من الضحايا .

تمعن الكاهن في وجه الشاب قائلاً :

- يبدو أنك تلميذ نجيب لمعلمك الصالح ، قد علمك كراهية العنف ونبذه .

ظهرت الحيرة على وجه الشاب متسائلاً قائلاً :

- وهل في هذا خطأ يا أبي الكاهن ؟

- ليس خطأ يا بني الحبيب ولكن ظروف العصر الذي تعيش فيه هي التي تفرض عليك كيفية التعامل مع أعدائك ، ولا تنس أنَّ السيد نفسه قال : حاولوا أنْ تسالموا جميع الناس إنْ أمكن .

شدد الكاهن في حديثه منبهًا الشاب إلى أهمية الإمكانية وبما أنَّ السيد قد أعطى لهم التصريح العام بالسلم واضعًا لهم الخصوصية الشرطية في قدرة الإمكان وبما أنَّ الأريوسيين والوثنيين غانيك عن اليهود هم من جنحوا إلى ساحة الحرب متحالفين بتحالفات خفية شيطانية فيما بينهم لإزاحة أبناء الإيمان القويم لذا فإمكانية الدفاع عن الكنيسة والنفس واجبة بجميع الطرق الشرعية وغير الشرعية مؤكِّدًا الكاهن للشاب

أنه سيأتي يوم وهو عما قريب ستختفي فيه الوثنية بأكملها من الإسكندرية بل ومن مصر كلها لتظهر الحيرة وعلامات التعجب على وجه الشاب غير عالم كيف سيحدث هذا مرتكناً إلى مبدأ إنَّ ما بني في آلاف السنين من معابد لن يهدم في يوم وليلة ، فعاد الكاهن مؤكداً أنَّ كل شيء مستطاع عند الله وأنَّ الخلاص الذي حدث على يد المسيح لم يستغرق سوى ثلاثة أيام حيث نقض النفس البشرية وأعاد إحياءها من جديد بالقيامة ، مقتنعاً أنَّ ثلاثة أيام أو ربما ثلاثة شهور إذا هبَّ المسيحيون على قلب رجل واحد يستطيعون أن يدمروا المعابد الوثنية بأكملها مخفين آثارها من على وجه مصر إلى الأبد .

شعر الكاهن بحركة غريبة فانتبه هو والشاب إلى مصدرها آخذين حذرهم ومعهم نفر من الشمامسة الذين سيشاركون الكاهن إتمام طقوس المعمودية والإكليل المقدس ، فأمسك الشمامسة بعصيانهم الغليظة مستعدين لأي غريب دخیل ليس في الحساب وما أن ظهر القادمون هداً الجميع ولم يكن أولئك القادمون سوى المعلم الصالح وخادمه الأمين وشاب آخر قصير القامة فاستغرب الكاهن والشاب من عدم حضور الفتاة فابتسم المعلم الصالح ابتسامة هادئة ليمد يده آخذاً رباط الرأس الذي كان مربوطاً على رأس الشاب المرافق له لينساب الشعر الحريري الأسود الناعم وتظهر "مارثا" المتخفية في زي الرجال .

ابتهج قلب الشاب "أثناسيوس" راقصاً من الفرح فيها هو حلمه يتحقق أمامه بتحويل حبيبة قلبه من الأريوسية إلى الإيمان المستقيم ، ولم يتوان الكاهن "ثاوفيلس" الذي قد أعدَّ جرن المعمودية مسبقاً مع شمامسته مألئاً إياه بالماء الطاهر النقي ، وارتدت الفتاة التونية البيضاء لتتشبه بالملائكة الأطهار وبدأ الكاهن في الشروع بإجراء طقس المعمودية للكبار حيث نزلت الفتاة بأكملها في جرن المعمودية وانطلقت صلوات العماد المقدس التي يجريها صديقه الكاهن راشماً الفتاة بزيت الميرون المقدس ليشتع وجهها نوراً إلهياً وتزداد جمالاً فوق جمال حتى لاحظ الجميع ذلك لينهي الكاهن طقوس العماد بصلاة جدد الشيطان التي قالتها الفتاة لتصبح ابنة الله في الكنيسة المقدسة متسرلة بتعاليم الإيمان القويم .

هناها المعلم الصالح على نوال العماد المقدس مقترباً منها مقبلاً إياها في جبهتها قبله أبوية حانية لتشكره الفتاة من كل قلبها على كل ما قدمه لها من تعاليم إيمانية وحكمة كنسية وخبرة حياتية عميقة فأشار المعلم إلى خادمه الذي اقترب منه وبيده علبة خشبية ليفتحها المعلم مخرجاً منها سلسلة ذهبية بها صليب ذهبي مقلداً الفتاة إياه قائلاً لها ودموع الفرح على وجنتيه قائلاً :

- الآن يا بنيتي قد قبلتِ النعمة وحل عليك الروح القدس وهذا الصليب الذهبي هدية عمادك ، مصلين الله أن تصبح أيامك كلها بركة وسعادة وسلام .

أمسكت الفتاة الصليب بيمينها بشدة مقتربة من المعلم ماسحة بيدها الرقيقة دموعه مقبلة إياه قائلة :

- إنني لن أنساك أبدًا مهما حييت يا معلمي .

طلب الكاهن أن يشرعوا في إتمام صلاة الزفاف لأنّ الوقت قصير والفجر في طريقه إلى الوصول للشجر السكندري ، وبالفعل وقف كل من "أثناسيوس" و"مارثا" أمام الكاهن الذي استعد بالأكاليل الزوجية وبزوار الرباط المقدس ، وانطلق الشمامسة بصوت منخفض قائلين لحن "إبؤرو" باللغة القبطية والمعلم لا يكاد يسعه الكهف الصغير من الفرحة ، فربت على كتف خادمه مبتسمًا قائلاً :

- وكما أنّ المسيح رأس الكنيسة ، هكذا الرجل رأس المرأة .

أوما الخادم برأسه بعلامة الإيجاب مبتسمًا .

أنهى الكاهن مراسم الزواج المقدس معلنًا كل من "أثناسيوس" و"مارثا" زوجان مسيحيان في كنيسة الله المرقسية السكندرية على الإيمان القويم .

هنا الجميع العروسين و"أثناسيوس" ممسكًا بيد زوجته ورأى المعلم أنّ يستعدا للرحيل فقد جهز لهم الكاهن جوادين قويين سينطلقان بهما خارج الإسكندرية إلى بابليون حيث سيأخذان مركبًا شراعيًا عابرين النيل حيث مسقط رأس الشاب ألا وهي مدينة هرموبوليس ، لأنّ أمه يجب أن ترى زوجته مباركة زواجهما لكن ما أن تأهب الجميع للرحيل حتى طلب "أثناسيوس" أن يزور صديقه فهو لا يعلم إذا كان سيراه ثانية

أم لا ، فحاول المعلم أن يثنيه عن تلك المخاطرة فلم يفلح
فنظر "ثأوفيلس" بتمعن إلى الجميع قائلاً :
- ولكنك لن تمض وقتاً كثيراً .

وافق الشاب لينطلق هو والكاهن الذي أخفى وجه الشاب
بغطاء للرأس عائدين إلى حيث يقطن "ابن روفوس" الوحيد
مع "كيرلس" ، وبالفعل لم يمض وقت حتى وقف الصديقان
وجهًا لوجه ومشاعر جياشة تعصف بهم ليقول "ابن
روفوس" في وداعة :

- مبارك زواجك السعيد يا أخي ، لقد علمت من أخي
"كيرلس" .

- إن شاء الله المرة القادمة سيكون زواجك أنت .

ابتسم "ابن روفوس" بهدوء قائلاً :

- كنت أريد أن أحضر زفافك يا أخي لكن الله لم يشأ .

قاطعته الآخر قائلاً :

- ولكنني أكيد سأحضر زفافك .

ربت صاحبه على كتفه قائلاً :

- لا أعلم يا صاحبي ، ولكن لي اشتياق أن أكون مع

المسيح ذاك أفضل جدًا .

ارتعش قلب "ابن كوزموس" ملاحظًا تغيرًا عميقًا في صديقه
قائلاً :

- الله يدبر الصالح يا أخي العزيز ، أنا لا أعلم إذا كنت

سأراك مجددًا أم لا .

وضع "ابن روفوريوس" يمينه على فم صديقه قائلاً :
 - لا تقل هذا ، أكيد سننقابل وإن لم يكن في هذا العالم
 فسوف يكون في ملكوت السموات .

وقع الصديقان على أعناق بعضهما باكيين لهذا الفراق
 الصعب الذي لم يفكرا يوماً ما أن تتغير حياتهم سريعاً هكذا ،
 ليسأل "ابن روفوريوس" صديقه عما ينوي أن يفعله فذكر له
 الأخير عن كل ما هو مزعم أن يفعله مفكراً في عدم البقاء
 بمصر حرصاً على سلامة زوجته مفكراً أن يأخذها مع أمه
 عابراً إلى بلاد الحبشة مستقراً هناك ، وكنيسة الحبشة هي
 ابنة صغرى للكنيسة السكندرية ولن يشعروا بالغربة هناك
 فامتدحه صديقه على حسن التفكير السديد متمنياً من الله أن
 يباركه في كل خطواته مثمراً إياه ثلاثون وستون ومائة ، وأن
 يُنَجِّح كل شيء تمتد إليه يده فابتسم "ابن كوزموس" متمنياً
 لصديقه نفس الأماني وزوال الغمة من على كاهله سريعاً
 حتى قاطعهم "كيرلس" طالباً من "ابن كوزموس" الرحيل
 فالفجر قد لاح في الأفق ، فصافح الصديقان بعضهما بكل
 محبة أخوية مودعين بعضهما البعض ليعود "ابن كوزموس"
 إلى الكهف الصغير واجداً المعلم والفتاة ينتظرونه على أحر
 من الجمر ، وقد ظهرت على وجوههم ملامح التوتر
 والانزعاج التي تبددت بمجرد دخوله عليهم فأعطاه المعلم
 كيساً من العملات الذهبية لتعينه في مصاريف السفر فهو بلا
 عمل ، وأصبح يعول زوجة فائتر ذلك الصنيع في نفسية

الشاب رافضاً أن يأخذهم في البداية معتمداً على بعض الدراهم القليلة ، فدفعهم المعلم بقوة في حزام عباءته قائلاً له :
 - لا يوجد وقت للجدال ، اذهب سريعاً واخرج من الثغر
 السكندري ، وافعل كما اتفقنا ذاهباً إلى الحبشة إلى
 تلميذي "أسطفانوس" الحبشي مساعد "أبي سلامة"
 أسقف الحبشة .

ودع الجميع بعضهم لينطلق الجوادان مسابقين الرياح حاملين
 على ظهرهما كل من "أثناسيوس" و"مارثا" زوجته مغادرين
 الإسكندرية .



- الإسكندرية ترتج يا سيد "روفوس" ، افتح الباب
 أرجوك .

انتفض "روفوس" مذعوراً من فراشه جراء الطرق العنيف
 الذي على باب داره الخشبي سامعاً صياحاً عالياً قد غطى
 على صوت أمواج البحر ، فنظر من شرفته ليرى من القادم
 أو القادمين في هذا الوقت المبكر من الصباح طارقين باب
 داره بتلك الطريقة المرعبة ، ليرى جمعاً من الصيادين
 يتجادلون صائحين حتى أسكتهم هو بصياحه محاولاً فهم
 الأمور واستيعابها فقام واحدٌ منهم بالصياح قائلاً :

- لقد اتحد الصيادون الوثنيون مع الأريوسيين مطالبين
 بالانتقام نظير حريق معبدهم ، معبد الإلهة سيرابيس ،

وقاموا يا سيد بتكسير الكثير من زوارقنا مانعين إيانا من النزول الى البحر للصيد ، وحينما تصديننا لهم قتلوا ثلاثة من رجالك الصيادين الشرفاء .

امتقع وجه "روفيوس" باللون الأسود القاتم مرتدياً ملابسه منطلقاً إلى حيث مكان الواقعة على الشاطئ السكندري ، فرأى ازدحاماً شديداً وشبه دائرة ملتفة فدخل في وسطها وقد أفسح له صيادوه لتقع عيناه على ثلاثة جثث ملقاة على شاطئ البحر وقد اصطبغت باللون الأزرق الشديد ليبدا أنهم لقوا حتفهم غرقى ، فقام على الفور أحد رجاله بشرح الواقعة حيث أخذهم الأعداء ضاربين إياهم معلقين أحجار الرحي في أقدامهم ملقين إياهم بالبحر حتى ماتوا غرقاً ، هؤلاء الشباب المساكين الذين يعولون أبناءهم الصغار ونساءهم الضعاف ، فهاج معشر الصيادين على سيرة عائلات الموتى ليرمق "روفيوس" الجثث بغیظ شديد قائلاً في لهجة أمرة :

- أعدوا زوارقكم في الحال وسأنزل البحر معكم ولنرى من سيمنعنا .

هتف الرجال بحياة "روفيوس" فتصاعد الموقف بشكل جنوني إلى ذروته .

وصل خبرٌ إلى قصر الوالي السكندري بما حدث ، فاحتار ماذا يفعل ؟ ليستقر رأيه في النهاية على أن يرسل كتيبة جنود رومانية لتأمين الموقف وبقدر الإمكان تمنع وقوع أي احتكاك بين جميع الأطراف المتناحرة ، وهذا ما هداه إليه عقله بينما

حشد الجانب الأريوسي بالاتحاد مع الوثنيين أعدادًا ضخمة من الصيادين متجهين بزوارقهم إلى حيث تجمهر المسيحيون عند اللسان البحري المخصص للصيد ، واللسان كما يطلق عليه الصيادون هو قطعة صخرية كبيرة موجودة بامتداد الشاطئ لتصنع فاصلاً طبيعياً في البحر السكندري طالما اعتاد الصيادون استخدامه لربط القوارب الخشبية به ، وما أن وصل الحشد الضخم بالقوارب لم يجدوا سوى العشرات فقط من القوارب الصغيرة فتعجبوا أين يمكن أن يكون قد ذهبت البقية ؟ ، ناظرين إلى الشاطئ فلم يجدوا عليه أحداً بالمرّة ليلتفت "مركيان" إلى عصبته متسائلاً أين يمكن أن يكون قد ذهب الصيادون المسيحيون؟

وإذ فجأة دوى صوت صياح عالٍ من فوق اللسان لشخص ذي صوت جهوري ، فأخذت قوارب المسيحيين الصغيرة العدد بعمل تشكيل متخذين هيئة رأس الحربة ، فانتبه الأريوسيون والوثنيون إلى ذلك فعملوا على تحصين قواربهم بينما خرج ما يقارب الألف نسمة من المسيحيين من تحت رمال الشاطئ قاذفين بحجارة على الجانب المضاد ، فحاول الأريوسيون حماية أنفسهم رافعين دروعاً خشبية حتى لا يصابوا من جراء تلك الحجارة التي أصابت بعضاً منهم ليفقد توازنه واقعاً في الماء ، وخرج من وراء اللسان البحري عند مؤخرته حيث تقبع نهاية صخرية ضخمة حاجبة من ورائها ، خرج ما يقارب الثلاثة آلاف قارب وعلى رأسهم "روفيوس" صائحاً قائلاً بصوت جهوري :

- تشددوا وتشجعوا أيها السكندريون ، لأنَّ من معنا أقوى ممن علينا .

انطلقت صيحات الهتاف بحياة "روفيوس" ليكمل قائلاً :
- إنَّهم قد أخذوا منا ثلاثة رجال والآن نأخذهم كلهم
دافعين بهم إلى البحر العظيم جاعلين منهم طعاماً
للأسماك .

اشتعل حماس الرجال الصيادين جراء كلمات "روفيوس"
النارية لتقترب القوارب بسرعة شديدة والرجال الذين يجيدون
التجديف يهتفون قائلين في نفس واحد :
- إن كان الرب معنا فمن علينا .

انتفض الجانب الأريوسي الوثني من صراخ المسيحيين الذي
هيج البحار لتبدأ معركة القوارب ، قارباً أمام قارب ورجلاً
أمام رجل ، ومجداف ضد مجداف وحربة أمام حربة وخنجر
ببارز خنجر ، والضحايا لا عزاء لهم واقعين في البحر
محاولين النجاة بأنفسهم سابحين حتى الشاطئ حيث انتظرهم
بقية الصيادون بالشباك ، فما كان من أريوسي أو الوثني
تكتب له النجاة سابحاً ناحية الشاطئ وما أن يصل إليه حتى
يأسره رجال "روفيوس" بالشباك ، فتدخل "سيزار" سريعاً
برجاله الأقوياء الأفارقة ضخام الجثة العملاقة محيطاً برجال
"روفيوس" على الشاطئ ، ودارت معركة طاحنة بينهم وكل
رجل أفريقي أسود اللون يمسك بجمجمة إسكندري مهشماً
إياها .

وانقسمت المعركة إلى جزئين : جزء بحري بالقوارب وجزء بري على الشاطئ ، وتلون ماء البحر باللون الأحمر وتحولت الرمال الصفراء إلى مزيج بني قاتم اللون من اختلاط الدم بها .

وصل خبر المعركة إلى حيث "أثناسيوس بن روفوريوس" فهب لنجدة والده أخذًا بعض رفاقه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وبالفعل وصل إلى الشاطئ واجدًا مذبحة عظيمة تحدث محاولاً اكتشاف موقع والده وسط هذا العراك الضخم ، ولم يكن "روفوريوس" بأحسن حال من الرجال الذين سقطوا في الماء ، فعند اشتباكه مع أحد الأريوسيين صغير السن استطاع الأخير أن يقذف به من قاربه فاستطاع بمساعدة رجاله السباحة والوصول إلى الشاطئ مكتشفًا أن أغلب رجاله قد تفرقوا من قوة بطش الأفارقة والأريوسيين أشباه المصارعين ، وما أن خرج من الماء حتى لمح "سيزار" فدفع بشخص أفريقي ضخم مشيرًا إليه على ضحيته التالية ألا وهي "روفوريوس" فذهب الأفريقي مسرعًا ناطحًا بكل من يقف أمامه واصلًا إلى "روفوريوس" حاملاً إياه في الهواء صارخًا لينتبه جميع رجال "روفوريوس" فحاولوا مساعدته وإنقاذه من هذا الثور الهائج لكن باءت كل محاولاتهم بالفشل ، فقد سيطر "سيزار" ورجاله على الشاطئ وفي هذه الأثناء لمح "أثناسيوس" أباه فجن جنونه وصاح قائلاً :

- أبي ... أبي ...

حاول من معه إيقافه لكن لم يفلحوا لتندلع نيران الانتقام لاهتًا راکضًا ناحية أبيه الذي رماه المصارع الأفريقي بكل قوته على رمال الشاطئ فتألم "روفيوس" ألمًا شديدًا شاعرًا أنَّ عظامه قد تفككت فهو كبير سن ولا يحتمل مثل هذا النوع من التخطب ، فأكمل المصارع رافعًا قدمه الضخمة هاويًا على ظهره فصرخ من تحته ألمًا ، وبينما هو رافع قدمه مرة أخرى هاويًا بها على وجهه وسط صياح أصدقائه وتهكمات "سيزار" اندفع "أثناسيوس" قاذفًا بنفسه في الهواء من فوق صخرة عالية راميًا بثقله على المصارع الأفريقي الذي فقد اتزانه فوق أرضًا معطيا "أثناسيوس" فرصة لأبيه للهرب قائلًا له صارخًا :

- لأجل حق الله اهرب يا أبي .

قام رجال "روفيوس" أو ما تبقي منه بسحبه بعيدًا ليقوم المصارع الأفريقي من كبوته صارخًا ضاربًا صدره بيده غير مصدق أنه قد سقط على الرمال ، ونهض "أثناسيوس" أمامه ليبدو كالحشرة الصغيرة التي ستسحق سريعًا ، ابتسم "سيزار" مشيرًا للمصارع بإنهاء الوضع ، فأمسك الأخير بالشاب الذي يحاول بكل استماته التمكن من هذا الضخم الجبار لكن شتان الفارق ما بين العملاق والقزم و "روفيوس" يرى ابنه يتحطم أمام عينه غير واعد طريقة لإنقاذه ، فقد اتسعت عيناه والدموع تسقط محاولًا الدفع بنفسه بدلًا من ولده لكن رجاله أيقنوا أنَّ الهلاك قادم مانعين إياه من التقدم ، أما المصارع فظل يصرخ بجنون رافعًا الشاب قاذفًا به كمن يلهو

بقطعة حجر وعظام "أثناسيوس" قد تكسرت حتى أنّ صوت قعقة العظام قد وصل إلى مسامع أبيه ومن حوله ، والشاب يستमित في أن يصيب المصارع بأي شيء فلم يقدر سوى على وضع علامة بأظفاره على وجهه ليزيده هياجاً وغضباً شرساً فيبدأ في دهسه بقدمه في جميع أنحاء جسده والشاب يلتف حول نفسه على الرمال من الآلام البشعة حيث بدأ جسده كله يدمي وهو يصرخ ويقول :

- يا أبتاه ، اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون .

رفع المصارع قدمه عاليًا هاويًا على ظهر المسكين لسمع صوت تحطم عموده الفقري ، ويطلق الشاب صرخة مذبذبة جعلت الثغر السكندري يهتز كله ويخرج جميع أهله ، ليرفعه المصارع بعدها مُحطماً جمجمته داهساً إياها بين يديه و"أثناسيوس" موجه نظره ناحية والده ودموع صامته حزينة ساقطة من عينيه باصقاً دماء من فمه ليسلم الروح بين يدي المصارع الأفريقي الذي رماه جانباً كالذبيحة متجهًا هو ورفاقه إلى "روفيوس" وأتباعه لسمع صوت حوافر جياد وعجلات حربية رومانية قادمة .

رأى "سيزار" أنّ وقت الانسحاب قد حان فأشار إلى ابن عمه فانسحب الجميع في لحظات لتحيط الكتيبة "بروفيس" ورجاله ، وما من الأب المكلوم إلا أنّ اتجه في خطوات بطيئة غير قادر على الحراك زاحفًا بأقدامه على الرمال حتى وصل إلى ابنه المطروح أمامه على رمال الشاطئ والمياه تضربه بقوة مرتشفة من دمه ، فركع العجوز المسكين أمام

ابنه آخذاً رأسه بين راحتي يده منتحباً باكياً ، قائلاً في صوت
واهن ضعيف خانع :
- سامحني يا ولدي ، سامحني ، أنا من رميت بك إلى
التهلكة .

التف جميع الصيادون رجاله حوله ناحبين باكين ضياع ابن
سيدهم ، واضعين الرمال على رؤوسهم ، شاعرين بالجبن
وعدم الرجولة بسبب عدم دفاعهم عن الشاب الصغير ليلاحظ
"روفيوس" القائد الرومي الذي ظهر على وجهه التأثير الشديد
فقال له :
- كنت سأزوجه وأبني له داراً ضخمة ، لمن سأزوجه
الآن ، لقد أخذه الله مني .

نظر "روفيوس" إلى السماء التي برقت وأرعدت على غير
العادة ، وهاج البحر بأمواجه العاتية وانهارت الأمطار من
السماء غاسلة البحر من دمانه منظفة الشاطئ من بقايا
المعركة ، ليقف "روفيوس" مواجهاً بحر الإسكندرية قائلاً :
- واشهد على أيها البحر اللعين الذي شرب دماء
ابني الوحيد الذي قتل ، إنني سأملأ ماءك بجثث
الآريوسيين لتبتلعهم جميعاً أمواتاً ، والله على ما أقول
شهيد .

حاول القائد الرومي تهدئة "روفيوس" الذي حاول أن يحمل
جسد ابنه فلم يستطع ، ليأمر القائد بحمل جثمان الصبي على

مركبة حربية وركب أبوه بجانبه متجها بها إلى داره محتفظاً بالجثمان هناك .



بلغ الخبر إلى مسامع الوالي الذي أسرع الى دار "روفيوس" لتهدئة الحال ، فهو يعلم جيداً أنّ هذا الرجل بركان إذا انفجر في الإسكندرية ستكون نهاية عهده على كرسي الولاية السكندرية ، وصل الوالي واجداً جمعاً غفيراً محتشداً أمام دار "روفيوس" وحرس الوالي بالكاد يفتحون الطريق ليمر الأخير في سلام حيث ارتسمت على وجوه جميع الملتفين علامات السخط والغضب المختلطة بالحزن رامقين الوالي بنظرات نارية ، فخرج أحد المتجمهرين عن صمته صائحاً :

- والي خانع ضعيف ليس له انتماء للإيمان القويم .

صرخت إحداهن قائلة :

- يسقط الوالي الضعيف الخائن .

بدأ الجمهور في التحرش والاحتكاك بالعساكر الذين أفلحوا في النهاية في إيصال الوالي سالماً إلى دار "روفيوس" فدخل متصبباً عرقاً واجداً الأخير جالساً أمام جسد ابنه المسجي أمامه على منضدة خشبية كبيرة وحوله خدم كثير ، والكاهن "ثاؤفيلس" ومعه "كيرلس" الذان بدت على ملامحهما معالم الغضب المقدس المختلط بالحزن الدفين .

نظر الوالي إلى الجميع بتمعن مستنبطاً الحال العام كاسراً حاجز الصمت قائلاً :

- لا أعرف ماذا أقول ؟ إنني أبلغك عزائي وعزاء أهل قصري ورجال البلاط في وفاة ابنك .
- نظر إليه "روفيوس" شذراً قائلاً :
- ليست وفاة ، وإنما مقتل .
- بلغ الوالي ريقه قائلاً :
- إنني أعدك يا سيد روفويوس أن العدالة ستأخذ مجراها .
- رد "ثاؤفيلس" قائلاً :
- نحن ننتظر العدل السماوي .
- تحركت شفتا الوالي بحركة عصبية لا إرادية قائلاً :
- بالطبع عدالة السماء قائمة إلى يوم الدين أيها الكاهن المبجل ، وإنما أنا أقصد العدالة الأرضية ، يجب أن تقتص من قاتل ابننا "أثناسيوس" .
- قطب "كيرلس" حاجبيه قائلاً :
- وكالعادة لن تجدوا القاتل الخفي .
- قاطع الوالي بعصبية شديدة قائلاً :
- كلا ، لن يحدث هذا وأنا قد كلفت قائد الحرس الخاص بي بتمشيط الثغر السكندري كله ولن يهدأ لي بال ولن أذوق طعم الراحة إلا بعد أن أقبض على هذا القاتل الوغد .
- ابتسم "روفيوس" متهكماً :
- أنا أعرف من القاتل يا جناب الوالي ، ويمكن أن أرشدك إلى طريقه .

شعر الوالي بحرقة في عينيه الاثنتين نتيجة تصبب العرق
مخترقاً إياهما ليغلقهما ويفتحهما مسرعاً قائلاً :
- أخبرني يا صديقي ولك عندي أن أحضره حياً أو ميتاً.

رد "روفيوس" بصوت عميق قائلاً :
- إنني رافعٌ دعواي إلى قيصر ، أنا مواطن روماني .
ارتعشت يد الوالي اليمنى ماسحاً عرقه قائلاً :
- ولمَ القيصر يا صديقي ؟ يمكننا أن نحل الوضع ودياً ،
أقصد أن نقبض عليه ونقدمه للقصاص .
نظر "ثأوفيلس" شذراً إلى الوالي قائلاً :
- تقبلنا عزاءك يا جناب الوالي .

تطلع الوالي حوله شاعراً بالحرَج الشديد قائلاً :
- إذن أستاذن أنا يا حضرات الأفاضل ، وإنني أبلغك يا
سيد "روفيوس" عزائي مرة أخرى ، وأنا على أتم
استعداد لصنع أي شيء يرضيك وقد أحضرت الطبيب
الخاص بي لفحصك وعلاجك .

رد "روفيوس" بعدم اهتمام قائلاً :
- أشكر تعب محبتك ، فلقد فحصني طبيبي الخاص .
خرج الوالي يجر ذيول الخيبة والعار عارفاً أن "روفيوس"
لن يهدأ حتى تشتعل المدينة .

رحل الوالي إلى قصره واجداً "فابيان" وابنه "سيزار"
ومعهم القائد الرومي في انتظاره ، فصب لعناته عليهم مما
حدث من دمار بسببهم وموت "ابن روففيوس" ، فلم يجد من

"فابيان" سوى إنكار جميع التهم الموجهة إليه هو ولده وأنهما في براءة الذنب من دم ابن يعقوب وأنهما لديهما شهود عيان على أنهما كانا يعصران الكروم بمزارعهما .
لم تدخل تلك الكذبة على الوالي عالمًا أنه لن يصل معهم إلى حلول وسطية آذنا لهما بالانصراف منفردًا بالقائد الرومي الذي وسوس في عقل الوالي قائلاً :

- يا سيدي ، إنَّ السيد "روفيوس" لن يصمت ، ولا نعلم ما يخطط له وبالذات في حضرة الكاهن "ثأوفيلس" وابن أخته "كيرلس" فهذان الاثنان من مثيري الشغب الديني .

تمعن الوالي ناظرًا بالقائد قائلاً وقد بدت على وجهه ملامح التعب الرهيب :

- وما العمل من وجهة نظرك أيها القائد ؟
- ضربة قوية من يدك يا سيدي مظهرًا قوتك وبطشك محافظًا على عرشك .

أشار الوالي إلى قائده بالاقتراب منه حتى لا يسمعهم أحدٌ ممسكًا بكأس خمره متجرعًا رشفة كبيرة محاولًا تهدئة أعصابه المتوترة قائلاً في همس :

- وما هي تلك الضربة ؟

همس القائد بخبث قائلاً :

- اعتقال "روفيوس" مؤقتًا .

كاد الكأس يسقط من يد الوالي حتى استعاده مرة أخرى متحكماً في أعصابه قائلاً :

- هل جننت أيها القائد ؟ كيف أعتقل "روفيوس" ، وهو معروف ومشهور أكثر مني في الثغر بل وفي ربوع مصر كلها ، وله أصدقاء ونفوذ جبار وقوة عظيمة داخل وخارج مصر .

- اهدأ يا سيدي ، فلنلق له تهمة أنه يحض على تحريض الشعب ويكسر أمن الإمبراطورية الرومانية مهدداً سلامها .

- ولكن تلك الجريمة عقوبتها الإعدام بقطع الرقبة .

- لن نعدمه يا سيدي ، لن نعدمه ، فهو في النهاية السيد "روفيوس" وإنما سنفعل ذلك لتهدة الشعب وإظهار قوتنا التي نسيها الشعب السكندري لرحمة جنابكم الموقرة ، فلنضرب تلك المرة بيد من حديد متبعين قول من سبقونا ، اضرب الراعي .

ظهر الارتياح على وجه الوالي نوعاً ما مكماً :

- تتبدد الرعية ، وبالقبط على "روفيوس" ينتهى

الأمر ، ومتى ترى الوقت المناسب للقبض عليه ؟

- بعد دفن ابنه وتلقيه العزاء من أهل الثغر .

- نعم الرأى السيد ، وليكن هذا بيننا أنا وأنت ، فأنا

أعلم ميول رئيس الجند .



- الجند في كل مكان بالإسكندرية .

قال "كيرلس" ذلك موجهاً حديثه إلى "روفيوس" وخاله بينما سمع صوت طرق على الباب ، ففتح أحد الخدم ليدخل المعلم الصالح في صمت شديد ناظرًا إلى الجثمان المسجى منحنيًا عليه مقبلاً جبهة الشاب مغمضًا عينيه تاليًا الصلاة الربانية ثم ألقى بالسلام على الجميع معزيًا "روفيوس" جالسًا مواجهًا الجثمان والجميع قائلاً :

- ما ذنب هذا الشاب الصغير الذي كان على وشك أن يبدأ حياته في أن ننهيها له سريعًا .

نظر الجميع بأسى بدون أن يجدوا ما يجيبون به ليكمل المعلم قائلاً :

- قلت مرارًا وتكرارًا وما زلت أكرر أن العنف لا يأتي سوى بعنف ، والدماء لا تمسحها سوى دماء مثلها .

تدخل "ثاوفيلس" قائلاً :

- أيها المعلم إن ابننا قتل على حين غرة .

- ولكنه قتل ، والآن أنتم تفكرون كيف تردون الضربة .

قال "روفيوس" بثقة :

- بالطبع أيها المعلم الصالح .

رد عليه المعلم قائلاً :

- ومن الضحية تلك المرة الذي سيسقط قتيلاً .

قال "روفيوس" بقوة :

- كل الآريوسيين والوثنيين واليهود .

نظر المعلم إلى الكاهن قائلاً :

- أتؤيد هذا الرأي أيها الكاهن "ثأوفيلس" ؟
- لم يتفوه الكاهن ببنت شفة ليكمل المعلم حديثه قائلاً :
- أيها السادة هنيئاً لكم بانتقامكم المجيد ، إنني أسأل الآن عن خطوتك التالية يا سيد "روفيوس" ، متى ستشيع جنازة ولدك الراحل ؟
- لن أشيعها .

ظهر الاندهاش على وجه المعلم ليكمل "روفيوس" حديثه قائلاً :

- إنني قد بعثت لجلب أطباء يجيدون التحنيط ، إنني سأقوم بتحنيط جثمان ولدي الحبيب أولاً .

أوما المعلم برأسه ناهضاً من مجلسه ملقياً السلام على الجميع تاركاً إياهم عائداً إلى داره ليجد مفاجأة في انتظاره ألا وهو القائد الرومي فاستغرب المعلم لمثل تلك الزيارة الفجائية ، ولكن لم يجعل القائد وقتاً للمفاجآت بل صرح المعلم بأنه أصبح في حلٍ من وعدهم بعد أن غادرت الفتاة داره لينظر إليه المعلم مندهشاً من كيفية معرفته ، فأوضح له الآخر أنه ما زال القائد الرومي الذي لا يخفى عنه شيء وأنه على علم بمكان العصفورين الحبيين المتزوجين ، وإذا كان ما زال يُكنى معزة "لروفيوس" فليطلب منه أن يترك الثغر لأنّ الوالي بصدد اعتقاله لتستره على شخص متسبب في اختطاف فتاة وتهيج الرأي العام .

تملق المعلم في القائد يكاد يبصق على وجهه من بشاعة
 الخسة والندالة التي يراها أمامه محاولاً استجماع هدءه قائلاً :
 - كم تريد ؟

ابتسم القائد قائلاً في دهاء :

- لم يعد الأمر الآن يتعلق بالأموال بل يتعلق بكرسي
 الوالي ، أراك عما قريب يا صديقي ولا تخش شيئاً ،
 لن يكون لك علاقة بأي شيء .

رحل القائد تاركاً المعلم رأسه تكاد تنفجر من التفكير مريداً
 أن يصل بأي حال إلى " أثناسيوس كوزموس " وزوجته ولكن
 كيف في زمن قياسي ؟ كيف ؟



(١٦)



- كيف ستنهي هذا الصراع يا حبيبي "سيزار" ؟

ارتدى "سيزار" عباءته مستمعاً إلى الفتاة اليهودية شبه العارية المستلقية بالقرب الصغير الذي استقلوه مبتعدين عن الثغر كله حتى لا يراهم أحدٌ وهم يمارسون الرذيلة تحت مسمى الحب ، ولم تكن تلك الفتاة اليهودية سوى ابنة "مناحم" المدعوة "راعوث" ، قال "سيزار" :

- لا تقلقي الأمور كلها في يدي .
- لقد أوحشتني كثيراً كل تلك المدة التي قضيتها في قصر الوالي ، حقاً كانت حياة الرفاهية المريحة لكن بدونك هي نار الجحيم .

ابتسم الشاب مساعداً إياها في ارتداء ملابسها أخذاً تفاحة من سلة الفواكه قاضماً منها معطياً إياها فقضمت هي الأخرى مستلقية في أحضانه ، والقارب يتهدى بهما طافياً في منطقة بحرية نائية لا يرتادها أحدٌ لنقول له :

- ألم تخف عليّ يا حبيبي ؟
- أنا لا أخاف على أحد سوى نفسي .

- إنَّ ما أحبه فيك هو قسوتك وفضاظتك ولكني أنا كنت في قمة الخوف إذا جاءت القابلة وكشفت عليّ .
- ولمَ الخوف ؟ كانت ستثبت ما نريده .. أنك غير عذراء .

سألته ببلاهة قائلة :

- والحمل ؟
- لم يرد الله أن يكتمل .
- إنَّك عبقرى ، كل شيء له عندك حل .
- إنِّي أشفق على الفتيات من الغباء ، أنسيت أنني أنا من وضعك في طريق "أثناسيوس" منذ ما يقارب العام أيتها الفتاة ناقصة العقل ، وهو قد ابتلع الطعم لتصبحي عينا على أختي مع ذلك التافه الآخر الذي اختفى من الشجر .

- لكن "أثناسيوس روفوس" كان طبيبا .
- نظر إليها "سيزار" بتمعن قائلاً :
- يبدو أنه أصابك العته الفجائي بقصر الوالي .
- ابتسمت محتضنة إياه قائلة :

- أحبك ، أحبك من كل قلبي .
- أخاف يوماً ما أن تطلي مني الزواج .
- لا تخف يا حبيبي ، فأنا أعشق عالم الأسرار ، أنا أكتفي بأن أكون عشيقتك مثل عشيقات الملوك والأباطرة .

قبَّل إياها في فمها قائلاً لها :

- لكنني لست ملكًا أو إمبراطورًا .
- لكنك في نظري أعظم منهم .
- إنَّ خيالك واسع جدًا يا صغيرتي .
- وما الذي تفكر فيه الآن بعد أن أنقذتني من قصر الوالي ؟
- لا شيء ، ستنحصر المياه عن الشاطئ .
- لكنني سمعت من أخي أن "روفيوس" يعد العتاد .
- لا تشغلي عقلك الصغير ، وقريبًا سينتهي "روفيوس" من الإسكندرية .
- هل سيموت مثل ابنه ؟
- لا تسألني ما ليس لك فيه شأن ، وهيا نعود بسرعة إلى الشاطئ حتى لا يخيم علينا الظلام .

جذف "سيزار" حتى وصل إلى الشاطئ مُقبلاً عشيقته التي ركبت حصانها منطلقة به عائدة إلى دارها ، بينما ظهر فجأة القائد الرومي من العدم مبتسمًا ابتسامة صفراء ففزع "سيزار" من ظهوره المباغت قائلاً في حدة :

- ما هذا ، أتراقبني ؟

أجاب القائد بتهكم قائلاً :

- لا أستطيع أن أراقبك ، أنا قادم لك ببشرى عظيمة ، أتريد أن تعرف أين أختك الآن ، ومع من يا سيد "سيزار" ؟

لمعت أعين "سيزار" وقطب حاجبيه مستمعاً بشغف إلى ما يقوله القائد الرومي .



- القائد الرومي هو الوحيد الذي كان يعرف يا صديقي .
- وجه المعلم حديثه إلى الكاهن "ثاؤفيلس" الذي ظهرت على وجهه ملامح الحزن والاكتئاب مما يسمعه من المعلم ، ليقول بصوت منخفض :
- وما العمل الآن ؟ يجب إنقاذ الشاب المسكين وزوجته وبالمقاييس الزمنية المعتادة أظن أنهما لم يزالا في مدينة هرموبوليس .
- يحتمل ، ويحتمل أيضاً أن يكونا تحركا إلى الحبشة .
- اسمعني جيداً ، إذا كانا قد تحركا للحبشة فلا أظن أنه سيلحق بهما وإذا كانوا ما زالوا في هرموبوليس فهنا يكمن الخطر ، ويجب أن نصل إليهما سريعاً .
- أنهى المعلم لقاءه بالكاهن على أن يرسل الأخير رسولاً سريع الندهة إلى الشباب الصغير محاولاً إنقاذهم وليكن الله في عون الجميع متمنين أن يكونا هما أسرع من الشر .

حاول المعلم أن يستريح معطياً لجسده حقه لكنه لم يستطع ، فكلما وضع جسده على الفراش مسلماً نفسه للراحة لا يجدها، يبحث عنها فتقر منه ، فنهض صاعداً إلى سطح داره طالباً من الله سلاماً داخلياً لكن بدون فائدة تذكر فنفسه مضطربة

وروحه منزعة جدًا ، فقرر أن يذهب إلى "روفيوس" مبلغًا إياه بما سمعه من القائد الرومي فلم يجده ليبلغه الخدم بأنّه أسلم جثمان ابنه إلى خبراء التحنيط ليصعدوا به إلى وادي النطرون للبدء في إجراءات تحنيطه بينما خرج السيد من الثغر السكندري متجهًا إلى الصحراء الداخلية للمدينة ، وبالأخص إلى الهضبة المرتفعة ، فتعجب المعلم مندهشًا من تحركات "روفيوس" الغريبة تلك سائلًا نفسه عن ما الذي يقع داخل الصحراء الداخلية فلم تسعفه الذاكرة قط ، فذهب إلى المدرسة ليجد خطابًا مبعوثًا من البطريك يعلمه فيه بميعاد وصوله إلى ميناء الإسكندرية نظرًا لقرب انتهاء أعمال مجمع القسطنطينية شارحًا بالتلخيص أنّ الله قد كتب لهم الانتصار على بدعة "مقدونيوس" ولكن ما خسروه هو مكانة الكنيسة المصرية وسط الكراسي الرسولية لتتراجع مكانة الإسكندرية.



- الإسكندرية تحولت إلى ساحة حرب ويجب أن أقابل الرجل الكبير .

نظر الرجل الضخم إلى "روفيوس" ومن معه من أتباعه البالغ عددهم ثلاثة رافقوه في رحلته إلى الصحراء الداخلية للإسكندرية غير عالمين وجهته وهو وحده فقط الذي يعلم إلى أين يذهب حتى وصل قاعدة الهضبة الكبيرة فتصدى له رجلٌ ضخم وعلى كل طرف من قاعدة الهضبة رجلٌ ضخمٌ يحرس المكان كله شاهراً سيفه في وجه من يقترب ، وبناءً عليه تقدم

الرجل الضخم سائلاً "روفيوس" عن وجهته ، فقال له الأخير مقولته السابقة طالباً الصعود إلى الكهف ، ويبدو هكذا من وجهة نظر الرجل الضخم أن تلك ليست أول مرة للسيد زيارة الهضبة بل هو يعلمها تماماً فصعد الرجل الضخم إلى الكهف مخاطباً شخصاً آخر ليهبط وعلى وجهه ابتسامة عريضة مصافحاً "روفيوس" طالباً منه أن يسامح من قبله في البداية لأنه لم يعرفه ، ولم يمضِ وقت حتى وقف "روفيوس" أمام تجويف كبير داخل الكهف المضاء بالمشاعل النارية ما عدا ذلك التجويف الذي يوجد في بطن الكهف بالداخل ليغلب عليه الظلام الدامس .

تمالك "روفيوس" أعصابه فأشار له الرجل بأن يتكلم فبدأ في الحديث شارحاً كل ما حدث معه بالتفصيل ليُصرِّح في النهاية بأن ابنه "أناسيوس" قد قتل على يد الآريوسيين وأنه يريد الانتقام الرهيب مذكراً الرجل الكبير بأنه لم يبخل عليه بأي شيء منذ أن اتخذ الكهف مقصداً له مع رجاله ، وكل ما كان يطلبه من مساعدة أو سلاح أو طعام أو أموال كان يرسله له ، وهو لم يطلب منه أي خدمة من قبل وجاء وقت رد الجميل ومساعدته .

صمت "روفيوس" عن الحديث تماماً منتظراً أن يرى رد فعل الرجل الكبير الذي لم يبدِ أي بادرة للحياة منه لمدة من الوقت حتى أن "روفيوس" شكَّ أنه قد سمعه فنظر إلى الرجل الذي بجواره فطلب منه الأخير التذرع بالصبر فالرجل الكبير قد سمعه بدقة ووضوح ، ثم سمع "روفيوس" صوتاً ضخماً

رجل يأخذ نفساً عميقاً ثم يطلقه على دفعة واحدة حتى شعر "روفيوس" بتلك الأنفاس الحارة المنطلقة ناحيتهم لتخرج بعدها رأس مطلة عليهم من وسط الظلام الدامس ، وتبرز عينان لامعتان ووجه قد ظهرت عليه ملامح الشيخوخة بوضوح شديد ، وخرج جسم الرجل الكبير دفعة واحدة من الظلام ، ذلك الجسد الذي لا يمكن لمن عاشره ورآه في الإسكندرية أن ينساه ، إنه الرجل الذي هز عرش الإسكندرية يوماً ما مدخلاً الرعب داخل نفوس الآريوسيين والوثنيين واليهود .

نظر الرجل الكبير بتمعن إلى "روفيوس" ثم أخذه خارجاً من الكهف ليراه المرافقون للسيد فاندھشوا لضخامة هذا الرجل واحتفاظه بجزء من لياقته البدنية مع تقدمه في السن الملحوظ جداً ، لكنه ما أن وقف تحت أشعة القمر حتى صرخ بأعلى صوته زائراً بقوة لتنتفض عروقه وتشد أعصابه ، فارتعب الرجال لصراخه الذي دام مدة لا يستهان بها منتظراً في الهواء الطلق حتى جاوبه صوت يشبه عواء الذئاب أعقبه صوت يشبه صهيل الجياد ليبتسم صاحب الزئير ألا وهو زعيم جماعة الأسد المرقسي ، المصارع الأبكم الذي قرر أن يشترك في تلك المعركة الفاصلة منادياً على أصدقائه جماعة "الثيؤطوكوس" ، وجماعة "البانطوكراطور" ، وكل تلك الجماعات وعلى رأسهم هو ، فقد أخذوا عهداً على أنفسهم منذ زمن بعيد أن يدفعوا بكل غالٍ وثمين في الزود عن الكنيسة الرسولية وحمايتها من كل اعتداء وإثم ولكن لتعقبهم

من قبل السلطات الرومانية في فترات متعاقبة لتولي أباطرة أريوسيين سدة الحكم الإمبراطوري انتخبت هذه الجماعات نفسها مفضلة الحياة في الجبال والهضاب بالكهوف والمغائر في صحراء مدينة الإسكندرية مرتكنين على بعض رجال البر مثل "روفيوس" الذين يعلمون فقط بوجودهم في تلك الأماكن القفر ويمدون إياهم بالمساعدات متى احتاجوا .

هم رجال لا يعرفون الخوف ، لا يعرفون الذل أو الخنوع ، وهبوا أنفسهم لله وحماية الكنيسة ، وقد جاء وقتهم ليعلموا انضمامهم إلى "روفيوس" الذي بدأ في وضع أول الخطوات لتنفيذ مخططة الانتقامي .



رجع "روفيوس" إلى الإسكندرية واجدًا كل من المعلم الصالح والكاهن "ثاؤفيلس" بانتظاره على أحر من الجمر مُعلمين إياه بأن لديهم إخبارية تفيد أنه سيتم القبض عليه من قِبَلِ الوالي بسبب إثارة أعمال الشغب داخل الثغر وعليه أن يهرب أو يخفي بأي مكان آمن إلى حين هدوء الأوضاع نسبيًا ، فابتسم "روفيوس" قائلاً بتهكم :

- بالحري يقبضون على البرئ ويتركون المذنبين ، وهذا هو حال المدينة السكندرية .

حاول كل من المعلم والكاهن إرغامه وإقناعه على الرحيل لكنه لم يرضخ تحت أي من المسميات أو الظروف لأنّه لا يستطيع أن يترك رجاله الذين وثقوا به مفوضين إياه للدفاع

عنهم وعن أسرهم بل بالعكس سيصمد ويقاتل حتى النفس الأخير موصيًا إياهم بأنه في حالة ما إذا قتل يأخذون أمواله كلها وتجارته موزعين إياها على الفقراء والأرامل والمساكين والمعوزين منهياً لقاءه معهم على حتمية البقاء ومواجهة المعركة الفاصلة القادمة لا محال ولا مفر .

استدعى "روفيوس" أقوى رجاله البواسل الأشداء موصيًا إياهم بنقل بضع رسائل شخصية إلى أصدقاء له خارج الإسكندرية ، فأرسل واحدًا إلى صديق له قوي النفوذ ، ثري من أثرياء مدينة بابلين يدعى "باخوم المشرقي" طالبًا منه العون والمساعدة في اليوم المحدد لنصرته على قاتلي ابنه وليكن ذلك اليوم ثورة شعبية عارمة في أراضي مصر كلها على الآريوسيين والوثنيين ، وبالفعل انطلق الرسول ممتطيًا جواده طائرًا بسرعة الرياح إلى بابلين ، وآخر أرسله إلى بحر إيجه وبالأخص مقاطعة مقدونيا حيث يقع هناك الجبل المقدس لأنَّ له أصدقاء أشداء ، رجالًا غيورين على الإيمان القويم طالبًا منهم إثارة الشعب المقدوني الكريم على ما لديهم من هراطقة ووثنيين وإرسال المدد إلى أشقائهم المؤمنين السكندريين من رجال وسلاح ، وبالفعل ركب الرسول البحر متجهًا في سفينة سريعة إلى السيد "نكتاريوس المقدوني" ، وآخر اتجه إلى صحراء ليبيا إلى قبيلة شديدة القوى تدين بالمسيحية على الإيمان القويم ليسلم رسالته إلى السيد "أنسطاسي القيرواني" ، بينما انطلقت رسائل عديدة موقعة من "روفيوس" إلى عديد من الأساقفة المناصرين للإيمان

القوم ليحتشدوا في يوم معين تم تحديده من قبله للإنتقال على كل من لا يتبع الإيمان المستقيم ، إيمان مجمع نيقية ، وبالفعل وصلت الرسائل إلى القسطنطينية ونيقية وفينيقية ورومية واللاذقية وفلسطين وأنطاكية وإلى بلاد غالية وإلى روما الصغيرة وأرمينيا وإلى آباء كنيسة اللاتين والرومان . لقد قالها "روفيوس" ولن يتراجع فيها ، أنه رافع دعواه إلى قيصر وها هو سوف يهز عرش الإمبراطور بالقسطنطينية .

وصلت بعض تلك الأخبار إلى أذان القائد الرومي الذي نقلها إلى الوالي مسرعاً ، فما منه إلا أن ارتجف وأصابته رعشة وربكة غير عادية بالمرة حتى لاحظها الجميع ، فاقترب القائد الرومي مطالباً بالإذن بالحديث قائلاً :

- يا سيدي ، لا تخش شيئاً فنحن بجانبك ، كلنا بجانبك .
- من أنتم الذين بجانبني ؟
- كل جنودك ، وأنا أولهم ولا تحسب رئيس جنودك لأنه يدين بالولاء إلى الكنيسة السكندرية ، بسبب أنه مصري .
- إذن ما العمل ؟
- نرسل إلى حلفائنا وأصدقائنا الذين يدينون بالولاء إلى جلالتك ، من أمراء وولاة يُكَنُّون المعزة والعرفان لشخصكم ، وأنا واثق أنهم لن يتأخروا عن مساعدتنا .
- ولكن أليس من الأفضل أن نبلغ الإمبراطور ؟

- لا ، إنَّ إبلاغ الإمبراطور بتلك الأمور سيجعل موقفك سيئ جدًا أو سيشعر فخامته بأنَّك ضعيف الشخصية ولا تستطيع التحكم في الشعب السكندري .

ظهر الاقتناع على وجه الوالي الخانع ماسحًا عرقه بمنديل حريري قائلاً :

- ومن تظن يمكنه أن يساعدا ؟
- جميع الولاة الذين يدينون بالآريوسية مذهبًا ، اسمع يا سيدي الوالي ، في الخارج السيد فابيان وابنه سيزار وهم على أتم الاستعداد لتعزيذك ومساعدتك بكل قوتهم ، استمع إليهم وستستفيد أشدَّ الاستفادة .

نظر الوالي بتمعن إلى القائد الرومي معطيًا الإذن بدخول الضيوف الآريوسيين وحضور اللقاء فابتسم القائد بخبث منفذًا الأمر .

دخل "فابيان" وابنه مؤدين التحية للوالي السكندري الذي لم ينتظر متطرقًا إلى الموضوع في كيفية مساعدته للحفاظ على العرش فأشار عليه "فابيان" بإرسال رسائل مكتوبة من بلاط جلالته إلى الأمراء والولاة الآريوسيين الموالين له وأنهم على أتم استعداد لمساعدة والي الإسكندرية بشرط .

تمعن والي الإسكندرية ناظرًا إلى الجميع متسائلًا عن هذا الشرط ، فلم يكن من "فابيان" إلا أن ذكر له أنه بعد أن يتم القضاء على الفتنة الكبرى التي ستحدث يجب أن يساعدهم

في الاستيلاء على كنيسة الإسكندرية بالقوة ، فارتعد الوالي قائلاً بخوف :

- ولم كنيسة الإسكندرية ؟ ابنوا أفضل منها وأساعدكم واتركوا تلك لأهلها .

قال "سيزار" مبتسماً :

- لأنه لن يكون هناك أهلها بعد ذلك اليوم يا مولاي .

ومع أن الوالي من أتباع الإيمان المستقيم إلا أنه رضح لجميع مطالب الآريوسيين محافظاً على عرشه ، فأرسل خطابات إلى بعض ولاية أفريقيا الآريوسيين وآخرين بالغرب منتظراً الرد وهو يكاد يموت خوفاً .

خرج "فابيان" و "سيزار" من حرم البلاط الملكي ليجدوا المعلم الصالح واقفاً بالبهو الملكي مع الكاهن "ثاوفيلس" حيث طلبوا مقابلة الوالي ، وما أن لمح الطرفان بعضهما حتى خرج بعدها القائد الرومي متأسفاً للمعلم وللکاهن بأن الوالي لا يستطيع أن يراهم لأنه متوَعك قليلاً ، ففهم الصديقان على الفور أن الوالي قد قلب ظهر المجن عليهم معطياً ظهره للكنيسة الأم رامياً بنفسه في أحضان الآريوسيين الهرطقة .



- الهرطقة قد زادوا في بلادنا يا "أثناسيوس" .. إن الآريوسيين في ازدياد مستمر في هرموبوليس .

قال أحد الفلاحين حديثه هذا إلى الشاب "أثناسيوس كوزموس" الذي جلس بجانبه بعد انتهاء يوم العمل الشاق في الحقل ، فمنذ أن وصل الشاب إلى بلدته القابعة بصعيد مصر والتي مهنة أهلها الزراعة فقط ، قرر أن يعمل بيده حتى تتعافى أمه من مرضها مؤجلاً هروبه إلى الحبشة زمناً يسيراً حتى تتعافى أمه التي سهرت على رعايتها "مارثا" زوجته لتنشأ علاقة محبة حميمية بين "مارثا" وكنتها التي أحببتها جداً معتبرة إياها ابنتها التي لم ترزق بها ، متمنية لابنها وزوجته دوام السعادة وكثرة البنين والبنات ، وقد عزم "أثناسيوس" ما أن تمسك أمه بصحتها أن يغادروا مصر نهائياً ، وإلى أن يحدث هذا التحق بالعمل بأحد الحقول كمزارع وفلاح بسيط ليجيب صديقه الجالس معه قائلاً :

- لا تقلق يا صديقي ، الله موجود هو يدافع عن أبنائه .
- إنني واثق من هذا ، لكن الأريوسيين يستغلون احتياج الفقراء والبسطاء ليسدوا لهم هذا العوز في سبيل الالتحاق بكنائسهم وتجمعاتهم .
- وهل ذهب معهم يا أخي ؟
- الحق أقول لك ، إن زوجتي وأبنائي قد ذهبوا معهم ناقلين على حياة الفقر ، فأنا فلاح بسيط ، أعيش على عملي من الزراعة كفلاح بالأجرة في أراضي الأسياد وأياماً وراء أيام متمنياً أن أرى أرضي بالسما .

ابتسم "أثناسيوس" بهدوء شديد مجففاً عرقه المتصبب على وجهه قائلاً :

- الله يعطيك حسب ثقل قلبك يا أخي ، ولكن أبنائك وزوجتك ...

- أخذهم الآريوسيون ناقلين إياهم إلى حال أفضل وبرهة وتركوا البلد وعندما حاولت معرفة طريقهم تصدى إليّ الآريوسيون مخيرين إياي بين اعتناق مذهبهم متبعاً تعاليمهم أو نسيان زوجتي وأولادي أفضل لي حتى لا يصيبني أذى .

قطب "أثناسيوس" حاجبيه غاضباً قائلاً :

- ولمَ لم تذهب إلى السلطات الرومانية ؟

قال الفلاح بيأس :

- لأن والي هرموبوليس في ذلك الوقت كان آريوسي الجنس .

ضرب "أثناسيوس" يده في الطين غيظاً وحنقاً قائلاً :

- وكيف تعيش الآن ؟

- أعيش مع أخي وزوجته وأبنائه شاكرًا الله .

- اللعنة على هؤلاء الهراطقة الذين شتتوا شمل العائلات

مفرقين إياها .

استاذن الفلاح تاركًا صديقه جالسًا مفكرًا تحت اليقطينة عن أحوال البلاد وما أصاب المؤمنين ، شاكرًا الله الذي أهداه فتاة مثل "مارثا" حبيبة قلبه ليرفع عينيه إلى السماء مصليًا إلى الله على نعمه الجزيلة التي لا تعد ولا تحصى .

أنهى "أثناسيوس" صلاته بالحقل عائداً إلى داره ليجد أناساً متجمهرين بكثرة أمام الدار والأبواب مفتوحة ، ونساء باكيات ورجالاً ظهرت على وجوههم معالم البؤس والشقاء ، والجميع قد حل على رؤوسهم الطير بينما الشاب ينظر إليهم باستغراب وقد تمكن منه الخوف من هذا التعداد ، ليسأل بعضهم عن وقوفهم هكذا فلم يجبه أحد حتى وصل إلى باب الدار لتجذب عيناه ذهولاً واجداً أمه وزوجته معلقتين بالحبال من رقبتيهما على العوارض الخشبية لسقف الدار وبطنيهما مشقوقان من أعلى إلى أسفل وأمعائهما ملقاة على أرضية الدار ، فصرخ "أثناسيوس" بصوت عظيم اخترق آذان جميع أهالي بلدة "هرموبوليس" ليسلمه أحد جيرانه رسالة وجدوها ملقاة بجانب الضحيتين ليمسكها "أثناسيوس" قارئاً فحواها وعيناه تدمع ليجد الحبر لونه أحمر يثير الرهبة :

- إلى العزيز "أثناسيوس كوزموس" ..

أظن الآن أنك تتساءل عن هذا الحبر الأحمر القاني ، لا تتعجب إنه دم زوجتك مختلطاً بدم أمك الذي كتبت به خطابي إليك .

نحن الآن متعادلان ، أنت اختطفت خطيبتني مني وأنا أخذتها منك للأبد ، ولا تحزن على أمك فهي كانت ستموت وأنا أرحتك من هذا العبء .

أراك قريباً في الشجر السكندري حيث موتك .

"مركيان الأريوسي"

التهبت عينا "أثناسيوس" من البكاء مصطبغة باللون الأحمر مقتربا من الامرأتين المعلقتين ممسكا بهما باكيا بكاء مرأ راکعا مقبلا أقدمهما والجيران يحاولون مساعدته في تخطي تلك الأزمة البشعة ، فهم قد اكتشفوا ما حدث بعد أن هجم على الدار بعض الشباب الأقوياء ولم يقدر أحد أن يتصدى لهم لوجود رجلين ضخام لونهما أسود ، كان كل من فكر بالتدخل أوسعوه ضربا حتى هرب بجلده ، وانتهى الأمر سريعا .

دفن "أثناسيوس" أمه وزوجته في "هرمبوليس" أخذا حصانه متجها إلى الثغر السكندري و كله غضب عارم لا يحتمل.



- لا يحتمل ما يحدث في شوارع وطرق الإسكندرية .

اقتحم المعلم مكتبه بالمدرسة قائلاً تلك الكلمات إلى الأساتذة الأجلاء الذين اجتمعوا في مكتبه منتظرين إياه .

نظر المعلم إليهم وعلى وجهه ملامح حنق وسخط محاولاً اكتساب هدوئه مرة أخرى ملقياً التحية على الحاضرين الذين بادلوه إياها ثم قال :

- الأريوسيون والوثنيون أصبحوا لا يُحْتَمَلُوا ، إنهم منتشرون في الطرقات يغيظون الأهالي بألفاظ نابية قدرة ترتعش الأذان عند سماعها .

ظهر الاستياء على وجوه الحاضرين لبيادله أحدهم الحديث قائلاً :

- يا ليتها تنقضي بالألفاظ النابية ، لقد وصلني ليلة أمس أن معشر الأريوسيين تهجموا على بيت للعدارى في نواحي بلدة سخانيوس فاتكين بعذرية هؤلاء الفتيات اللاتي وهبن أنفسهن لله العلي .

لاح الغضب على وجوه الجميع فقرر المعلم أن يصوم جميع أساتذة المدرسة والطلبة لمدة ثلاثة أيام يصلون إلى الله أن يرفع غضبه عن الشعب ، فرحب الجميع بهذا القرار الصائب فهم ليس لهم سوى الله ليرفع عنهم تلك الغمة التي نزلت على رؤوسهم ، فحالة الهياج السكندري تلك لم تحدث منذ أيام البابا "أثناسيوس" ليمضي الأساتذة إلى حالهم بعد أن وزع عليهم المعلم الجدول الدراسي الجديد للمراحل الدراسية التي ستبدأ ليفاجأ بدخول القائد الرومي عليه محيياً إياه قائلاً له بينما انصرف الجمع :

- يبدو أن صديقك "روفيوس" لم يذعن للتحذير .
لم يجب المعلم بل ظل محملاً في ذلك الثعلب المخادع بينما أكمل الآخر حديثه قائلاً :
- مهما حدث أتمنى أيها المعلم الصالح أن نظل أصدقاء وأحباً .

- وما الذي سيحدث .. أسوأ مما يحدث الآن ؟!
- لا أحد يعلم ، وأرجو شيئاً آخر ، أن لا يختلط طلبة المدرسة اللاهوتية في أي أعمال عنف أو شغب لأن

لدي أوامر مباشرة من الوالي باستخدام الشدة والحزم
إن اقتضى الأمر ، ورأيت خرقاً للقوانين واللوائح
الرومانية .

- لا تقلق أيها القائد ، إن طلبتنا هم آخر طائفة يمكن أن
تفكر فيها للاشتراك في أي أعمال تخريبية ، ركز
بالحري مع الأريوسيين والوثنيين .
ابتسم القائد ابتسامة تهكمية قائلاً :

- نحن نقف بالمرصاد للجميع ولن نتهاون مع أي طرف
يبدأ بالشغب وافتعال الأزمات .
- مقارنة لما يحدث بالشارع السكندري ، إنَّ الحال
هادئ تماماً ، خذ هذه .

أخرج المعلم حجراً ثقيلاً نوعاً ما مدبب الرأس واضعاً إياه
أمام القائد قائلاً :

- ذلك الحجر قذفني به شاب أريوسي صباح اليوم وأنا
في طريقي للمدرسة ، لقد أخذته منه كتذكار شاكرًا
إياه .

امتقع وجه القائد قائلاً :

- أرشدني إليه وأنا أعتقله فوراً .
ظهرت ابتسامة هادئة على وجه المعلم قائلاً :
- إنَّه في الإسكندرية ، سأضع منشورًا في الأماكن
العامة بأوصافه وسيأتي إليك .

شعر القائد بسخرية المعلم ، فقرر تغيير دفة الحديث إلى حيث
يغضب المعلم قائلاً :

- هل من أخبار جديدة من مدينة هرموبوليس ؟
رمقه المعلم بنظرة غاضبة قائلاً :
- الخير كل الخير لسيادتكم في الحفاظ على السر ،
لا يوجد عندي أخبار .
- وحتى أنا ليس لدي أخبار ، إنني يجب أن أنصرف
الآن ، لآخر مرة أذكرك أيها المعلم أن تبعد طلابك
ومن تخاف عليهم من شوارع الإسكندرية وطرقاتها
الأيام المقبلة لأنّ الرياح ستكون عاتية .
- خرج القائد من مكتب المعلم والأخير يرمقه بنظرات غاضبة
متشائماً مما سيحدث .



- ما سيحدث سيقلب الإسكندرية رأساً على عقب يا أبي
ويجب أن نرتب أمورنا ، ولا أجد أفضل من قد استكم
لمشاركته إياه خطتي الانتقامية .
- قال "روفوس" هذا الحديث مرتكناً على الكاهن "ثاؤفيلس"
بأحد زوايا كنيسة بوكاليا والأخير يسمع إليه بإنصات وشغف
عميق ، فما يسرده "روفوس" الآن قد استطاع أن يجعل
العالم المسيحي أغلبه ينقلب في يوم واحد على الهراطقة
والوثنيين مما أدخل الغبطة والسرور إلى قلب الكاهن معتبراً
أنّ الكفاح المقدس جاء وقته ولا بد من أن تطرق المطرقة .

اتفقوا واضعين النقاط العريضة لما سيكون ، فقد انتهى رجال التحنيط من مهمتهم بتحنيط جثمان "أثناسيوس" ، وأصبح الوضع مؤهلاً لإقامة صلاة الجناز وبالفعل تم تحديد ميعادها في رأس الأسبوع ، وبعدها "روفيوس" سيُقْبَضُ عليه بعلمه ، وفي اليوم التالي للجناز سيكون هناك جلسة تأبين لروح الشهيد "أثناسيوس" بالكلوزيوم السكندري ومن هناك ستنتقل الشرارة .

طمأن "روفيوس" الكاهن أنَّ جميع ما يحتاجه من سلاح سيجده في دهاeliz الكلوزيوم ، تلك الأماكن التي كانت تُسْتَحْدَمُ فيما سبق لتعذيب المسيحيين وإعدادهم قبل الوقوف أمام الوحوش الفاتكة في العهد الوثني الغابر ، لقد أصبحت تلك الأماكن شعلة حية للثورة الأولى التي سيكون كلمة السر بها "أثناسيوس" حتى يعرف القادمون من البحر والبر لمساندة أخوانهم السكندريين كيف يفرقون بين العدو من الصديق ، ليضع الكاهن يده على رأس "روفيوس" مباركاً إياه منتظراً ميعاد صلاة الجناز الذي سيُحْضِرُون فيه مفاجأة للأعداء .



(١٧)



- الأعداء سيحيطون بي أيها القائد إن لم يصل المدد قريباً من أصدقائنا الولاة والأمراء بكثرة .

ظهر الارتباك الشديد على وجه الوالي السكندري وهو يتحدث إلى قائده الرومي ، بينما الآخر يبدو على وجهه الارتياح والاطمئنان قائلاً مخاطباً الوالي :

- لا تقلق يا سيدي ، كل شيء قد تم إعداده بحكمة ، وما بين الفينة والأخرى انتظر وصول بقية البوارج الحربية الرومانية القادمة لتعزيدينا ومساعدتنا .

ارتاح الوالي لهذا الصوت المطمئن قائلاً :

- ألم تعرف بعد متى يمكن أن يهجم المسيحيون السكندريون ؟

- أعتقد يا مولاي من خلال ما وصل إليّ أنه سيكون يوم الجناز العام لـ "ابن روفئوس" أو في اليوم التالي بجلسة التأبين بالكلوزيوم السكندري .

قاطع الوالي قائده قائلاً :

- لا أعلم لماذا أعطيتهم تصريحاً باستخدام الكلوزيوم !

- وما المانع يا مولاي ، فليأخذوه متجمعين فيه لأحكم قبضتي عليهم ، فبداخل الكلوزيوم سيكون من السهل الإطاحة بهم والانقضاض عليهم ببسر إذا ما فكروا في مهاجمتنا أو إثارة الشغب .

ارتشف الوالي جرعة من الخمر قائلاً :

- وبقية الثغر السكندري ؟
- لا تفكر في ذلك يا مولاي واهداً ، فقوتنا الضاربة ستحيط بالإسكندرية كلها مؤمنةً مداخلها ومخارجها .

دخل قائد الحرس قائلاً في حدة بعد أن ألقى السلام على الوالي :

- ما هذا الذي دخل إلى ميناء الإسكندرية تباعاً؟!
عشرون بارجة رومانية مدججة بالجنود والسلاح والعتاد وآلات الحرب والعجلات الحربية ، كل هذا بدون أن أعلم مسبقاً ، هل سنشن حرباً ؟
رمقه الوالي منهياً كأس الخمر ليقترّب الخادم بسرعة ويصب المزيد من الخمر ليقول الوالي في برود :
- وماذا كنت ستفعل إذا عرفت ؟

ظهر على رئيس الحرس الارتباك بينما استراح الوالي على كرسي عرشه ، فقد وصل ما كان ينتظره مطمئناً الآن أن عرش الإسكندرية لن يضيع من تحته ليقول القائد :

- يا مولاي ، كان لا بد من أن أعرف بمثل هذا الفعل حتى لا يحدث توتر واضطراب بين أهالي الثغر

السكندري الآن ، أنت تعلم غيرة الشعب السكندري
وحساسيته من رؤية تلك البوارج الرومانية ،
ولا ندري ما يفكرون فيه الآن عند رؤيتهم ذلك
المنظر المرعب .

رد الوالي بثقة متناهية :

- فليفكروا كما شاؤوا ، فأنا الوالي وأنا من يأمر وينهي
وهؤلاء القادمون لمساعدتنا سيطوقون الإسكندرية
كلها برًا وبحرًا .

التفت القائد إلى مساعده الرومي غاضبًا قائلاً :

- وما الداعي يا مولاي ؟ هل رأيت من الشعب
السكندري أي شيء يشوبه أو عملاً شائناً يستدعي
جلب كل تلك القوات ؟

ارتشف الوالي جرعة كبيرة من الخمر قائلاً مبتسمًا :

- نعم ، لقد رأيت أنا ، وأنا يكفيني ما رأيت .

أخرج رئيس الجند زفيرًا عميقًا قائلاً بصوت منخفض :

- إذن يا مولاي ليكن كقولك ، لكن أحب أن أبلغ جلالتك
أنني لن أرفع سيفي في وجه أبناء شعبي العزل .

قاطعته الرومي قائلاً :

- إذا ثبت أنهم عزل بالطبع لن نضربهم .

تطلع الوالي إلى الجميع ناهضًا من على كرسي عرشه ممسكًا
بكأس الخمر خاصته ذاهبًا إلى قائد جنده قائلاً في تودد ولطف
مصطنع :

- طبعًا أيها القائد العزيز ، لن يرغمك أحدٌ على رفع سيفك الشريف العادل أمام وجه أي مواطن سكندري شريف ، ورفعاً للحرَج عنك أنا أعطيك إجازة مفتوحة من اليوم وحتى انتهاء فترة القلق والاضطرابات .
- حاول القائد أن يتكلم فمنعه الوالي قائلاً :
- إنَّه أمر ويجب تنفيذه .

خرج القائد مستشيطاً غضباً لا يدري ماذا يفعل متجهاً إلى داره ، بينما ظل الرومي والوالي يخططان للمستقبل ثم بعدها أخذ الرومي طريقه إلى الميناء لتوزيع القوات ، وبالفعل رأى رد فعل الشعب السكندري عند رؤيتهم تلك البوارج الضخمة ليستعيد بعض منهم ذكريات وحكايات الكبادوكيين اللذين أتيا على سفن ضخمة مثل تلك معززين بالسلاح والعتاد الحربية والجنود الرومانية حتى ذهب بعض أهالي الثغر السكندري بفكرهم إلى أنَّ الإمبراطور قد نفى بطيريركهم وأرسل غيره مثلما حدث في الماضي ، فذهبوا سائلين الراكبين على تلك السفن فأكدوا لهم أنه لا شيء مما يفكرون به صحيح وبقي اللغز قائماً لما رست تلك البوارج العشرون بميناء الإسكندرية وبدأت في إنزال مهامها على الشاطئ وإفراغ عتادها وجنودها الذين اصطبغت ألوان بشرتهم بالأسود والقمحي والأصفر والأبيض ، جنود من أجناس أخرى قد حطوا بدروعهم وسيوفهم وعجلاتهم الحربية على الأراضي السكندرية مما جعل النفور يدب في قلوب السكندريين وعلى رأسهم "ثاؤفيلس" الكاهن و "روفيوس" الذي ظهرت على

وجهه ابتسامة ترحيب ، مرحبًا بالمعارك القادمة فيها هو الوالي الجبان يستعين بأصدقائه الأريوسيين من الأمراء والولاة لحماية عرشه الذي لن يدوم له طويلًا فهو لم يفته أن يرسل خطابًا إلى الإمبراطور موقعًا من كبار أعيان الإسكندرية وكثير من الأساقفة الأجلاء ورجال الدين بالقطر المصري ، ومصر ما تزال لها كلمة عليا وسيادة داخل الإمبراطورية الرومانية لا يدركها سوى من عرف قيمة مصر درة الإمبراطورية الرومانية ، ومصدر غلالها ومحاصيلها وخيرها كله ، لكن للأسف هذا الخطاب لم يره الإمبراطور بسبب إخفائه من أحد رجال بلاطه الأريوسيين .

دخل الرعب قلب السكندريين من منظر هؤلاء الوحوش الرابضة على الشاطئ المتخفية في شكل جنود واستلزم إفراغ البوارج يومًا كاملاً حتى أعطاهم القائد الرومي التحية العسكرية طالبًا منهم الاستعداد للتحرك في شوارع وطرق الإسكندرية لعمل عرض عسكري ضخم القصد منه إدخال الرهبة والخوف الشديد إلى قلوب كل من تخول له نفسه بعمل أي عمل مخالف للسلطات الرومانية أو هز أمن الإسكندرية ، وبلغ عدد الجنود الخمسة آلاف نفس وعدد راكبي المركبات بالخيول ما يقارب الألف ، أما الخيول وراكبوها فبلغت الألف حيث انتهى بهم المطاف أمام قصر الوالي الذي رحب بهم شاكراً أمراءهم وولاتهم الذين أرسلوهم للدفاع عن الإسكندرية ضد الشغب والعصيان المدني المحتمل حدوثه ، طالبًا منهم الانصياع لأوامر القائد الرومي الذي على الفور

بدأ في تقسيمهم بجميع الأماكن الحيوية بالشجر مغلقاً مداخل ومخارج الإسكندرية .



- الإسكندرية تحتقن يا سيدي .

تطلع المعلم إلى خادمه المرتعب لا يعرف كيف يهدئ من روعه ليسمعوا طرقات عظيمة على باب الدار ، فنظر الخادم بقلق وخوف ليجد المعلم نفسه هو من ذهب لفتح باب الدار ليرى من القادم ، ولم يكن سوى "أثناسيوس" الذي ظهر في حالة مزرية يرثى لها ، بينما قد نفق جواده واقعاً على الأرض .

نظر المعلم بقلق إلى مظهر تلميذه الذي تحولت عيناه إلى اللون الأحمر القاتم دافعاً يده اليمنى مسقطاً من يده السلسلة ذات الصليب الذهبي ليشاهدها المعلم ، فتيقن على الفور ما حدث ليمسك الشاب يد معلمه فاتحاً إياها واضعاً الأمانة الذهبية بها قائلاً بألم عظيم لا يوصف :

- لم تعد تحتاجها بعد ، فهي بالتراب .

ترك الشاب معلمه ليسير بغير هدى في شوارع الإسكندرية صائحاً :

- يا مدينة الدماء ، يا لعنة السماء على الأرض ، إنَّ دينونة هذا الجيل ستكون أعظم من دينونة أهل سدوم وعمورة .

خرج بعض الأهالي لرؤية ذلك الشخص الذي يهذي بمثل هذا الكلام تحت ظلام الليل الداكن ليلاحظوا شابًا في حالة مزرية راکضًا متخبطًا يتعقبه شيخٌ مسنٌ يريد أن يلحق به ومنهم من عرف المسن ، إنه المعلم الصالح الذي يطلب من الشاب التوقف والاستماع إليه بينما الآخر يجري في الطرقات طارقًا أبواب المنازل قائلاً :

- اصحوا من غفلتكم أيها السكندريون ، فإبليس حولكم كأسد زائر ملتمسًا أن يفتك بكم ، لقد فتك بزوجتي .

أبرقت السماء وأرعدت ليغطي صوت الرعد على صوت الشاب الذي حاول أن يتجاوز قوة صوت الرعد ومداه فلم يقدر ، وانهطت الأمطار بغزارة شديدة والشاب يصرخ قائلاً :

- الله أعطى ، الله أخذ ، لكنه لا يعوض ، لن يستطيع أن يعوضني عن زوجتي .

وقفت بعض العاهرات أمام أحد المنازل الخاصة بهن ناظرات إلى الشاب مبتسمات لتقول واحدة منهن :

- تعال من تحت المطر ونحن سنعوضك عن زوجتك .

اقترب منهم الشاب مبتسمًا مبتلاً ماءً من رأسه حتى أخمص قدميه ليرى أولئك العاهرات اللواتي ما أن ابتسمن حتى ظهرت أسنانهن الكالحة السواد لتبدو مناظرهن الدميمة ، فاقترب المعلم معتذرًا لهن آخذًا الشاب الذي أراح يده من عليه قائلاً :

- لماذا ساعدتني منذ البداية ؟ لِمَ لَمْ تتركني إلى مصيري المحتوم ، وَلِمَ تَمُتْ هي ؟!

أخذ الشاب في الركض حتى انزلقت قدماه في الماء لينهض بالكاد واجدًا نفسه أمام كنيسة الله فوقف برهة أمامها والبرق يضيء الصليب الموضوع أعلى الكنيسة ، فدخل إلى الداخل واقفًا أمام الهيكل المغلق مكلّمًا الله صائحًا :

- كنت أحسبك رحيماً رؤوفاً لكني اليوم اكتشفت أنّك لا تحب سوى نفسك وتكرهنا ، إنّك لا تشعر بنا ، ولا تنقذنا يا سيد .

دخل المعلم الصالح مبتلاً لاهثاً يكاد يلتقط أنفاسه بالكاد واقفًا عند باب الكنيسة الخشبي مستمعًا إلى الشاب الذي حاول خادم الكنيسة أن يتصدى له طارداً فمنعه المعلم الذي عرفه الخادم بدوره مستكيناً إلى طلبه تاركاً ذلك الشاب يهذي بكلامه السخيف ذلك من وجهة نظر الخادم ، ليكمل "أثناسيوس" حواره مع الله قائلاً :

- بالأمس البعيد أخذت مني أبي على يد الأريوسيين ، والآن أخذت مني أمي وزوجتي على يد الأريوسيين ، خذ روحي أنا أيضاً وخلصني من هذا العذاب الأرضي ، أظهر رحمة مرة واحدة إلى عبدك ، وخذ روحي .

نظر خادم الكنيسة بإشفاق إلى الشاب لما سمعه منه تاركًا الكنيسة خارجًا ، والمعلم يتابع الاستماع إلى الشاب الذي أكمل قائلاً :

- لقد عشت طيلة حياتي في أضحوكة سخيفة تدعى عناية الله ، أين هي الآن تلك العناية ؟ أنت إله قاس لا تحب سوى نفسك ، تنتقم إذا أتوا بالقرب منك أما شعبك فتتركه عرضة للمذلة والهوان ، لا أعرف هل أكرهك أم أحبك ؟

خلع الشاب عباءته ليظهر شبه عارٍ ما عدا ما يستر العورة قائلاً :

- عريانًا أتيت إلى العالم وعريانًا أريد أن أذهب منه ، خذ روحي وأرحني لأنك لن تنتقم ، أنا واثق من هذا ، فلم تنتقم لمقتل أبي وما زال قاتله حيًا يرزق يتنعم على الأرض بخيراتها ، اقتلني لأنني جبان لا أستطيع أن أقتل نفسي .

خارت قوى الشاب ساقطًا راکعًا قائلاً :

- أخرجني من هذا العالم الشرير وأنا لا أهتم بالملكوت، ألق بي في الجحيم فهو سيكون أخف وطأة وعذابًا من عالمنا .

سكت الشاب لبرهة من الوقت حيث اقترب منه المعلم راکعًا بجانبه ، ليسأله الشاب :

- لماذا فعلت معي هذا وساعدتني منذ البداية ؟

- لأنني يوماً ما أحببت فتاة آريوسية في شبابي ، لقد مررت بنفس تجربتك لكنني لم أجد يومها من يساعدني مثلما ساعدتك بل وقف الجميع ضدي ، فاخترت النصيب الصالح .
- وأين هي الآن ؟
- غادرت الثغر السكندري مع زوجها الآريوسي ، واستمرت الحياة .
- لكن عندي أنا توقفت الحياة يا معلم .
- يجب أن تتوقف الحياة وتستمر من جديد في طريق آخر .
- لكنني لا أريد أن أكمل في هذه الحياة القاسية .
- في العالم ستجد شوگا وحسگا وليس ياسمين ورياحين.
- الله قاسي وعنيد .
- ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً على الأرض .
- وأنا لا أريد السيف يا معلم ، لا أريد السيف ، لم أنشأ على تربية السيف والدم .
- لكن ثقوا .
- قاطعه الشاب قائلاً :
- أنا لم أعد أثق ، لقد فقدت الثقة .
- صمت المعلم لبرهة ثم قال :
- لقد مات "أثناسيوس روفوس" على يد الآريوسيين أيضاً .

التفت الشاب إلى معلمه باكياً في ألم رهيب فأخذه المعلم بين أحضانه لتنتهي تلك الليلة الكئيبة حيث فقد الشاب وعيه من كثرة الإجهاد الذي كان فوق طاقته .



- طاقة استيعاب الكنيسة لن تساع كل تلك الأعداد القادمة لتقديم واجب العزاء أيها الكاهن المبجل .

نظر الكاهن "ثاؤفيلس" إلى العاملين بالكنيسة الكبرى البازيليكا التي في وسط الكنيسة قائلاً :

- اسمعوا يا أبنائي ، ما أن تمتلئ الكنيسة عن آخرها ، أغلقوا الأبواب ومن لم يحالفه الحظ فليكن بالخارج ، وإذا قالوا لكم لمَ هذا ؟ قولوا لهم الأب "ثاؤفيلس" قال لنا هذا .

تطلع العاملون إلى كاهنهم باستغراب شديد لكن لا يقدر أحد أن يناقشه في ما يقول ، أضيئت أنوار الكنيسة واشتعلت المشاعل لاستقبال رفات الشهيد "أثناسيوس" الذي خرج جثمانه محمولاً على عربة ذهبية تجرها أربعة جياد قوية ، بينما تبعه ما لا يقل عن الألفين طفل من الأيتام متسربلين بالملابس البيضاء ، وهؤلاء الذين كان يسهر عليهم لخدمتهم ورعايتهم برفقة "كيرلس" ، سار الأطفال الذين اختلفت أعمارهم حاملين الشموع المنيرة محولين ليل الإسكندرية البهيم إلى ظهر منير وهم يرتلون بالقبطية لحن "غولغوثة"

الجنائزي ودموعهم تملأ أعينهم ، فارتعش قلب الإسكندرية من هول الموقف وقوته ، وخرج الأهالي أجمعهم بمختلف طوائفهم ناظرين ذلك الموكب الذي يجوب طرقات الإسكندرية والأطفال المتشحين باللون الأبيض الناصع ليبدو كالملائكة الصغيرة ينشدون لحنهم في وقار وخشوع وتعزية واضحة للعيان ، حتى أنَّ قلوب أهالي الثغر رقت دمعا مترحمين على ذلك الشاب الجميل "أثناسيوس روفیوس" ، وبدأ أهل المسيحية يرددون الألحان مع الأطفال حتى أنَّ اليهود والآريوسيين تحركت قلوبهم أمام هذا المشهد الرهيب الذي لم ترَ الإسكندرية مثله من قبل ، فحبيب الأيتام الذين تعلقوا به في مدة قصيرة جدًا تاركًا في قلوبهم ذكرى عطرة هي التي دفعتهم للسير وراء جثمانه الطاهر لينتهوا من لحنهم وينشدوا لحن "أمونوجنيس" الحزائني الجنائزي .

انتحبت النساء باكيات صارخات من شدة تأثر الأطفال لتقوم كل أم باحتضان أطفالها ، والتهب قلب كل أب شاعرًا بمرارة النفس والحسرة التي يشعر بها "روفیوس" على فراق ابنه لتشرئب الأعناق ناظرة إلى هؤلاء الأطفال الذين يسبغون في صفين منتظمين يصدحون بالألحان الجنائزية الدامعة للعيون والنافذة للقلوب على ضوء شموعهم حتى وصلوا إلى الكنيسة الكبرى ليقف الموكب الجنائزي ويبدأ الأطفال في ترتيل المزمور الثالث والعشرين (الرب راعي فلا يعوزني شيء) حتى وصلوا إلى (إن سرت في وادي ظل الموت) فتحركت عربة الجثمان لتسير في المنتصف بين صفي الأطفال

المواجهين بعضهم البعض حتى وصلت إلى باب الكنيسة لينتهي الأطفال من ترتيلهم المزمور ويحمل الرجال النعش ، وعلى باب الكنيسة وقف كل من "روفوس" والكاهن "ثاؤفيلس" وحشد غفير من أهل الإسكندرية ينوحون ويكون حتى أن "روفوس" الرابط الجأش لم يحتمل حينما رأى ابنه محمولاً على الأعناق فانهمر في البكاء صارخاً منادياً على ابنه قائلاً :

- يا ولدي الحبيب ليتني كنت أنا من مات عوضاً عنك ، مع السلامة يا أغلى ما لدي ، مع السلامة يا حبيبي ، كنت أريد أن أزفك إلى عروسك يا ولدي ، وحبيبي .
- أخذه الكاهن في أحضانه باكيًا قائلاً :
- إنه في السماء عريس ، لقد اختارته السماء عريساً لها ، لا تبك يا أخي .

دخل النعش والكل يقذفونه بالورود حتى استقر أمام الهيكل لتبدأ الصلوات بالعشية ومن ثم وعظ الكاهن "ثاؤفيلس" عن السماء وأمجادها لينتهي رفع بخور عشية استعداداً للقداس في اليوم التالي وخرج الجميع من الكنيسة وأُغْلِقَ الباب على أن يعودوا صباحاً ، وهنا انتهز "ابن كوزموس" الفرصة داخلاً من باب خلفي بمساعدة المعلم الصالح ليجلس مع صديقه بعضاً من الوقت وأفلح في أن يقف أمام النعش القائم في مواجهة الهيكل ليُقبَل ستر الهيكل أولاً ومن ثم نعش صديقه ، وساد الصمت لفترة من الوقت والمعلم واقف من بعيد مراقباً

الوقف بينما "ابن كوزموس" بدأ بالكلام قائلاً في صوت خافت :

- الظبي يا إسكندرية مقتول على شوامخك ، كيف سقط الجبابرة ؟ لا تجدوا في أسواق الثغر لئلا تفرح بنات الأريوسيين لئلا تشمت بنات اليهود .
يا بحار الإسكندرية لا يكون فيك سمك أو أي حياة لأنه هناك طُرحَ مَجْنُ الجبابرة ، مجن "أثناسيوس" بلا رحمة ، من دم القتلى ، من شحم الجبابرة ، لم ترجع ابتسامة أثناسيوس مرة أخرى ، "أثناسيوس" يا أخي المحبوب إلى قلبي ، أخف من النسور روحك وأشد من الأسود في قوتك .

ناح "ابن كوزموس" رافعاً صوته قائلاً باكياً بصوت عظيم :
- يا بنات الإسكندرية ، ابكين على "أثناسيوس" الذي أحب الجميع ولم يكره أحداً ، كيف سقط الجبابرة في وسط الحرب ؟ "أثناسيوس" على شوامخك مقتول ، كنت حلواً ومعزياً لى جداً يا أخي ، كيف سقطت الجبابرة وبادت آلات الحرب ؟

لم يحتمل المعلم تلك المراثاة فانهمرت دموعه على لحيته النازلة على جيب قميصه لتتنسحق نفسه وتنزل شيبته إلى الهاوية عند سماعه هذا الكلام الذي من القلب واضعاً عينيه على الصليب الذي فوق ستر الهيكل طالباً من الله أن يعطي عزاء للشباب صغير السن ، فأمه وزوجته أولاً ومن ثم صديقه

الوحيد بعد هذا ، أي حجر رحي علق في رقبة هذا الشاب المسكين ، إنَّه صليب عظيم يحمله سائرًا به وسط صحراء التجربة القاسية القاحلة .

ركع الشاب أمام نعش صديقه قائلاً متجهشاً بالبكاء :

- على شاطئ الإسكندرية هناك جلسنا فبكينا عندما تذكرناك يا أخي وصديقي الحبيب ، كيف نُسَبِّحُ تسبحة الرب في أرض غريبة ؟

تحامل الشاب على نفسه واقفاً مرة أخرى مواجهًا الهيكل والنعش قائلاً في ألم :

- لن نرى بعض مجدداً يا صديقي ، ولا أظن في الحياة الأخرى ، لأنني سأترك كل شيء آمنت به ، سأترك عهدنا الذي أقسمنا عليه داخل المدرسة ، أنا لست ابناً لله منذ هذا الوقت ، وداعاً يا أخي الحبيب لأنَّه لا يوجد لقاء بعد اليوم وإلى الأبد .

خرج "أثناسيوس" يعقبه المعلم منزعاً من حديث الشاب الأخير مستفسراً منه عما سيفعله فواجهه الأخير قائلاً :

- سأترك مدينة الشر ، سأترك الإسكندرية خربة لأبنائها ينتعمون بها .

- وإلى أين ستذهب ؟

- سأذهب إلى أرض المسيح لعلي أجدّه ، سأذهب إلى أورشليم حيث لا يعرفني أحدٌ ولا أعرف أحداً .

- وماذا ستفعل هناك ؟

- لا أدري ، لكنني لن أعد لأعيش في مصر كلها ،
لا أريدها .
- لكن اعلم يا بني أنك ستعود مرة أخرى إلى الثغر
السكندري لأن من خرج من المدرسة اللاهوتية يجب
أن يعود إليها .
- ابتسم الشاب متهمكاً قائلاً :
- لماذا ؟ من أجل الهناء الذي رأيته في الإسكندرية ، إنَّ
كل ما أعطته لي الإسكندرية أخذته مني عنوة .
- ولكنك ما زلت ابناً لله .
- إن كان يريدني ابناً له فليُنزل ويجلس معي متحدثاً
مظهراً لي حكمته في كل ما يحدث لي ، فأنا لست أقل
ممن يُظهر لهم ذاته ، إنني أسير في بره ومشيتته ،
وكنْتُ دائماً ما أخاف أن أفعل الخطيئة حتى لا أغضبه
لكن ذلك لم يساوٍ لديه شيئاً ، هذا هو قراري وعليه
سأسير في دربي .

تمعن المعلم في وجهه المرهق الحزين قائلاً :

- لا تسقط في خطيئة بر الذات .
- السقوط في الخطيئة الآن ليس هو مقصدنا ، فكلنا
ساقطون في خطيئة الرياء والنفاق ، نحن ننافق بعضنا
غير قادرين على إيصال المسيح إلى الشعب ، نحن
نتكلم فقط وهم يعملون في الخفاء ، إنَّ المسيحية تنفتت
وتتشئت ونحن جالسون نشاهد ، يا معلم تلك الحرب
ليست حربي ، فأنا لست رجل سلاح ولم أدرب في

المدرسة على حمل السلاح بل دُرِّبْتُ على حمل القلم والقرطاس ، لن أخوض حرباً ليست لي إنها حرب الله ، ليخضها هو .

- لنؤجل الحديث الآن وأرجوك أن تنتظر معي لما بعد جلسة التأبين .

نظر "أثناسيوس" إلى معلمه متسائلاً قائلاً :

- ماذا تخشى يا معلم ؟
- لا أعرف ، لكن أشعر بنذير شؤم وخراب سيحل على الثغر .
- أكثر من هذا ؟ لأجل كل ما قدمته لي سأنتظر معك وبعدها سأرحل .



خرج الصباح على الجميع والأهالي يتسارعون بالطرقات السكندرية للحاق بالجنائز حتى امتلأت الكنيسة عن بكرة أبيها ولا يوجد مكان لقدم ، وبدأت شعائر صلاة الجناز وأُغْلِقَ باب الكنيسة كأمر الكاهن ووقف خلقٌ عظيم بالخارج لا يعلمون سبب الإغلاق حتى أن بعضاً من الأريوسيين واليهود المسالمين الذين قَدِموا لتقديم واجب العزاء أصابهم التعجب من هذا الفعل لكنهم لم يجروا على أن يتفوهوا بكلمة ، فيكفي منظر الإسكندرية المقدسة بالجنود والعتاد الحربية والعجلات.

انتهت صلاة الجناز وهذا الوضع تمامًا ، ولا أثر لأي صوت حتى غلب صوت هياج البحر بأواجه على السامعين لفترة من الوقت ، وانفتح باب الكنيسة دفعة واحدة ليتطلع من بالخارج ناظرين إلى الداخل محاولين اكتشاف ماهية ما يحدث ثم خرجت النساء متشحة باللباس الأبيض بينما من حضر بالخارج متشحًا بالسواد والأطفال وراءهم يحملون الصنوج والدفوف والناقوس ضاربين بهم ، بينما انطلقت الزغاريد من أفواه النساء مهللة سبًا لله فذهل كل الجمع الواقف بالخارج من هذا المنظر العجيب ، لقد انقلب الحزن إلى فرح فذهب القوم إلى أن المسيحيين قد فقدوا عقولهم ، وذهب فريق آخر إلى أن المسيحيين اعتبروا ابنهم عريسًا للسماء ، وفريقًا آخر لم يهتم ماضيًا إلى حال سبيله .

ارتعشت الأنفس الواقعة من هذا المنظر الرهيب ، لتدوي أصوات الزغاريد في فضاء الإسكندرية حتى أنها وصلت إلى قصر الوالي الذي انتفض بشدة من على عرشه وسقط كأس الخمر من يده ظنًا منه أنها صيحات الحرب ، فهذا القائد الرومي من روعه مؤكدًا له أنه يسيطر على كل شيء .

خرج الرجال حاملين النعش رافعين إياه في الهواء قاذفين به متهللين بالروح وهم يرددون أشعارًا قد نظمها الشماس "كيرلس" قائلين بفرح وابتهاج :

- السماء ليست ببعيد .
- ونحن نرف الشهيـد .
- افرحوا فالـيوم عيد .
- الله مبتهـج وسعيد .
- باستقبال ابنه الشهيـد .

أثرت الكلمات في نفوس الحاضرين فظلوا يرددون تلك الكلمات ، بينما وقف الشاب "أثناسيوس" على سطح الكنيسة مراقبًا الموكب وهو يتحرك ودموعه تنساب في صمت على وجنتيه ، ومن بعيد وقف "سيزار" يحتفل بانتصاره مع ابن عمه "مركيان" فقد تخلصا من كل أعدائهما وتبقى واحدًا ، غدًا ستكون نهايته ، ليلتفت "مركيان" إلى ابن عمه قائلاً :

- ماذا تظن سيفعلون يا "سيزار" ؟

ارتشف "سيزار" جرعة من الخمر وهواء الإسكندرية يلفح وجهه بينما هما واقفين فوق سطح كنيسة تابعة لهما ليقول مبتسمًا :

- لا شيء ، إنهم جناء وفي جميع المعارك التي وقعنا بها أمامهم حصدنا منهم أرواحًا كثيرة وها هو صديقنا "ابن روفوريوس" ذاهبًا إلى قبره متعفنًا .
- للأسف لن يتعفن إنَّ أباه قد حنطه .
- ذكرني فيما بعد أن نحرق مقابرهم .

فابتسم "مركيان" مرتشفًا خمره .



دُفن الشهيد "أثناسيوس" بمقابر والده الفخمة الرخامية بمجد وإكرام لائق وتفرق الجميع مقدمين التعازي الحارة إلى والده الذي طلب من رجاله الذهاب وتركه وحيداً فأبوا في البداية ومع إلحاحه الشديد ذهبوا إلى حالهم أيضاً فاختلفوا به الكاهن "ثاؤفيلس" طالباً منه "روفيوس" أن يباركه لأنَّ الوقت قريب فباركه وأعطاه سر الاعتراف وجلس "روفيوس" وحيداً بداره بينما غادر الكاهن وباب الدار مفتوحاً وهو في انتظار الشيطان .

أعطى القائد الرومي أوامره إلى كتيبة جنوده بالتحرك والقبض على السيد "روفيوس" مشدداً على أن من يعترضهم يعتقلوه بدون رحمة أو شفقة وبالفعل اتجهت الكتيبة الضخمة من الجنود الرومان الأشداء البأس في السير بقوة وعزم مدججين بالدروع الحربية الحديدية متجهين إلى دار "روفيوس" وكل من يشاهدهم من أهل الثغر يتحسر على هذا الحال الرديء ، فهم يبدون وكأنهم ذاهبون للقبض على مجرم خطير معتاد الإجرام أو زعيم عصابة ، وليس رجل مكلوم دافئاً ابنه منذ قليل وهو من أثرياء المدينة يشتهر بالفضل والتقوى ، أهكذا يكون جزاء البار تاركين الأثيم يمرح تحت السماء ؟

أخذ الجنود يسيرون وهم يضربون أقدامهم بالأرض بقوة حتى يرهبوا من حولهم بينما أخذ بعض منهم يضرب سيفه على درعه ليذب الخوف والرعب من جراء تلك الأفعال العسكرية التي اعتاد الجنود على فعلها عند ذهابهم للقبض

على أحد المتعبين الأشقياء ، واستمروا هكذا حتى وصلوا إلى دار "روفيوس" وما أن دخل القائد الدار حتى وجد رجلهم جالساً بانتظارهم وعلى وجهه ابتسامة هادئة حتى أن قائد الكتيبة شك أن يكون هذا هو الرجل المطلوب فقال له بقوة :

- هل أنت السيد "روفيوس" ؟

أجاب الرجل بثقة وحزم :

- نعم ، أنا هو .

أشار القائد إلى جنوده قائلاً :

- اقبضوا عليه .

فتكالب الجنود على "روفيوس" ، وكشاة سبقت إلى الذبح اقتادوه مكبلاً بالأغلال الحديدية في يديه سائرين به في شوارع وطرق الإسكندرية قاصدين إذلاله أمام جميع الشعب السكندري الذي ناح والتهبت نفسه غيظاً وغضباً حتى أن أحد رجال "روفيوس" حاول التدخل بسيفه وإنقاذ سيده إلا أن آخر منعه مذكراً إياه بنصائح السيد والكاهن "ثاؤفيلس" بعدم التعرض لأحد حتى يأذن الله .

بكى الرجل الأول عاجزاً عن فعل شيء مشاهداً سيده وهم يقتادونه كالبهيمة ، ولا مانع من تحرش الأريوسيين الأنذال واليهود الخونة والوثنيين الذين أخذوا يشتمونه ويبصقون عليه بينما هم شاب أريوسي بأخذ أحجار وقذفها على "روفيوس" مما أصابه تحت عينه بكدمات فنزفت جبهته والجنود يمنعون بميوعة وسخافة الشعب من الاحتكاك بهم حتى لا يقعوا تحت طائلة التعدي على السلطات الرومانية .

اقتربت منه الراهبة الوثنية صاحبة "أنطونيوس" باصقة على وجهه أولاً ثم أخذت وعاءً فخارياً ممتلئاً ببول البهائم لتقذفه في وجهه فضحك بعض الجنود بينما زجرها قائد الكتيبة أمراً إياها بالابتعاد وهي تصرخ قائلة :

- هذه لعنة الإله سيرابيس الذي حرقت معبده أيها الفاجر الفاسق "روفيوس" .

ضحك الجنود وبعض أهالي النجر ، بينما أبناء الإيمان القويم يئنون صارخين داخل صدورهم طالبين الانتقام والقصاص لكن لا يسمع لهم أحدٌ حتى أنه شعر بعضهم بأن السماء أغلقت أبوابها وأنه لا رجاء تحت السماء .

وصل الجمع إلى سجن القلعة الحربية السكندرية واجدين في استقبالهم القائد الرومي الذي رمقه "روفيوس" فتحدث إليه الآخر قائلاً في شفقة مصطنعة :

- ألم يكن من الأفضل احتراماً لشيبتك وهيبتك أن تهرب ؟

لم يجبه "روفيوس" بل ظل محملاً بوجهه بنظرات قاسية جعلت الآخر يستطرد مكملاً :

- حزين أنا على ما يحدث لك ، أتريد أن تهرب ؟ يمكن أن أساعدك .

قال "روفيوس" بصوت جهوري عميق :

- لقد وُلدت أسداً مرقسياً لا يهرب من المعارك .

ابتسم الرومي قائلاً لقائد الكتيبة :

- خذ "السيد روفئوس" سابقًا ، السجن المذنب حاليًا إلى دهاليز سجن القلعة ليسجن بمفرده في الزنزانة الملعونة .

فاقتاد قائد الكتيبة السجن إلى مصيره .



- مصير الإسكندرية معلق على ما سيحدث غدًا ، أرجو أن لا يحدث شيء يهدم كل ما خططنا له .

قال أحد الرجال حديثه هذا إلى "كيرلس" وهم واقفين بأحد جوانب الشاطئ السكندري الخفية بعيدًا عن أعين الجنود الرومان وهذه البقعة لا يعلمها سوى السكندريون المحنكون بدروبها وشُعَبِها وساحلها ، فهي تعريجة بآخر الساحل السكندري تتطلب مهارات للإبحار فيها ، و "كيرلس" يمتد بصره إلى الأفق البعيد بالبحر والآخر يقول له :

- أواثق بأنهم سيصلون ؟
- نعم ، تمام الثقة ، فهم رجال شجعان ، إخوان أوفياء في الإيمان المستقيم .

انطلقت إشارة نارية ضوئية قادمة من عمق البحر فلمحها أحد الرجال منادياً على "كيرلس" الذي لمحها بدوره أمراً الرجال بالزحف بقواربهم إلى الثلاث سفن الضخمة المحملة بالرجال ، رجال بحر "إيجة" القادمين من الجبل المقدس لمساعدة

إخوانهم السكندريين ، ولم يمض وقت حتى سبحت عشرات القوارب تحت ستار الليل لتأتي بما تحمله السفن من رجال وعتاد مفضلين أن لا تدخل تلك السفن إلى ميناء الإسكندرية محتكة بالسلطات الرومانية .

وصل أول فوج من القوارب فقفز شاب يافع مفتول العضلات إغريقي الملامح ، حاد القسمات ، عريض المنكبين ، رفيع الجسم متقدماً إلى "كيرلس" قائلاً باللغة اليونانية الخالصة :

- التحية من أبناء مقدونيا إلى رجال الإسكندرية أبناء البابا "أثناسيوس" ، أنا أدعى "أثناسيوس المقدوني" مُرسلاً من قِبَل السيد "نكتاريوس المقدوني" ومعني ألفان من الرجال المدربين على حمل السلاح ، وغداً عصيان شعبي في كل جزر اليونان احتجاجاً على أفعال الأريوسيين والوثنيين .

اقترب "كيرلس" منه أكثر وأكثر مصافحاً إياه حاضناً قائلاً :
- أهلاً بك في بلدك الإسكندرية .

انتهى إفراغ السفن ليعود الجميع من الأنفاق السرية المحفورة تحت أراضي الثغر السكندري منذ أيام الاضطهاد الوثني حيث قام الأجداد المسيحيون بحفرها للهروب منها وقت شدة التعذيب والاضطهادات الوثنية وقتها وقد نسيها كثيرون لعدم احتياجهم لها بعد أن أصبحت المسيحية من الديانات الرسمية للدولة الرومانية غير متخيلين أن يأتي يوم وتعود تلك الأنفاق للعمل ، والفضل تلك المرة للأريوسيين .

لاح الصباح كئيبيًا والسماء ملبدة بالغيوم تنذر بالشر الرهيب الدفين تحت غيومها بالثغر السكندري ، والبحر يزأر بأمواجه العاتية كاسرًا شوكة الإنسان الذي يخشى أن يقترب منه الآن فنظر المعلم من فوق سطح المدرسة وقلبه ينبض بخفوت ، والهواء يكاد يطير به من فوق السطح وهو متأملًا تارة البحر الهائج وتارة أخرى الكلوزيوم السكندري الذي تحركت الوفود إليه استعدادًا لجلسة التأبين ، ومن الملاحظ أنه لا يوجد نساء في تلك الأعداد بل كلهم رجال ولا مكان للشيوخ والأطفال ، مما جعل المعلم تتأكد شكوكه ليخرجه أحد العاملين من صمته هذا قائلاً له :

- لقد فعلنا كما أمرت يا معلم ، أخلينا المدرسة من كل المكاتب الخشبية وأدوات الدراسة وافترشنا الأرض بالملاءات البيضاء ، وقد استعد كل طلبة المدرسة والأساتذة وهناك أكثر من عشرين طبيبًا متطوعين للعمل على الفور .

تمعن المعلم في وجه العامل قائلاً في هدوء حذر :

- الله يفعل الصالح ، قل لهم أن يصلوا طالبين المساعدة من الله .

اكتظ الكلوزيوم الواقع بوسط المدينة بالآلاف من البشر ، والكلوزيوم السكندري هو المكان الذي سمي هكذا تيمناً بنظيره الروماني بروما ولكنه مصغر عن الآخر ، هو مكان للاحتفالات والشعائر الدينية الوثنية فيما سبق كما أنه استخدم ساحة لتعذيب المسيحيين على أيدي الوثنيين ، وكم تلطخت

حلبته بدماء الأبرياء الشهداء على أيدي المصارعين والقتلى
أو فريسة سهلة للحيوانات المتوحشة ، والآن بعد أن استتب
الأمر للمسيحيين أصبح المسرح الروماني ما هو إلا مكاناً
لإقامة الشعائر الدينية الضخمة المسيحية والاحتفالات أو
مكاناً للقاء الوالي بالشعب إذا دعت الضرورة .

جلس جميع الشعب بمدرجات الكلوزيوم شبه الدائري
والأعداد تتوافد وتكثر من كل حذب وصوب بالثغر ، وظهر
شيء عجيب للجنود الرومان الذين أحاطوا بالمسرح من كل
الجهات ، وكان الشيء المثير للعجب ظهور رجال كثيرين
ليسوا سكندريين بل من فينيقية وأفسس وطرسوس ومقدونيا
حتى أن القائد الرومي شك في أن يكون هؤلاء الرجال قد
تسللوا إلى الثغر لأغراض مريبة فأوقف بعضهم معتقلاً إياهم
كنوع من أنواع الترهيب فقط فهو لا يوجد عنده أماكن كافية
لاعتقال الجميع .



- الجميع يبعثون لك السلام يا سيد "روفوس" .

قال الكاهن "ثاؤفيلس" كلامه هذا إلى "روفوس" بعد أن
ناوله من الأسرار المقدسة ، والجنود يحاولون الاستماع إلى
همسهم ، والكاهن يهمس في حذر قائلاً :
- عند انطلاق الأجراس استعد للرحيل .

أوما "روفيوس" برأسه بعلامة الإيجاب ليذهب الكاهن شاكرًا الجنود على السماح له بإعطاء التناول المقدس إلى ابنه "روفيوس".

أخذ الكاهن على عاتقه قيادة الثورة في ذلك اليوم متجهًا إلى المسرح الروماني واجدًا الجميع قد اصطفوا في أماكنهم ، ولم يعد هناك مكان لقدم ، والجنود الرومان بعجلاتهم الحربية يحيطون المكان كله مضيقين الخناق على الجميع .

صعد الكاهن إلى المقصورة الرئيسية التي كانت يومًا ما مكانا لمجلس الأباطرة الرومان أمثال "دقلديانوس" و"مكسيميانوس" وغيرهم من الوثنيين الذين أذاقوا المسيحيين الويلات وأبشع العذابات من هذا المكان الذي تحول لساحة المعركة المسيحية . لمح الكاهن المعلم الصالح بجانبه الشاب "أثناسيوس" وفي الجانب الآخر لفيف من أساتذة وعلماء مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وكبار رجال الدين من أساقفة أجلاء وكهنة أفاضل وبينهم "كيرلس" الذي اقترب من خاله قائلاً :

- لقد فوضك الآباء الأساقفة والكهنة بإلقاء كلمة التأيين .

أوما "ثاوفيلس" برأسه محيياً الآباء الأساقفة والكهنة بتحية مسيحية روحية ومن ثم حيًا أساتذة المدرسة وعلى رأسهم المعلم الصالح راميًا الشاب الصغير الحزين الجالس على يمين المعلم صامتًا .

وقف "ثاوفيلس" على المنصة الملكية رافعًا يده إلى الشعب مهددًا إياه ، فصمتت الهمهمات العالية وساد الصمت العميق

ليغمض "ثاؤفيلس" عينيه محاولاً الصلاة إلى الله لمدة دقيقة طالباً أن يعطيه المعونة والقدرة في ذلك اليوم ليتمتم قائلاً :

- يا أبتاه ، إن شئت فلتعبر عني هذه الكأس ، لكن لتكن كإرادتك وليس كإرادتي .

ارتفع صوت البحر العاتي وانطلق الهواء من مكانه الأربعة في وجه الكاهن مما أعطاه قوة ليصيح في الجمع الجالس قائلاً ويرن صوته داخل المسرح :

- إخواني وأبنائي المسيحيون .

صمت قليلاً وقد ارتج المكان من صوته الجمهوري القوي ودب الخوف في قلوب الجنود الرومان وعلى رأسهم القائد الرومي ولا يدرون السبب ، بينما على مقربة من كل هذا انتصب "سيزار" في مجمع الفلاسفة ومعه شعب كثير من الأريوسيين واليهود والوثنيين مخاطباً فيهم على غرار ما يفعله المسيحيون ليقول صارخاً :

- أحبائي وأبنائي اليهود والوثنيون والشعب الأريوسي .

ثاؤفيلس :

- اجتمعنا اليوم بنفس واحدة لتأبين أخينا الشهيد الراحل "أثناسيوس روفيوس" عريس السماء السكندري .

صمت الكاهن بينما انطلق الشعب الغفير الحاضر بالنشيد الذي نظمه "كيرلس" حتى انتهوا منه وساد الصمت من جديد.

سيزار :

- لن نسمح بأن نُهان أو نضطهد بل هم الذين سيدفعون الثمن غالبًا جدًا .

ثاؤفيلس :

- ظنوا أنه لا يوجد غيرهم في الثغر السكندري متنأسين أننا أصل تلك البلاد ، نحن أصحاب الأرض وهم الضيوف .

سيزار :

- سنحتل الكرسي السكندري ، ووقتها لن يكون هناك فرق بين أريوسى ووثني ويهودي ، كلنا واحد ، أما هم فيجب أن يبادوا .

ثاؤفيلس :

- يا أبناء الإسكندرية ، أيها المسيحيون الشرفاء إنَّ اليوم يوم نقمة للرب الإله ، تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار وليقم الله وليتبدد جميع أعدائه .

سيزار :

- هم أعداؤنا اللداد ، ويجب القضاء عليهم نهائيًا وإلى الأبد ، لأنَّ من معنا أقوى ممن علينا .

ثاؤفيلس :

- بالبحري هم يحسبون أنفسهم أولاد الله لكني أقول لهم إنَّكم أولاد الخطيئة واللعنة ، أولاد الأنبياء الكذبة والمضللين ، أنتم هراطقة أبناء هراطقة .

هتف الشعب المسيحي بالهتاف بحياة الكاهن ، بينما رفع "سيزار" يده في الجهة الأخرى مهدئاً الجمع الذي أمامه مكماً حديثه قائلاً :

- حاولنا التعايش السلمي معهم الذين يظنون أنهم شعب الله المختار الجديد ناسين أن إخواننا اليهود هم من نالوا هذا الشرف السمائي .

ظهر التأثير الشديد على وجه "مناحم" وابنته وابنه ، ومعشر اليهود الحاضرين ليكمل "ثاؤفيلس" حديثه صارخاً :

- هلم نبني السور ولا نكون بعد عاراً ، نحن من تهاوننا في حقوقنا ، نحن من جعلنا أبناء الجواري يختلطون بأبناء الأحرار ناسين أنه لا شركة لابن الجارية مع ابن الحرة ، نحن من سمحنا لأحفاد أبناء الأفاعي بالتواجد وسطنا ، نحن من أعطينا لعابدي الوثن الزناة آكلي لحوم البشر مكاناً للعيش في وسطنا ، الحق أقول لكم إنه ستكون لنا دينونة عظيمة إذا لم نُخرج هؤلاء الكفرة الزنادقة ، الهراطقة خارج المحلة .

انتفض المقدوني صائحاً باليونانية الخالصة والهواء يطير شعره وعباءته البيضاء القصيرة قائلاً بصوت جهوري :

- حي هو الرب إله الجنود ، ومبارك أنت أيها الكاهن الشجاع "ثاؤفيلس" .

هتف آخر من فينيقية قائلاً :

- تشددوا وتشجعوا أيها الإخوة ، فالله معنا والكاهن "ثاؤفيلس" المطرقة بيننا .

هذا "سيزار" الجانب اليهودي الذي هتف باسمه قائلاً :

- لا أريد شعارات جوفاء مثل ما يفعل المسيحيون الأغبياء ، إنهم ليس لديهم سوى الكلام فقط ونحن نريد أن نكون رجال أفعال لا أقوال يا سادة ، يجب أن نرميهم في البحر العظيم مخلصين الثغر السكندري من شرورهم وآثامهم الفظيعة التي فعلوها بنا .

ثم اتجه إلى الراهبة الوثنية التي ظهر على وجهها الغضب الشديد مقترباً منها قائلاً بعطف وحنان مصطنع مديراً وجهها ناحية الجمع صارخاً :

- من سيعوض جميلة الجميلات عن وجهها المحترق ، أين ضمانتكم وقلوبكم أيها السكندريون ؟

صاح الجمع بشدة بينما هتف "ثاوفيلس" قائلاً :

- إن الحرق لا يكفي ، التدمير لا يكفي ، التتكيل بهم لا يكفي ، إنهم يجب أن يختفوا من على وجه الأرض تماماً واليوم أعلنها من مكاني هذا إن الحرية المسيحية قادمة وبقوة مكتسحة قوات الشر بالعالم كله فنحن الآن على قلب رجل واحد ، فليست الإسكندرية فقط الثائرة بل أبشروا يا شعب المسيح وهللوا فرحاً فإخوانكم في أنطاكية وفينيقية والقيروان ، رومية ومقدونيا ، أفسس وطرسوس ، أورشليم وفلسطين ، القسطنطينية وروما الصغيرة ، وبلاد غالية ، وكثير من المؤمنين حول العالم

ينتفضون على الآريوسيين وأتباعهم في جميع أنحاء
الإمبراطورية الرومانية والتوقيع باسم "أثناسيوس".
صرخ جميع الحاضرين قائلين باليونانية :
- نؤمن بإله واحد ، الله الأب ضابط الكل .

وهكذا بدأوا ينشدون قائلين قانون الإيمان النيقاوي لوضعه
البابا "أثناسيوس" السكندري حتى وصلت أصوات هدير
الإيمان الجارف إلى مسامع المحفل الآريوسي فابتسم
"سيزار" قائلاً :

- ها هم ينعمون كالبعير بقانون الإيمان المزيف ،
لا أعرف كيف سيتقبلهم الله بعد أن شوها صورته
ومزقوه إربًا ، حاشا لله .
ابتسم الحاضرون مصفقين لفصاحة الشاب ، بينما على
النقيض الآخر أكمل "ثاوفيلس" قائلاً :

- ولا أجد فرقًا يا إخواني بين "أثناسيوس الأمس"
و"أثناسيوس اليوم" الذي اجتمعنا على ذكره ، فالبابا
أثناسيوس وقف بكل قوته الروحية اللاهوتية أمام
الهراطقة واليوم لا أرى سوى أثناسيوس جديد ضحى
بكل غالٍ ونفيس حتى ضحى بحياته من أجل أن يهبنا
الحرية لنجتمع اليوم على تلك الشعلة الموقدة بالإيمان
من جميع أنحاء المسكونة المسيحية وإذا قد ذهب
أثناسيوس مستشهدًا فكلنا اليوم أثناسيوس وفي سبيل
الاستشهاد .

صاح أحد الجالسين أمام "سيزار" قائلاً :

- وثني ، آريوسي ، يهودي ، كلنا يد واحدة ضد الطغيان .

صفق الجميع مهللين بهذا الاتحاد الجديد ليقول "سيزار" :

- إنني أرى المستقبل القريب حينما سيحب الآريوسي اليهودية متزوجاً بها والوثنية تعشق الآريوسي مكونة عائلة معه لتتحد الدماء المقدسة بعضها ببعض داخل الإسكندرية مستولين على الساحل السكندري كله قاذفين بالمسيحيين أصحاب الإيمان القويم إلى البحر .

صفق شعب الكلوزيوم إلى "ثاؤفيلس" فأكمل قائلاً :

- سنجعلهم طعاماً للأسماك في البحر السكندري لكني أخاف أن يسمموا تلك الأسماك بأفكارهم النجسة الهرطوقية فيصبح السمك آريوسي الجنس مثلهم .

صاح أحد الرجال السكندريين قائلاً :

- فلندفنهم أحياء على رمال الشاطئ .

لم يعجب المعلم الصالح هذا الأسلوب في الحديث المشحون فانسحب تابعاً إياه "ابن كوزموس" حيث رمقهم "كيرلس" متابعاً إياهم ببصره ومن ثم اتجه إليهم وهم في طريق الخروج منادياً على المعلم قائلاً :

- ادعُ لنا بالنصر من الله .

تمعن المعلم فيه ملياً قائلاً :

- لطالما علمتك يا "كيرلس" نبذ العنف ، إنني أنتظركم في المدرسة .

ترك المعلم كل هذا وراءه أخذًا الشاب معه عائداً إلى المدرسة معتلياً السطح مراقباً الموقف ، ولموقع المدرسة الحيوي الذي يكشف العديد من جوانب الإسكندرية قام المعلم بمتابعة الموقف عن كثب معطيًا أوامره إلى العاملين بالمدرسة وبعض الطلبة بالزود والدفاع عن المدرسة إذا حاول الغوغاء والرعاع اقتحامها وإحراقها ، وانتصف اليوم الكئيب ودقت أجراس الكنائس جميعها في غير ميعادها مما جعل جياد الحرس الروماني تقفز في الهواء صاهلة ملقية بمن عليها ، مما سبب ارتباكاً مؤقتاً بين صفوف جنود الرومان .

رمق المعلم سماء الإسكندرية بعينين ثاقبتين لسمع صوتاً يشبه أصوات الرعود قادماً من ناحية الكلوزيوم لجموع تهتف ضد الآريوسيين والوثنيين واليهود مطالبين بتحرير الشجر السكندري ، وفي الجهة المقابلة رأى المعلم جموعاً غفيرة يتقدمها جماعة آريوسية ويهودية ووثنية حاملين سيوفهم والحرا ب والخناجر ، واللافت للنظر أنَّ الجيش الروماني يحيط بالمسيحيين مضيقاً الخناق عليهم بينما ترك الفريق المضاد حرّاً طليقاً فأخذوا في التحرش بالمسيحيين العزل وإشعال المنازل وهتك أعراض النساء واغتصابهم سالبين بكورية الفتيات العذراوات ، بينما الخناق ما زال مستمراً في اتجاه المسرح الروماني حتى أخرج الرجال من الداخل جميع الأسلحة التي بالدهاليز التي لا يعلم عنها القائد الرومي شيئاً ،

واندفعت الجموع كموج البحر كاسرين الحاجز البشري من الجنود الرومان واجدين أمامهم صفًا ضخمًا من العجلات الحربية المستعدة للاشتباك وقد خرجت أسنان مدببة حديدية بكل عجلة حربية مثبتة على العجل الخشبي بحيث تطحن وتحصد باترة أقدام الجميع ، توقف السكندريون وشركاؤهم في الخدمة الرسولية القادمون لمساعدتهم مراقبين الموقف لينتقدم القائد الرومي قائلاً :

- كفي عبثاً أيها الشعب السكندري ، ارجعوا إلى بيوتكم، إلى نساءكم ، إلى أطفالكم وإلا من سيكسر نظام السلطات الرومانية سيعرض نفسه إلى الاعتقال والضرب على يده بعضاً من حديد .

صمت الرومي بينما لم يتحرك أحد من مكانه قط ثابتين غير متزعزعين ، فخرج "كيرلس" من وسط الجمع قائلاً بصوت جهوري :

- بالقطع انقطع ماء البحر وفرعون وجنوده ومركباته غرقوا ، إنهم يريدون منا الرحيل ، وأنا أعدكم بأن ترحلوا أنتم من عالمنا .. أيها السكندريون ، اليوم العالم المسيحي الحر لنا .

ولم يفهم مغزى هذا الكلام سوى المطلع عليه ففي هذه الساعة انتفض العالم المسيحي ثائراً على الأريوسيين والوثنيين حتى اهتز عرش الإمبراطور "قسطنطين الكبير" الراحل الجالس عليه الإمبراطور "ثيودسيوس" لتنتقل أجراس الكنائس في نفس الميعاد المتفق عليه وتخرج جموع الشعوب في محافل

الكراسي الرسولية متظاهرين ، بينما في الإسكندرية قرر الرجال مواجهة العجلات الحربية وجهاً لوجه أي مصافحين الموت الحتمي .

ركضت الجموع في اتجاه المركبات بينما الرومي يتابع ببصره حتى أصبح الموقف ساخناً متأزماً ، فأمر العجلات بالتحرك وبالفعل ألهب الجنود بالسياط ظهور الجياد لتسهل بقوة راكضة في اتجاه الجموع التي التحمت بالمركبات الباترة الأقدام قاطعة شرايين الحياة لتطير الأطراف الأدمية في الهواء ، بينما وقف شابٌ بعلم أحمر فوق أعلى قمة بالكلوزيوم ليراه الجميع فقام الجمع بفتح ثغرة في جدارهم البشري لتعبر المركبات واجدين أنفسهم قد انغرسوا في الأرض الغارقة بالزيت الذي أفرغه على الأرض الجموع الخلفية ، ولم تقدر المركبات أن تخرج من هذه المحنة لينقض عليهم المسيحيون صائحين صيحات قتالية جبارة ، وامتلات السماء بالطيور الجارحة التي حطت على الضحايا ملتهمة في صمت ، اندفعت الموجة الثانية مندفعة من المسرح والثالثة والرابعة ليعطى الرومي أوامره لرماة الأسهم برمي أسهمهم فحصدت أرواحاً كثيرة ، وبدأ المصابون يكثرون من جانب واحد فقط ليعطي "كيرلس" أوامره إلى رجاله بحمل المصابين والذهاب بهم إلى ساحة المدرسة اللاهوتية لتلقي العلاج اللازم ومساعدتهم ، وحدث لتمتلي ساحة المدرسة بالمئات من المصابين ويخرج "أثناسيوس كوزموس" حاملاً الجرحى والمرضى وملابسه كلها قد تلطخت بالدماء يساعده

في ذلك كل طلاب المدرسة والعاملون بها ، والأطباء بالداخل يحاولون فعل ما في استطاعتهم من ترقيع الأجساد ووقف نزيف الدماء حتى غرقت ساحة المدرسة بالدماء ، فقام بعض من الطلبة بمسحها بالماء ، وانفتحت الأروقة الدراسية لاستيعاب أعداد المصابين التي لم تنتهي في ذلك اليوم فهم كالسيل الجارف ، بينما جماعة الآريوسيين يلهون تخريباً ومتعة في بقية الإسكندرية لا يواجههم سوى أقليات مسلحة ولكن غير مدربة فيفتك بهم الأعداء عن طريق رجالهم الأفارقة ضخام الجثة .

لم يستطع المسيحيون أن يعبروا محيط الكلوزيوم مخترقين شوارع الشجر بسبب قوة الاستحكامات التي وضعها القائد الرومي الذي شعر أنه في نزهة حربية ، والأسهم الرومانية تطير في الهواء حاصدة السكندريين وحلفاءهم ، تراجع الكثير إلى الكلوزيوم مرة أخرى بعد أن تركوا مصابين وجرحى كثيرين ملقين على أراضي الإسكندرية .



انطلق صوت بوق عظيم جداً مخترقاً سماء الإسكندرية فسمعه الجميع بلا استثناء ، خرج هذا الصوت العظيم ثلاث مرات متتالية مما جعل جسد المعلم يقشعر مشاهداً من أعلى سطح المدرسة متذكراً ذلك الصوت جيداً متعجباً أنه قد انطلق مجدداً بعد كل هذا الزمن ، إنه بوق المصارع الأبكى ، تطلع المعلم يميناً ويساراً لعله يهتدي إلى صاحب صوت البوق

لينطلق صوت قوي جبار لجوقة مرتلين تنشد المزمور الواحد والتسعين (الساكن في ستر العلى) على دقائق طبول الحرب فارتعد القائد الرومي غير متخيل من يكون هؤلاء القادمون من ناحية صحراء الإسكندرية الداخلية ، وفجأة وعلى حين غرة انطلقت أسهم مشتعلة بالنيران راشقة في أجساد الجنود الرومان وتلك الأسهم بها ما يميزها حيث في آخرها علامة الصليب الخشبية ، أنت الأسهم من نفس الاتجاه القادم منه الصوت المرعب الذي استوقف الأريوسيين وحلفاءهم عن الهجوم العشوائي متحدين من جديد ليروا من القادم وإذ بثلاث مجموعات حربية مكونة من عشر فرق قوام كل فريق ثلاثمائة رجل مدججين بالسلاح ضخام الأجساد ، يتقدمهم حاملو الصلبان فاننفض القائد الرومي مرتعباً ، لقد عرفهم أو بالكاد سمع عنهم لكن لم يحتك بهم ، إنهم كالأساطير في جميع ربوع مصر ، إنها أول مرة يدخلون فيها إلى المدينة ، فأعطى القائد أوامره إلى جنوده بالتوقف عن القتال حتى يكتشفوا جلياً تعداد القادمين وقوتهم الضاربة خاصة بعد أن خسر الكثير من عجلاته الحربية .

وقف بعض من الرجال على هضبة عالية تكشف جزءاً كبيراً من الثغر محيطين بثلاثة رجال لم يكونوا سوى المصارع الأبكى رئيس جماعة "الأسد المرقسي" ، وآخر ضخمة الجثة قمحي اللون صاحب جماعة "الثيوطوكوس" ، وآخر لا يقل عنهم قوة هو رئيس جماعة "البانطوكراطور" وكلهم يراقبون

الموقف دافعين برجالهم للزود والدفاع عن المؤمنين المسيحيين وكسر شوكة الأريوسيين والرومان المتغطرسين. وبالفعل اصطفت الميمنة والمسيرة وفي الوسط جماعة "الأسد المرقسي" هاتفين قائلين بصوت جهوري بعد أن أنهاوا مزموهم :

- الله الواحد ، البابا تيموثاؤس ، الإسكندرية .

وانطلقت صيحة قتالية لتهجم تلك الأجساد شبه البشرية على الجنود الرومان طاحنة إياهم ، فهؤلاء رجال حرب يعرفون التكنيك العسكري ، تلقوا تدريباتهم على يد المصارع الأبطال الذي ما أن اتحد رجاله حتى زار بصوت عظيم فارتجت أربع أركان مدينة الإسكندرية وتشجع المؤمنون مساعدين الثلاث جماعات الضاربة ، فاضطر القائد الرومي للتقهقر إلى الوراء نوعاً ما بعد فتح ثغرة في جداره العازل من الجنود الرومان فقرر أن يستخدم الجنود القادمين للمساعدة فدفع بهم وما منهم إلا أن أطلقوا الحيوانات المفترسة التي جلبوها معهم من بلادهم الأفريقية الصحراوية بعد أن قاموا بتجويعهم فركضت النمر والفهود والأسود على المسيحيين ناهشة لحومهم فاتكة بأجسادهم ، مذكرة إياهم بالاضطهادات الوحشية الوثنية ، فتجمعت الثلاث فرق خارجاً منهم رجال بشباك قاذفين بها على الوحوش محاولين اصطليدها ، وأفلحت تلك الخدعة فانتهى أمر تواجد الوحوش من ساحة المعركة إما أسراً أو ذبحاً حتى عبر فهد متجهاً صوب المصارع الأبطال الذي خرج عليه صارخاً مما جعل الفهد يتراجع خوفاً نوعاً ما لا يدري

ما الذي يقف أمامه ، أبشري أم غير بشري ؟ من سيأكل من؟ ولم يدع المصارع الشيخ فرصة بل تقدم ناحية الفهد واضعاً يديه بين فكيه ليشقه نصفين رافعاً إياه في الهواء فوقعت صاعقة على رأس القائد الرومي بينما المسيحيون صرخوا قائلين :

- من الجافي حلاوة .

وهجموا هجمة رجل واحد على الجنود الرومان الذين بدأوا يتراجعون رويداً رويداً فدفع الرومي براكبي الخيل الذين بلغ عددهم الألفين ، ولم يكن المسيحيون يمتلكون خيلاً كثيراً فاستطاع فرسان الرومان خلق نوع من أنواع التراجع للمسيحيين ، بينما الثلاث فرق تحاول جاهدة استخدام كل تعاليم الأبكم في الإيقاع بهؤلاء الفرسان ، وبالفعل أفلحوا مع البعض ولم يستطعوا مع الآخرين المندفعين بجنون عظيم حاصدين الأرواح بسيوفهم الحادة وحرابهم الطويلة ذات النهايات الحديدية المدببة ، وانقلب الميزان إلى صالح الجنود الفرسان ، فخرج أهل الإسكندرية النساء من فوق أسطح المنازل ملقين المياه الساخنة والزيت المغلي على الفرسان موقعين إياهم في أيدي رجالهن فتدخل جنود المشاة واقتحموا منازل السكندريين واعتلوا الأسطح للرمي بهؤلاء النسوة من فوق الأسطح فجن جنون رجال الإسكندرية هاجمين بضراوة مدافعين عن أمهاتهم اللاتي أَرْضَعْنَهُنَّ الإيمان القويم من صدورهن ، وزوجاتهم اللاتي ارتبطن بهن على مذهب الإيمان القويم الأرثوذكسي ولن يسمحوا لهؤلاء السفاحين أن

يقتلوهن غدراً وعدواناً ولكن كانت الغلبة والكثرة للأعداء حيث انضم إليهم الآريوسيون وحلفاؤهم واكتملت منظومة الطحن القتالي ، والمعلم يشاهد كل هذا مراقباً من سطح المدرسة وقلبه يعتصر ألماً ودموعه لا تتوقف مصلياً إلى الله أن يقوم في وسط شعبه ، فما يراه لا يبشر بالخير لأن من علينا أقوى منا ومعهم رجال مدربون بضراوة حتى أن الثلاث فرق الدفاعية بدأت تفقد السيطرة على القتال ، والجرحى أصبحوا بالمئات يفترشون أروقة المدرسة وساحتها الكبيرة والجميع يجري محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه يرشددهم "أثناسيوس كوزموس" حتى أنه اخترق سطح المدرسة على بغتة طالباً إدخال الجرحى فسمح له المعلم على الفور .

دارت الدوائر ناقلة تلك الحرب من صفوف السكندريون إلى صفوف الرومي وجنوده والآريوسيين وحلفائهم حتى أنهم بدأوا يهنتون أنفسهم بالنصر واندثار العدو ، فخرج "سيزار" طالباً بعدم توقف القتال حتى ينهوا على مسيحي الإسكندرية في ذلك اليوم .

خرج "كيرلس" من ساحة القتال عائداً إلى خاله طالباً منه الدعم ، فوجده يصلي أمام هيكل القديس "مرقس" بكنيسة بوكاليا ومعه لفيف من الأساقفة والكهنة ، فقطع "ثاؤفيلس" صلاته ناظراً إلى ابن أخته مبتسماً قائلاً له :

- انظر إلى الشرق وانتظر الخلاص .

لم يفهم "كيرلس" شيئاً عائداً محاولاً شد عزم الرجال الذين تملك منهم التعب الشديد والإنهاك من القتال والكر والفر ،

وهو ينتظر تنفيذ كلام خاله الذي يثق فيه ، ولم يمض وقت كبير حتى اندلعت أصوات مئات الأبواق القادمة من ناحية مدخل الإسكندرية الشرقي حتى أنّ أصواتها العالية الضخمة غطت على أصوات المعركة من سهيل الجياد وقرقرة الدروع الحربية وصراخ الرجال القتالي بينما نظر "سيزار" إلى الرومي قائلاً في فزع رهيب :

- من هؤلاء نافخي الأبواق ؟

ظهر عدم المعرفة على وجه القائد قائلاً :

- لا أدري ، إنّ كل رجالنا في المعركة الآن .

أخذ "سيزار" جواده راكضاً ناظرًا من القادم ، فتوقف فجأة من هول الصدمة القاتلة التي تراها عيناه .

اقترب أحد السكندريين قائلاً بصوت صارخ :

- وصل البابليون وأبناء الصعيد إخواننا ، افرحوا وتهللوا لأنّ اليوم يوم خلاص للرب .



دخل أبناء مدينة بابليون ومعهم جمع كبير من أبناء مصر العليا الذي أرسلهم السيد "باخوم المشرقي" لنجدة صديقه ، فبلغت أعداد المصريين ما يقارب الأربع آلاف نفس من راكبي الخيل وألفين من راكبي الهجن ، وما يقدر بثلاثة آلاف من المشاة حاملين السيوف والحرايب ، وألف من حاملي الأسهم صارخين بصوت عظيم قائلين :

- فليقم الله وليتبدد جميع أعدائه .

لم يصمد القائد الرومي كثيرًا بجنوده فهرب بدون رجعة بينما اندحر الآريوسيون وأصدقاؤهم خاسرين الكثيرين من الرجال حتى أن قوادهم رأوا أنه لو استمرت المعركة فسوف تتم إبادتهم من الثغر السكندري كله فآثروا الاستسلام التام لتنتقل أصوات التسبيح والتهليل من أفواه السكندريين تهیی للرب مجداً عظيماً .

دخل أحد الآريوسيين يحمل شخصاً مصاباً طالباً النجدة والمساعدة من أهل المدرسة واضعاً المصاب النازف بغزارة دمه بجانب المصابين اليهود والوثنيين الذين أخذوا في التوافد بكثرة على المدرسة اللاهوتية التي لم تبخل عليهم بالمساعدة متبعين مبدأ : إن جاء إليك عدوك مصاباً فعالجه وقدم له رحمة وحباً .

اقترب "أثناسيوس" من المصاب القادم متفقداً حالته قالباً إياه على ظهره ليرى الجرح فاكتشف أنه هو "سيزار فابيان" الآريوسي ، ارتعد الأخير عندما رأى "أثناسيوس" في وجهه، غريمه وعدوه اللدود فظهرت على وجهه ابتسامة حزينة بينما الآخر يحاول مساعدته ، فأمسك "سيزار" بيده قائلاً :

- لا تحاول أن تفعل شيئاً ، اتركني أموت في سلام ، إنَّ الطعنة قد نفذت إلى الكبد وكلها لحظات وأموت ،
لعلك الآن سعيد .

تمعن "أثناسيوس" فيه قائلاً :

- ولم أكون سعيداً ؟

- لأنني أموت أمامك .

بصق "سيزار" دماء من فمه فمسحها "أثناسيوس" بقطعة من القماش قائلاً :

- للأسف يا سيزار خاب ظنك ، أنا لا أعرف أن أكره وإلا لكنت أنا قاتلك منذ زمن .

تمعن "سيزار" ناظرًا إلى غريمه قائلاً :

- هل أحببت أختي حقاً ؟

لمعت عينا "أثناسيوس" وانطلقت دمعة ساخنة صامتة قائلاً :

- نعم ، من كل قلبي .

- "مركيان" قد مات بين يدي ، لا تتعب نفسك بالبحث

عنه ، اقترب أريد أن أقول لك شيئاً .

اقترب "أثناسيوس" من "سيزار" الذي همس في أذنه بكل شيء فعله ضدهم ، وقلب الآخر يتمزق مما يسمعه من هول هذا الشر العظيم لينتهي الأخير من همسه فيعود "أثناسيوس" إلى وضعه الأول جالساً بجانبه ، فبصق "سيزار" دماً مرة أخرى قائلاً في هدوء والألم يعتصره :

- لقد كنت أعتقد أنني قد انتصرت ، لكن أكبر انتصار

لك أيها الأرثوذكسي أن أموت بين يديك ، اللعنة عليك

وعلى كنيستك .

قال "سيزار" هذا وأسلم الروح وعيناه مثبتتان على المعلم الصالح الذي وقف مراقباً ما يحدث من قريب ، ليمد

"أثناسيوس" مغلقاً عيني "سيزار" تاركاً إياه كما هو ممدداً على الأرض خارجاً خارج المدرسة اللاهوتية والمصابون والجرحى متناثرون يراهم في كل مكان من حوله حتى خارج المدرسة والجميع يحاول مساعدتهم بشتى الطرق موقفاً نزيه الدماء .

تخطب "أثناسيوس" في أعضاء مبتورة وأحشاء مطروحة بالطرقات وجثث وصلت إلى مياه البحر لتصب بحر دم داخل البحر السكندري المالح مختلطين بعضهم ببعض والدخان يتصاعد من الثغر حيث اشتعلت العديد من المنازل والكنائس والمعابد والحمائم العامة ، وسلب ونهب الكثير من الأملاك الحكومية الرومانية ومن بيوت الأثرياء فاللصوص لم ينسوا دورهم في ذلك الهجوم العنيف ليجد الشاب نفسه واقفاً أمام البحر الهادئ تماماً وبعض الجثث طافية على سطحه واجداً صوتاً يشق صمته قائلاً :

- هذه هي الإسكندرية .

لم يكن هذا سوى المعلم الصالح الذي وقف خلفه محدثاً إياه فقال الشاب دون أن يلتفت قائلاً :

- ولكن ليس المسيحية ، إننا لا نحتاج إلى المسيح بل هو من يحتاج إلينا للدفاع عنه ، إني آسف لن أستطيع أن أكون مؤمناً بعد .

وضع المعلم يده على كتف الشاب قائلاً بحنية :

- أرجوك لا تفعل هذا يا بني ، أعط لنفسك مهلة وسافر إلى اورشليم كما أردت وأعد حساباتك مرة أخرى ، لعل الله يكشف نفسه لك ماسحاً دمعك .

نظر الشاب بطرفه إلى المعلم الصالح لا يجد ما يرد به عليه فأكمل الآخر حديثه قائلاً :

- وهكذا خطأ فردي واحد يؤدي إلى هلاك جماعي ، كان بالأمس واحداً اسمه "آريوس" والآن جماعات بالعالم المسيحي كله وليس الإسكندرية .

- أعلم يا معلمي أنّ الأمر لم ينته بعد ، فمما رأيته الآن أحب أن أقول لك إنّ القادم سيكون عظيماً ، ولكن لي سؤال واحد قبل أن أغادر .

تطلع إليه المعلم بأسى فأكمل الشاب قائلاً :

- من المخطئ اليوم ؟

أخذ المعلم نفساً عميقاً مطلقاً إياه على دفعة واحدة لا يعرف بما يجيب الشاب وهو يمسخ دموعه فاستطرد الآخر قائلاً :

- الخطأ فينا نحن يا معلم ، نحن لم نستطع أن نسامح أو أن نغفر ، إذن لا تحدثني عن المسيحية مرة أخرى وعلم تلاميذك الجدد في المدرسة أنّه ليس بالإيمان فقط يحيا الإنسان بل بالسيف أيضاً والدماء ، لا سلام ولا كلام في إسكندرية الدماء .



اختفى "أثناسيوس كوزموس" ولم يره المعلم مجددًا ووصلت كل تلك الأخبار المزعجة إلى الإمبراطور الذي أرسل بطريك الإسكندرية محملاً بالخيرات الكثيرة طالباً منه العناية بالشعب السكندري لأنه خاف من أن يفقد عرشه الإمبراطوري ، فقد تربص له أعداء كثيرون خارج المملكة بتلك الثورة المسيحية الخالصة محاولاً تهدئة الأوضاع بشتى الطرق للحفاظ على هدوء إمبراطوريته فقام بعزل والي الإسكندرية ورجاله تماماً من الحكم وعدم تقلده أي مناصب ملكية مرة أخرى مرسلًا واليًا رحيماً من أبناء الإيمان المستقيم المعروف بتقواه ورحمته ليساعد في تهدئة الشعب السكندري والمصري .

عاد البابا "تيموثاؤس" إلى كنيسته واجداً كل ذلك الخراب والفقر الذي حل بكنيسته وأبنائه فقرّر فتح خزائن الكنائس وإعطاء الشعب السكندري كل ما يلزمه لسد احتياجاته وتعويض ما خسره لأن الضربة السابقة كانت موجعة على قلب الشعب أجمعه فقد دمرت الكثير والكثير ليعطي أمره إلى الأثرياء من المسيحيين باستضافة الغرباء والأرامل والأيتام والمعوزين إلى حين إصلاح ما يمكن إصلاحه أو البناء من جديد لما قد تساوى بالأرض مستعيناً بكل الخبرات والكفاءات اللازمة ، وهكذا فعل الآريوسيون واليهود والوثنيون لأن ضربتهم عظمت في أعينهم شاكرين الله أنها لم تكن إبادة مستميتة .

خرج "روفيوس" من السجن واضعاً ثروته وكل ما يملك في خدمة الكنيسة ومساعدة البابا في لم شمل ضحايا المسيحيين يساعدهم في ذلك الكاهن "ثاؤفيلس" وابن أخته "كيرلس" .

اعتزل المعلم التدريس بالمدرسة متنازلاً عن منصبه لمن هو كفاء من الأساتذة آخذاً الإذن من البابا بذلك ، والذي حاول أن يثنيه عن قراره هذا لأن المدرسة وطلابها تحتاجه فرفض بأدب متعللاً بكبر سنه وعدم احتماله المجهود بعد كل ما رآه من دماء ومآسي فنزل البابا عن رأيه شاكرًا إياه على المدة السابقة للاعتناء بالمدرسة اللاهوتية متمنياً له كل السعادة والهناء .

اعتكف المعلم داخل داره ولم يخرج منها حيًا ، اعتاد الجلوس على سطح داره أغلب أوقات الليل متطلعًا إلى شاطئ البحر باكيًا بحرقة على الإسكندرية التي يحبها .

لم يخرج من داره إلا محمولاً على الأعناق داخل نعشه مشيعاً إياه تلاميذ المدرسة وعلمائها وأساتذتها ولفيف من الأساقفة والكهنة ، ليدفن بجانب مديري المدرسة بالمدفن الرسمي الخاص بهم .

كسرت الأيام صمتها المؤلم لينتقل البابا "تيموثاوس" إلى ربه ويتم انتخاب البابا "ثاؤفيلس" ، المطرقة ، وبدأت المطرقة تطرق على رأس الوثنيين والهرطقة حتى استطاع أن يجعل الديانة المسيحية هي الدين الأوحـد والرسمي للدولة الرومانية ، مستصـدرًا بذلك أمرًا إمبراطوريًا من الإمبراطور

"ثيودسيوس" الأرثوذكسي ، بينما تفتتت المسيحية متشتتة
قطعة قطعة ، وانتهت أيام كانت فيها المسيحية على قلب
رجل واحد ألا وهو البابا "أثناسيوس" حامي الإيمان ، لتصبح
الإسكندرية مدينة ضد العالم أجمعه .

